وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الطاعون

تأليف : البير كامي

ترجمة : دكتوره كوثر عبد السلام البحيري
مراجعة : دكتور محمد القصاص



الطاعون

تأليف البير كامى

ترجمة دكتوره كوثر عبد السلام البحيرى

مراجعة دكتور محمد القصاص

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

ملتزم الطبع والنشر
عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - ت : ٩١٤٠١٠ه
القاهرة

دار الثقافة العربية للطباعة
شارع قولة الدراشة - عابدين

يتفق لدى العقل تشبيه نوع من السجن
بنوع آخر منه ، وتشبيه أى شىء يوجد
حقيقة بشىء غير موجود .

[دانيال دى فو]

وقعت تلك الحوادث المثيرة التى يتألف منها هذا التأريخ فى سنة ١٩٤؟ فى مدينة وهران ، وقد أجمع الناس على أن تلك الأحداث التى تخرج عن حيز المألوف لم تقع فى المكان المناسب لها، فمدينة وهران تبدو فى الواقع مدينة عادية لمن ينظر إليها لأول وهلة ، إذ أنها ليست أكثر من مديرية فرنسية على الشاطىء الجزائرى .

ونحن نعترف بأن المدينة فى حد ذاتها قبيحة المنظر، ولا بد من بعض الوقت لكى يدرك المرء لماذا تختلف هذه المدينة عن غيرها من المدن التجارية الكثيرة فى جميع أنحاء العالم، وذلك لمنظرها الهادىء ؛ إذ كيف يمكن أن نصور للقارىء مثلا مدينة لا يوجد بها حمام ولا أشجار ولا حدائق ، ولا تسمع فيها خفقات أجنحة، ولا حفيف أوراق ، وبالاختصار كيف يتأتى لنا أن نصور له مكاناً لا شىء فيه يثير الاستطلاع ؟ وتغير الفصول بها لا يقرأ إلا على صفحة السماء ؛ ذلك أن الربيع إنما تعلن عنه طبيعة النسيم، وسلال الزهور التى يجلبها صغار الباعة من الضواحى . إنه الربيع الذى يباع فى الأسواق ، وفى أثناء الصيف تكاد الشمس تحرق المنازل المفرطة فى الجفاف حرقاً ، وتغطى الجدران برماد داكن ؛ وحينئذ لا يمكن للسكان الحياة إلا خلف أبواب نوافذهم المغلقة . أما فى الخريف

فعلى العكس من ذلك يجتاح المدينة طوفان من الوحل ، وأما الأيام الجميلة فلا تأتى إلا فى الشتاء .

ولعل من أسهل الطرق التى يتعرف بها المرء على مدينة ما أن يبحث: كيف يعمل الناس فيها ، وكيف يحبون ، وكيف يموتون ، ففى مدينتنا الصغيرة — وقد يكون ذلك من تأثير الجو — يحدث كل هذا بطريقة واحدة عصبية ذاهلة — ومعنى هذا أن السأم يدرك أهل المدينة ، وأنهم يبذلون جهدهم حتى تكون حياتهم سلسلة من العادات الراسخة ، ومواطنونا يعملون كثيراً ، وهدفهم الدائم هو الثروة ، والتجارة أكثر الأشياء إثارة لاهتمامهم ، فهم — على حدقولهم — يشغلون أنفسهم أولا بعقدالصفقات . ومن الطبيعى أنهم يميلون كذلك للمباهج التى يميل إليها الناس جميعاً ، فيحبون النساء والسينما وحمامات البحر ، ولكن حكمتهم تدفعهم إلى الاحتفاظ بهذه المسرات لمساء السبت ويوم الأحد ، باذلين جهدهم طوال أيام الأسبوع الأخرى ، فى كسب الكثير من المال . وفى المساء — عندما يغادرون مكاتبهم — تراهم يتجمعون فى ساعة معينة فى المقاهى ، أو يتنزهون فى الشارع الكبير ، أو يجلسون فى شرفات منازلهم ، وإذا كانت الملذات التى ينغمس فيها الشبان عنيفة وقصيرة الأمد فإن رذائل الشيوخ لا تتعدى جماعات « هواة الكرة اليدوية » ، وحفلات جمعيات الصداقة ، وحلقات لعب الورق حيث يقامرون بمبالغ كبيرة .

أغلب الظن أنهم سيعترفون بأن ذلك لا يميز مدينتنا بالذات ، وأن جميع معاصرينا يعيشون على هذا النمط فى نهاية الأمر ، وقد يكون من المألوف حقاً فى أيامنا هذه أن نرى أناساً يعملون من الصباح إلى المساء ، ثم

يقضون ما يتبقى لهم من وقت يحيونه فى لعب الورق ، أو فى المقهى أو فى الثرثرة حسب ما يتراءى لهم ، ولكن هناك مدناً وبلداناً يتوق فيها الناس لأشياء أخرى ، وقد لا يغير هذا من حياتهم فى شىء ، ولكن حسبهم هذه الضروب من التطلع التى تداعب خيالهم ، أما وهران فعلى العكس من ذلك : مدينة بلا تطلع على ما يبدو ، أى أنها مدينة جد عصرية ، ومن ثم فليس من الضرورى أن نحدد الطريقة التى بها يمارس الناس الحب فى مدينتنا . فالرجال والنساء إما أن يلتهم بعضهم بعضاً فيما يسمى بعملية الحب ، وإما أن ينخرطوا فى عادة طويلة الأمد تربط بين شخصين ، وبين هذين الطرفين لا يوجد وسط فى غالب الأحيان ، وهذا أيضا ليس من مميزات مدينتنا ، ففى وهران — كما فى غيرها — يضطر الناس إلى أن يحبوا دون أن يشعروا بسبب ضيق الوقت وقلة التفكير .

أما ما يعتبر أصل من كل ذلك فى مدينتنا فهو الصعوبة التى يلقاها الناس فى سبيل الموت ، وكلمة « صعوبة » ليست هى الكلمة المناسبة هنا ، وربما كان من الأصح أن نقول : «عدم الراحة» ، وذلك أنه إذا لم يكن من الأمور المستحبة فى أى مكان أن يصاب المرء بالمرض ، فهناك مدن وبلدان تساندك فى مرضك ، وتستطيع فيها الاستسلام بصورة ما . والمريض بطبيعة الحال يحتاج إلى الرقة ، ويجب أن يجد ما يستند عليه . أما فى وهران فإن تطرف الجو ، والأهمية القصوى التى يعلقونها على الأعمال المالية ، وتفاهة منظر المدينة الخارجى ، والسرعة التى يمر بها الغروب ، ونوع الملذات ، كل هذا يتطلب أن يكون المرء فى صحة جيدة . فمن يقعده المرض هنا لا بد أن تضنيه الوحدة ، ولنفكر إذن فيمن يحضره الموت

وقد وقع فيما يشبه الفخ خلف مئات من الجدران التى يضطرم حرها ، بينما تنكب جمهرة السكان فى نفس اللحظة على التحدث فى التليفزيون ، أو فى المقهى عن عقد الصفقات وحوافظ الشحن والخصم التجارى ، وحينئذ نستطيع أن نفهم مدى ما يعانيه الناس من عدم الراحة عند الموت عندما يحضرهم فى مكان جاف كهذا المكان ، حتى ولو كان موتاً عصرياً .

قد تعطى هذه الإشارات فكرة كافية عن مدينتنا ، على أنه لا يجدر بنا أن نهول فى الأمر ؛ فإننا لم نرد إلا أن نبرز ما تتميز به المدينة والحياة من ابتذال وقلة طراقة ، ومع ذلك فإن المرء يستطيع أن يقضى فيها أيامه بلا صعوبة ، إذا ما كون له بعض العادات ، ومادامت مدينتنا تحبذ اكتساب العادات فيمكننا أن نقول : إن كل شىء فيها على ما يرام . نعم ، إننا إذا نظرنا إلى الحياة من هذه الزاوية فربما بدت لنا غير مثيرة ولا شائقة ، ولكن حسبنا أن الناس فى مدينتنا لا يعرفون عدم النظام ؛ فهم يمتازون بالصراحة ، وخفة الدم والنشاط مما يجعل المسافر ينظر إليهم دائماً بتقدير يشوبه التعقل ، وهكذا نرى هذه المدينة الخالية من الجمال ومن الخضرة ومن الروح تبـــدو مريحة حتى ينتهى فيها المرء بالركون إلى النوم . ولكن من الحق أن نضيف أنها قد ألقيت على منظر لا شبيه له ، وسط هضبة جرداء تحيط بها التلال الغارقة فى الضوء تجاه خليج خطته يد رسام بارع ، ويحق لنـا أن نأسف ؛ لأنها قد بنيت بحيث تعطى ظهرها لهـذا الخليج ، فاستحالت رؤية البحر ، حتى يضطر طالبه دائماً أن يبحث عنه . إذا عرفنا ذلك ، سهل علينا أن نسلم بأنه لم يكن هناك ما يجعل مواطنينا يتوقعون الأحداث التى وقعت فى ربيع هذا العام ، والتى كانت ـــ كما فهمنا

فيما بعد — بمثابة النذر الأولى للحوادث الخطيرة التى نقوم هنا بتسجيلها .
وقد تبدو هذه الأحداث طبيعية فى نظر البعض، وقد تبدو خيالية للبعض الآخر ، وأيا ما كان فإن المؤرخ لا يمكنه أن يحسب حساباً لهذه المتناقضات، حيث أن مهمته تنحصر فى أن يقول : « هذا ماحدث » عندما يعلم أنه قد حدث فعلا ، وأنه مس حياة شعب بأسره فى الصميم ، وأن هناك — بناء على ذلك — آلاف الشهود الذين يقدرون — بقلوبهم — صدق مايقول .

ولم يكن ليتاح للراوى — الذى سنعرفه فى الوقت المناسب — أن يصل إلى شىء من هذا القبيل لو لم تمكنه المصادفات من الاستماع إلى عدد من الشهادات ، ولو لم تضطره الظروف إلى المشاركة فى كل مايدعى أنه يقصه ، وهذا مايخول له هنا أن ينتحل لنفسه صفة المؤرخ ، ومن الطبيعى أن يكون لدى المؤرخ وثائقه ، حتى لو كان هاوياً ، وهكذا فلدى صاحب هذه الرواية أيضا مستنداته : وهى أولا شهادته وشهادات الآخرين حيث أن الدور الذى لعبه قد مكنه من جمع ما أسر إليه به أبطال هذا التاريخ ، ثم هى أخيراً النصوص التى انتهت بالوقوع فى يديه ، والتى ينوى أن يستفيد منها فى الوقت الذى يراه مناسباً ، وأن يستغلها كما يحلو له ، كما أنه ينوى . . . ولكن الوقت قد حان — فيما نظن — لكى نترك ضروب التعليق والاحتياطات اللغوية جانباً وندخل فى صلب القصة ، فإن رواية ماحدث فى أيامها الأولى تحتاج إلى بعض التدقيق .

في صبيحة اليوم السادس عشر من إبريل خرج الدكتور «برنار ريو» من مكتبه، واصطدم بفأر ميت على بسطة السلم ، وبدون أن يعطى للأمر أى اهتمام أزاح الفأر من طريقه ونزل ، ولكن ما أن وصل إلى الشارع حتى تنبه إلى أن هذا الفأر لا ينبغى أن يبقى فى مكانه وعاد على أعقابه ليلفت نظر البواب إلى ذلك ، وكان لرد الفعل الذى أحدثه ذلك على السيد ميشيل الهرم أثره فى أن يجعل الدكتور ريو يشعر بما لهذا الاكتشاف من غرابة ؛ فلم يكن وجود هذا الفأر يبدو له أكثر من أمر غريب فى حين كان البواب يعتبره أمراً فاضحاً ، والواقع أن موقف هذا الأخير كان حازماً ؛ إذ أنه لم تكن توجد فيران بالمنزل ، وعبثاً حاول الدكتور أن يؤكد له أن هناك فأراً على البسطة ، وأنه قد يكون ميتاً ، فقد ظل البواب يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأنه لا توجد فئران بالمنزل ، وإذا وجد فأر فلابد أن يكون مجلوباً من الخارج ، وبالاختصار لابد أن يكون فى الأمر مجال لدعابة سمجة .

وفى مساء اليوم نفسه كان برنار ريو واقفاً فى دهليز العمارة يبحث عن مفاتيحه قبل أن يصعد إلى مسكنه، ففوجىء بفأر كبير يبرز فى أقصى الدهليز المظلم ويسير فى خطى مضطربة وقد ابتلت فروته . وتوقف الفأر كما لو كان يحاول أن يزن خطاه ، ثم يستأنف مسيره فى اتجاه الطبيب ،

ولم يلبث أن يتوقف من جديد ويدور حول نفسه ويصرخ صرخة قصيرة ثم يسقط وقد نزف الدم من منخريه ، وقد وقف الطبيب يتأمله برهة ، ثم صعد إلى مسكنه .

ولم يكن يفكر فى الفأر ، وإنما أعاده هذا الدم النازف إلى مشاغله ، فزوجته المريضة منذ عام كانت تعتزم السفر فى اليوم التالى إلى إحدى المواقع الجبلية . وقد وجدها مستلقاه فى غرفتها كما طلب منها أن تفعل حتى تستعد لتحمل متاعب السفر ، وراحت تبتسم له وهى تقول :

— إنى أشعر أننى بصحة جيدة .

ونظر الطبيب على ضوء المصباح القريب من الفراش إلى ذلك الوجه الذى التفت ناحيته ، وبدا له أنه — وقد بلغ الثلاثين من العمر — هو نفسه وجه الشباب برغم آثار المرض الواضحة عليه ، وربما كان ذلك بسبب تلك الابتسامة التى تغلبت على كل شىء ، ثم قال لها :

— نامى إذا استطعت ، ستحضر الممرضة فى الحادية عشرة ، وسأصحبك إلى قطار الظهر ، ثم قبل جبينها المندى ، وشيعته هى بابتسامتها حتى الباب .

وفى الساعة الثامنة من اليوم التالى ، وهو اليوم السابع عشر من إبريل ، استوقف البواب الطبيب أثناء مروره وأخذ يتهم هؤلاء المازحين السمجين الذين ألقوا إليه بثلاثة فيران ميتة وسط الدهليز ، وراح يقرر أنهم لابد أن يكونوا قد اصطادوها جميعاً بفخ كبير ، لأنها غارقة فى الدم ، ثم ظل البواب بعض الوقت واقفاً بالباب ممسكا

بالفئران الثلاثة من أرجلها، منتظراً أن يكشف المذنبون عن أنفسهم ببعض الدعابات ، ولكن لم يأته أحد ، فأخذ يقول :

— أما هؤلاء فسأنتهي حتما بأن أعرف من هم .

وقد خامر الشك نفس ريو ، فقرر أن يبدأ جولة بالأحياء الخارجية حيث يسكن الفقراء من مرضاه ، وفى هذه الأحياء يتم جمع القمامة فى ساعة متأخرة ، وكان من عادة السيارة التى تمر بشوارع هذا الحى المستقيمة المتربة أن تمر مراً سريعاً بصناديق القمامة التى يتركها أصحابها على جانبي الطريق ، وبينما كان الطبيب يمر فى أحد الشوارع استطاع أن يعد إثنى عشر فأراً ملقاة فوق بقايا الخضر والخرق القذرة .

وقد وجد الطبيب أول مرضاه طريح الفراش فى غرفة تطل على الشارع ، وتستخدم غرفة نوم وغرفة طعام فى وقت واحد ، إنه أسبانى هرم ذو وجه جامد قد غطته التجاعيد ، وكان أمامه على الغطاء قدران مليئان بالبازلاء . وفى اللحظة التى دخل فيها الطبيب كان المريض جالساً نصف جلوس ، فانكفأ إلى الخلف محاولا التقاط أنفاسه الضيقة بفعل الربو المزمن ، وأحضرت له زوجته صحفة صغيرة .

وفى أثناء اشتغال الطبيب بإعطاء الحقنة ، قال له :

— أرأيت يا دكتور ؟ إنها تخرج .

وقالت الزوجة :

— نعم ، وقد التقط جارنا ثلاثة منها .

ثم أخذ العجوز يفرك يديه وهو يقول :

ـــ إنها تخرج ، ويعثرون عليها فى كل صندوق من صناديق القمامة المنزلية . إنه الجوع !

ثم لاحظ ريو ـــ دون جهد ـــ أن الحى بأجمعه يتحدث عن الفئران ، ولما انتهت زياراته عاد إلى منزله ، فقال له السيد ميشيل :

ـــ توجد برقية لك فى مسكنك .

ولما سأله الطبيب عما إذا كان قد رأى مزيداً من الفئران أجاب :

ـــ كلا ، إننى أقوم بالحراسة كما تفهم ، ولن يجرؤ هؤلاء الخنازير على إعادة الكرة .

وكانت البرقية تخبر ريو بوصول أمه فى اليوم التالى . إنها قادمة لترعى منزل ابنها أثناء غياب زوجته ، ولما دخل الطبيب مسكنه ، وجد الممرضة قد حضرت ، وشاهد زوجته واقفة ترتدى ثوباً من قطعتين ، وتضع المساحيق على وجهها .

فابتسم لها وقال :

ـــ حسن ، هذا طيب جداً .

وبعد لحظة كانا قد وصلا إلى المحطة ، وأجلسها فى عربة النوم ، وقد أخذت السيدة تتأمل المكان وهى تقول :

ـــ إن مثل هذا المكان يكلفنا أكثر مما نحتمل ، أليس كذلك ؟

فقال ريو :

ـــ ولكنه ضرورى .

ـــ وما قصة الفئران هذه ؟

— لا أدرى ، إنه أمر غريب ، ولكنه سيمر بلا ريب .

ثم قال لها — بسرعة — : إنه يطلب منها الصفح ؛ لأنه قصر فى السهر على راحتها ، ولأنه قد أهملها كثيراً ، وكانت هى تهز رأسها كما لو كانت تريد أن تطلب منه أن يكف عن الكلام .

ولكنه أردف قائلا :

— سوف تتحسن الأحوال عند عودتك ، وسنبدأ حياتنا من جديد .

فقالت — وقد برقت عيناها — :

— نعم ، سوف نبدأ من جديد .

وبعد لحظة كانت قد أدارت له ظهرها ، وأخذت تنظر من خلاله الزجاج ، وكان الناس على الرصيف يهرولون ويتصادمون ، وكان ضجيج القاطرة يصل إلى مسامعهما ، ودعا ريو زوجته باسمها الأول ، ولما التفتت إليه وجد وجهها قد تغطى بالدموع .

فقال لها برقة :

— لا .

فعادت إليها ابتسامتها من وراء الدموع ، ولكنها كانت ابتسامة مغتصبة بعض الشىء ، ثم أخذت السيدة نفساً عميقاً وقالت :

— عد أنت الآن ، سيجرى كل شىء على ما يرام . فضمها إليه ، ولم يعد الآن يرى على الرصيف من خلال الزجاج سوى ابتسامتها ، وقال لها :

— أتوسل إليك أن تعتنى بنفسك .

ولكنها لم تتمكن من سماع ما يقول .

وبالقرب من باب الخروج اصطدم ريو بالسيد « أوتون » القاضى الذى كان ممسكا بيد ولده الصغير، وسأله الطبيب عما إذا كان ينوى السفر.

وكان السيد أوتون بقامته المديدة ولباسه الأسود يبدو خليطاً من هذا الذى يسمونه رجل مجتمع وعامل من عمال دفن الموتى ، وأجاب أوتون فى صوت لطيف ولكنه مقتضب :

— إنى فى انتظار السيدة أوتون التى ذهبت لزيارة أسرتى .

وصفر القطار، وقال القاضى :

— والفئران . . .

وهنا أتى ريو بحركة فى اتجاه القطار، ثم عاد فاستدار ناحية باب الخروج وقال :

— نعم ، إنه أمر لا أهمية له .

وفى تلك اللحظة لاحظ ريو أحد رجال التنظيم وهو يحمل صندوقا مليئاً بالفئران الميتة .

وفى عصر اليوم نفسه استقبل ريو فى أول استشاراته شاباً قالوا عنه إنه صحفى ، وإنه كان قد أتى لزيارته فى الصباح، واسمه ريمون رامبير ، وهو شاب قصير القامة ممتلىء الكتفين يبدو على وجهه التصميم، ذو عينين صافيتين يبدو فيهما الذكاء، ويرتدى ملابس رياضية ، ويلوح عليه أنه يعيش فى يسر .

وقد دخل رأساً فى الموضوع الذى أتى من أجله : إنه يجمع الأخبار لجريدة كبيرة بباريس حول حياة العرب، ويريد معلومات عن حالتهم الصحية ، فقال له ريو: إن حالتهم ليست طيبة ، ولكنه يريد أن يعرف

— قبل أن يدخل فى مزيد من التفصيلات — ما إذا كان الصحفى يستطيع أن يقول الحقيقة . فأجاب هذا الأخير :

— بكل تأكيد .

— أقصد هل تستطيع أن تؤكد أن حالتهم ميئوس منهـا يأساً كلياً .

— يأساً كلياً لا : وهذا ما أقوله لك بصراحة ، ولكننى أفترض أن هذا الحكم لا أساس له .

وأجاب ريو بهدوء قائلا : إن حكما كهذا سيكون حتما بلا أساس ، ولكنه عندما وجه هذا السؤال كان يريد فقط أن يعرف ما إذا كان رامبير يحتاط فى شهادته أم لا . ثم قال :

— إنى لا أقبل إلا الشهادة التى لا يقيدها احتياط ، وعلى ذلك فلن أؤيد شهادتك بمعلوماتى .

فقال الصحفى مبتسما :

— هذه لهجة سان جوست (١)

فقال ريو — دون أن يرفع نبرة صوته — إنه لا يعرف شيئاً عن لهجة سان جوست ، ولكنه يتكلم بلهجة رجل برم بالعالم الذى يعيش فيه بالرغم من أن مزاجه لا يختلف عن مزاج من هم على شاكلته ، ولكنه مصمم — من ناحيته — على ألا يقبل الظلم، ولا الامتيازات .

وأخذ رامبير ينظر إلى الطبيب ، وقد غاص عنقه بين كتفيه . ثم قال، وهو ينهض :

(١) سان جوست هو أحد الأسماء التى لمعت فى الثورة الفرنسية ، وقد مات على المقصلة مع روبسبيير .

ـــ أعتقد أنى أفهمك .

وصحبه الطبيب حتى الباب وهو يقول :

ـــ أشكرك على فهمك للأمور بهذه الطريقة .

وهنا بدا على رامبير الضجر ، وهو يقول :

ـــ نعم إنى أفهمك ، وأرجو أن تغفر لى إقلاقى لراحتك .

وشد الطبيب على يده وهو يقول: إن هناك بحثاً صحفياً طريفاً يمكن أن يقدم عن كمية الفئران الميتة التى يعثرون عليها فى المدينة الآونة فى هذه .

فصاح رامبير قائلا :

ـــ حقاً ! إن هذا يهمنى .

وفى الساعة السابعة عشرة ، عندما خرج الطبيب لعيادات جديدة واجه على السلم رجلا ما زال فى سن الشباب، ضخم الجسم ، ذا وجه هائل ملىء بالحفر يعلوه حاجبان كثيفان .

وكان ريو قد قابل هذا الرجل عدة مرات عند الراقصين الأسبانيين الذين يسكنون الدور الأخير من عمارته ، كان « جان تارو » هذا واقفاً يدخن سيجارته باهتمام، وهو يتأمل التشنجات الأخيرة لفأر يلفظ أنفاسه على إحدى درجات السـلم تحت قدميه، ورفع تارو رأسه إلى الطبيب، ونظر إليه بعينيه الشهباوين نظرة هادئة، وقال له: صباح الخير، ثم أضاف قائلا: إن ظهور الفئران على هذا النحو أمر عجيب ، فأجاب الطبيب :

ـــ نعم ، ولكنه أصبح الآن مثاراً للضيق .

ـــ هذا من ناحية ، من ناحية واحدة فقط يا دكتور . إننا لم نر

ذلك أبداً من قبل ، هذا كل ما فى الأمر ، ولكننى أرى أن هذا الأمر يثير الاهتمام ، من الناحية الموضوعية .

وملس نارو بيده على شعره مرسلا إياه إلى الخلف ، وألقى نظرة أخرى على الفأر الذى أصبح الآن بلا حراك .

ثم ابتسم لريو ، وقال :

ـــ ولكن على كل حال ـــ يادكتور ـــ هذا من شأن البواب .

وفى هذه اللحظة بالذات وجد الطبيب البواب واقفاً أمام البيت ،وقد أسند ظهره إلى الحائط قرب المدخل، وبدا التعب على وجهه الذى لا يرى عادة إلا محتقنا ، وقال ميشيل الهرم لريو الذى أعلن له الخبر الأخير :

ـــ أجل، أعرف هذا ، إنهم يعثرون عليها الآن مثنى وثلاث ولكن هذا أمر لا تخلو منه المنازل الأخرى .

كان ميشيل يبدو محطماً قلقاً ،وقد انهال على عنقه يحكه بحركة آلية، وسأله ريو عن صحته ،ولم يكن فى استطاعته أن يجيب بأنها ليست على ما يرام ، ولكنه لم يكن يشعر أنه فى حالة عادية ، وتوهم أن حالته المعنوية هى التى تسبب له هذا التعب ، فهذه الفئران قد تسببت له فى صدمة ، وسيزول كل شىء حتما عندما تختفى الفئران .

ولكن فى صباح اليوم التالى ـــ الثامن عشر من أبريل ـــ عاد الطبيب من المحطة إلى البيت فى صحبة أمه ، فوجد ميشيل وقد بدا عليه المزيد من الغم، وازداد وجهه ندوبا ، فمن البدروم إلى السطح انتثرت نحو عشرة فئران على السلم ، كما امتلأت بالفئران أيضاً صناديق القمامة بالمنازل

المجاورة ، وقد تلقت أم الطبيب هذا الخبر دون أن تبد أية دهشة وقالت :

ـــ هذا أمر كثير الحدوث .

وكانت هذه السيدة امرأة قصيرة القامة ، ذات شعر فضى ، وعينين سوداوين رقيقتين . وقد جعلت تقول لابنها :

ـــ إنى سعيدة برؤيتك يا برنار ، ولن تقوى الفئران على تغيير هذا الشعور .

وأيد هو ما تقول ، والحقيقة أن كل شىء كان يبدو فى عينها سهلا .

وتحدث ريو بالتليفون إلى مركز إبادة الفيران ـــ الذى كان يعرف رئيسه ـــ ترى هل سبق إلى سمع هذا المدير حديث تلك الفئران التى تخرج زرافات إلى الهواء الطلق لكى تموت فيه ؟

نعم إنه هذا المدير ـــ واسمه مرسييه ـــ قد سمع الناس يتكلمون عنها، بل إنهم قد عثروا فى مركزه نفسه ـــ الذى لا يبعد كثيراً عن أرصفة الميناء ـــ على نحو خمسين منها ، ولكنه مع هذا كان يسائل نفسه عما إذا كان الأمر حقيقة خطراً ؟ ولم يكن ريو ليستطيع أن يجزم بشىء فى هذا الصدد، ولكنه كان يعتقد أنه يجب على مركز إبادة الفئران أن يتدخل ، فقال مرسييه :

ـــ أجل! لو كان هناك أمر بذلك ، وإذا كنت تعتقد أن الأمر يستحق التدخل حقيقة ، ففى وسعى أن أحاول استصدار هذا الأمر .

فقال ريو :

ـــ إن المسألة تستحق هذا العناء .

وأخبرته الخادم أنهم جمعوا من المصنع الكبير الذى يعمل به زوجها مئات ومئات من الفيران الميتة .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذه الآونة — على وجه التقريب — هى التى بدأ مواطنونا يشعرون فيها بالقلق ؛ إذ أنه ابتداء من الثامن عشر أخذت المصانع والمخازن تمتلىء بمئات من جثث الفئران .

وفى بعض الحالات كانوا يضطرون إلى الإجهاز على الفئران التى يطول احتضارها ، ولكن الدكتور ريوكان يرى — أنى ذهب وأنى تجمع المواطنون ، ابتداء من الأحياء الخارجية حتى قلب المدينة — أكوام الفئران تملأ صناديق القمامة ، أو تسد المجارى .

وقد أثارت صحف المساء هذا الموضوع ، وتساءلت عما إذا كانت البلدية تنوى التدخل أم لا ، وعن الإجراءات العاجلة التى ترى اتخاذها لحماية السكان الذين من واجبها أن ترعاهم من هذا الهجوم المحجوج . ولم تكن البلدية قد رأت اتخاذ أى إجراء ، ولكنها بدأت بعقد اجتماع للتشاور ، وصدر أمر لمركز إبادة الفئران لكى يقوم بجمع الفئران النافقة كل يوم عند الفجر .

وما كانت تنتهى عمليـة الجمع حتى كانت تحمل هذه الحيوانات سيارتان من سيارات المركز لحرقها فى معمل إحراق القمامة .

ولكن الحالة لم تزدد إلا سوءاً فى الأيام التالية ؛ فكان عدد هذه الحيوانات القارضة كل يوم فى ازدياد ، وكذلك كان المحصول الذى يجمع منها كل صباح .

ومنذ اليوم الرابع بدأت الفيران تخرج لتموت جماعات ،كانت تخرج من الأماكن المنعزلة ، ومن « بدرومات » المنازل ، ومن الأقبية والمجارى فى صفوف طويلة ، مضطربة الخطى ، وتروح ترتعد وتدور حول نفسها ثم تنفق بالقرب من الآدميين ، وفى أثناء الليل كانت صرخاتها القصيرة — ساعة احتضارها — تسمع بوضوح فى الممرات وفى الحوارى ، وفى الأحياء البعيدة كانوا يجدونها فى الصباح ملقاة بحذاء النهر وعلى فمها المدبب زهرة صغيرة من الدم . وكان يرى بعضها منتفخاً متعفناً ، والبعض الآخر متصلباً وشواربه ما زالت منتصبة ، وحتى فى قلب المدينة كانوا يعثرون عليها فى أكوام صغيرة على بسطات السلالم أو فى الأفنية . وفى بعض الأحيان كان يأتى بعضها منفرداً ليموت فى أبهاء الإدارات أو فى الأماكن المسقوفة من أفنية المدارس ، أو فى رحبات المقاهى ، وكانت الدهشة تعقد ألسنة مواطنينا حين يعثرون عليها فى الأماكن الآهلة من المدينة ، حتى ميدان السلاح والشوارع الكبرى والمتنزهات لم تسلم من تكدسها فيها . وكانت المدينة تتخلص منها ساعة الفجر ، ثم تعود فتلتق بها — تدريجيا وفى أعداد كبيرة — أثناء النهار . وكثيراً ما كان يحدث أن تصطدم أقدام المتنزهين ليلا بجثة أحدها وما زالت دافئة ، وكانت الأرض التى أقيمت عليها منازلنا تبدو وكأنها قد أخرجت أثقالها ، وما كان ينخر جوفها من سرطانات وقروح .

ولنتصور دهشة مدينتنا الصغيرة — التى كان يسودها الهدوء حتى الآن — وقد اضطرب أمرها فى بضعة أيام كما لو كان هناك رجل فى صحة جيدة ثم أخذ دمه الكثيف فى الغليان على حين غرة !

واستفحلت الأمور حتى أن وكالة الأنباء « رانسدوك » أعلنت فى إحدى إذاعاتها الإخبارية المجانية أنه فى اليوم الخامس والعشرين وحده تم جمع ستة آلاف ومائتين وثلاثين فاراً ، ثم إحراقها . وقد عمل هذا الرقم الذى يقدم لنا صورة واضحة للمنظر الذى كانت المدينة تراه كل يوم تحت بصرها على ازدياد حالة الاضطراب التى سادتها ؛ فحتى ذلك الحين كان الأمر لا يتعدى الشكوى من حدث مقزز . أما الآن فقد أخذ الناس يشعرون بأن هذه الظاهرة التى لم يمكن حتى الآن تحديد مداها ، أو تبيان أصلها تحمل نذير الخطر ، ولم يكن هناك سوى الأسبانى الهرم المصاب بالربو الذى ما فتىء يفرك يديه ويردد فى فرح الشيوخ :

« إنها تخرج ، إنها تخرج » .

وفى الثامن والعشرين من إبريل،عندما أعلنت وكالة « رانسدوك » أن المحصول قد بلغ ثمانية آلاف فأر تقريباً عم القلق المدينة ، وطالب الناس باتخاذ إجراءات جوهرية، وأخذوا يوجهون الاتهامات للسلطات، وجعل الأشخاص الذين يملكون منازل على شاطىء البحر يفكرون فى الهجرة إليها .

ولكن فى اليوم التالى أعلنت الوكالة أن الظاهرة قد توقفت فجأة ، وأن محصول الفئران الميتة التى جمعت محصول ضئيل ، وتنفست المدينة الصعداء .

ومع ذلك فقد حدث فى ظهيرة اليوم نفسه أن كان الدكتور ريو

يوقف سيارته أمام عمارته.فلمح البواب وهو يقبل من أقصى الشارع بصعوبة،وقدمال رأسه وتباعدت ذراعاه وساقاه كما لوكان مهرج مسرح،وكان الرجل الهرم يستند على ذراع قس يعرفه الطبيب، ولم يكن إلا الأب بانلو ، وهو قس من علماء اليسوعيين المجاهدين كان قد قابله من قبل عدة مرات ، وكان أهل مدينتنا جميعا يحيطونه بالتقدير ، حتى من كان منهم لا يهتم بأمر الدين ، ووقف الطبيب ينتظر وصولهما ، كانت عينا ميشيل الهرم تلمعان ، ويسمع لتنفسه صفير ، وكان حينما شعر بانحراف صحته وقد عقد العزم على الخروج لاستنشاق الهواء الطلق ، ولكن آلاما حادة فى العنق وتحت الإبطين ، وعند ثنيتى الفخذين اضطرته إلى العودة ، وإلى طلب المعونة من الأب بانلو .

وقال ميشيل :

— إنها عقد ، فلابد أنى قد بذلت مجهوداً فوق طاقتى .

وأخرج الطبيب ذراعه من باب السيارة ومر بإصبعه على أسفل العنق التى مدها إليه ميشيل، فرأى بها مايشبه عقدة من الخشب ، وقال له:

— إلزم فراشك ، وقس درجة حرارتك، وسأحضر عصراً لزيارتك.

ولما انصرف البواب سأل ريو الأب بانلو عما يظنه فى أمر قصة الفئران ؟ فقال الأب :

— لابد أنه وباء . وكانت عيناه تبتسمان من خلف زجاج نظاراته المستدير .

وبعد الغداء ، وبينما كان ريو يعيد قراءة البرقية التى وصلته من

المصحة تعلن إليه وصول زوجته دق جرس التليفون . وكان المتحدث عميلا قديما يعمل موظفاً فى دار العمدية، ويطلب الآن من ريو أن يعوده. كان هذا العميل قد قاسى طويلا من ضيق فى الأورطى ، ولما كان فقيراً فقد عالجه ريو مجاناً ، وانبرى الرجل يقول :

— نعم ، إنك تذكرنى، ولكن المسألة تتعلق الآن بغيرى . إحضر بسرعة ، فقد حدث شىء ما عند جارى .

كان يتكلم وهو يلهث . وفكر ريو فى البواب ، وقرر أن يزوره بعد رجوعه من هذه الزيارة ، ولم تمر إلا دقائق حتى كان يجتاز باب منزل منخفض فى شارع « فيديرب » من حى خارج المدينة ، وفى وسط السلم الرطب الذى تفوح منه رائحة العفن تقابل مع «جوزيف جران» الموظف الذى كان نازلا لاستقباله ، وهو رجل فى الخمسين من عمره ، أصفر الشارب ، طويل القامة ، محدودب الظهر ، ضيق ما بين الكتفين نحيل الأطراف . وقال للطبيب وهو يتقدم منه :

— إن حالته تتحسن ولكنى قد ظننت أنه لن ينجو منها .

وأخذ يمخط أنفه .

وعندما وصل ريو إلى الدور الثانى قرأ على الباب الذى على يساره هذه العبارة : « أدخل فقد شنقت نفسى » مكتوبة بالطباشير الأحمر .

ودخلا . كان الحبل يتدلى من ثريا معلقة فوق كرسى مقلوب ، كما كانت هناك منضدة مقلوبة فى ركن من أركان المكان ، ولكن الحبل كان يتدلى فى الفراغ . وقال جران — وهو يتلقط كلماته رغم بساطتها — :

ـــ كيف أشرح لك ذلك ، لقد فككت الحبل من عنقه فى الوقت المناسب ، كنت فى تلك اللحظة فى سبيلى للخروج ، فسمعت حركة ، ولما قرأت هذا الكلام ظننت أن الأمر لا يعدو المزاح ، ولكنى سمعت أنيناً غريباً يصدر منه ، أنيناً يمكن أن نسميه حزيناً .

وهرش رأسه ، ثم استطرد قائلا :

ـــ فى رأيى أن هذه العملية لابد أن تكون مؤلمة ، وقد دخلت بطبيعة الحال .

وهنا دفعا أمامهما أحد الأبواب ، ووقفا على عتبة غرفة يغمرها الضوء ، ولكن أثاثها ينم عن الفقر . كان فيها رجل قصير القامة ، مكور الجسم ، يرقد على سرير من نحاس . وكان يتنفس بقوة ، وينظر إليهما بعينين محتقنتين . فوقف الطبيب فى مكانه وكان يخيل إليه أنه يسمع فى اللحظات التى تتخلل شهيق الرجل صرخات الفئران القصيرة ، ولكن لم تكن هناك أية حركة فى أركان الغرفة ، واتجه ريو نحو السرير ، لم يكن الرجل قد سقط من ارتفاع كبير ، ولا كانت سقطته مفاجئة ، ولذا صمدت فقرات ظهره . لقد أصيب طبعاً ببعض الاختناق ، وكان من الأجدر أن تؤخذ له صورة بالأشعة ، ولكن الطبيب اكتفى بإعطائه حقنة من زيت الكافور ، وقال :

ـــ إن الحالة ستتحسن خلال أيام .

ورد الرجل بصوت مختنق :

ـــ شكراً يا دكتور .

وسأل ريو جران عما إذا كان قد أبلغ البوليس؟ فبدا عليه الارتباك وقال :

— كلا ! كلا ! لقد ظننت أن الإجراء الأسرع أن . . .

وقاطعه الطبيب قائلا :

— طبعاً ، إذن فسأقوم أنا بالتبليغ .

ولكن لم يكد المريض يسمع هذه الكلمة . حتى انتفض ، واستوى على فراشه ، وراح يعترض بأنه على ما يرام ، وليس هناك ما يدعو إليه ذلك ، فقال ريو :

— هدىء من روعك ، فهذه مسألة بسيطة ، وينبغى أن أقدم بلاغى .

ولكن المريض صاح قائلا :

— آه ! وألقى بنفسه إلى الخلف وهو يبكى بكاء متقطعاً .

وكان جران — حتى هذه اللحظة — مشغولا بمداعبة شاربه ، فاقترب منه وقال :

— هيا يا سيد كوتار ، حاول أن تفهم ، فقد يعتبر الدكتور مسئولا عما يحدث لو أنك مثلا فكرت فى إعادة الكرة . .

ولكن كوتار رد من خلال دموعه بأنه لن يعيد الكرة ، وأنها كانت لحظة جنون ، وأنه لا يطلب الآن إلا أن يتركوه فى سلام .

فقال ريو وهو يكتب تعليماته الطبية :

— اتفقنا ، وسأعود بعد يومين أو ثلاثة ، ولكن لا ترتكب حماقات أخرى .

وعلى بسطة السلم قال الطبيب لجران إنه مضطر لتقديم بلاغه . ولكنه

سيطلب من الضابط ألا يقوم بالتحقيق إلا بعد يومين .

ثم أردف قائلا :

ــ يجب مراقبته هذه الليلة ، هل له أسرة ؟

ــ أنا لا أعرف له أسرة ، ولكنى أستطيع أن أسهر عليه أنا نفسى ، ثم هز رأسه وهو يقول :

ــ لا يمكننى أن أقول إنى أعرفه ، ومع ذلك فإن التعاون واجب.

وكان ريو ينظر ــ بحركة آلية ــ إلى أركان ممرات المنزل ، فسأله جران عما إذا كانت الفئران قد اختفت تماماً من الحى ؟ ولكن هذا الموظف لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع ، وإذا كان بعض الناس قد حدثه عنه ، فإنه لم يكن ليعير اهتماماً كبيراً لتقولات أهل الحى ، قال :

ــ إن لدى مشاغل أخرى .

وشد ريو على يده ، لأنه كان معجلا لكى يزور البواب قبل أن يكتب إلى زوجته .

وقد كان باعة الصحف يصيحون معلنين أن هجوم الفئران قد توقف ، ولكن ريو وجد مريضه متدليا إلى نصفه من الفراش ، وقد وضع يداً على بطنه ، وأخرى حول عنقه ، وراح يقىء عصارة وردية فى وعاء من أوعية القمامة ، والألم يكاد يمزقه تمزيقا .

وبعد جهد كبير عاد فاستلقى على فراشه ، وقد كادت أنفاسه أن تنقطع . كانت درجة حرارته تسعاً وثلاثين درجة ونصف درجة ، وقد ازدادت عقد رقبته وأطرافه انتفاخا ، وظهر فى جنبه بقعتان داكنتان أخذتا فى الاتساع .

وأصبح الآن يشكو من ألم فى جوفه ، وهو يردد قوله :

ـــ إنه يحرقنى ، هذا الخنزير يحرقنى .

كان له ـــ الذى أصبح فى لون السناج ـــ يجعله يمضغ الكلمات مضغاً ، وقد أدار نحو الطبيب عينين متبلورتين ملأهما الصداع بالدموع، وأخذت زوجته تنظر بقلق إلى ريو الذى ظل صامتا ، ثم قالت له :

ـــ دكتور ، ما هذا ؟

ـــ قد يكون أى شىء . إنى حتى الآن لا أستطيع الجزم بشىء ، حتى هذا المساء عليه أن يلتزم بالحمية التامة ، وتناول بعض المطهرات ، ولابد له من أن يشرب كثيراً .

والحقيقة أن البواب كان يحترق من العطش .

وما أن وصل ريو إلى بيته حتى دق التليفون ، وطلب زميله «ريشار» وهو من أكبر أطباء المدينة ، ورد ريشار على سؤال لريو بقوله :

ـــ كلا ، لم أر حالة واحدة غير عادية .

ـــ ألم تصادف حالات حمى مصحوبة بالتهابات موضعية ؟

ـــ بلى ، رأيت حالتين من التورمات الشديدة الالتهاب .

ـــ بشكل غير عادى ؟

فقال ريشار .

ـــ إن ما يسمى عاديا ، أنت تعرف ..

ومهما يكن من شىء ، ففى المساء كان البواب يهذى ، ويشكو من الفئران ، وقد بلغت درجة حرارته الأربعين ، وحاول ريو أن يجرى

اختباره على أحد الخراريج لعله يعرف نوع المرض ، فكان البواب يعوى من لهيب زيت التربنتينا، ويقول : آه ! هؤلاء الخنازير !

وازدادت العقد حجما، وأصبحت صلبة الملمس ، وكادت زوجة البواب تجن ، وقال لها الطبيب :

— إسهرى عليه، واطلبينى إذا دعى الأمر إلى ذلك .

وفى اليوم التالى ، وهو اليوم الثلاثين من أبريل ، أخذ يهب على المدينة نسيم دافىء ، تحت سماء زرقاء رطبة ، وقد حمل هذا النسيم رائحة الزهور التى جلبها معه من الضواحى البعيدة ، وكانت ضوضاء الصباح فى هذا اليوم فى الشوارع تبدو أكثر انتعاشاً ، وأكثر مرحاً من المعتاد ، وكان هذا اليوم أشبه ببداية عهد جديد فى مدينتنا الصغيرة بعد أن تخلصت من الهلع الذى عاشت فيه طوال الأسبوع ، حتى انرى ريو نفسه ينزل لعيادة البواب بقلب مرح بعد أن تلقى خطاباً مطمئناً من زوجته .

وكانت الحمى قد هبطت فعلا إلى ثمان وثلاثين درجة ، وكان المريض يبتسم فى فراشه، وقد بدا عليه الهزال . وقالت زوجته :

— إن حالته قد تحسنت ، أليس كذلك يا دكتور ؟

ورد الطبيب :

— يجب أن ننتظر وقتاً آخر .

ولكن لم يحن وقت الظهر حتى عادت الحمى إلى الارتفاع فجأة، فوصلت درجتها إلى الأربعين . وعاد المريض إلى الهذيان دون توقف ، وعاوده القىء من جديد . وكانت عقد الرقبة تؤلمه عند اللمس ، ويبدو كما لو كان يريد أن يبعد رأسه عن جسمه بقدر المستطاع . أما زوجته فقد

جلست بجانب رجل السرير، ويداها على الغطاء وقد أمسكت بهما قدمى المريض فى رفق ، وكانت تنظر إلى ريو الذى قال لها :

ـــ أنصتى لما سأقول : يجب علينا عزله ، وعلاجه علاجا خاصاً . سأكلم المستشفى ، وسننقله فى سيارة الإسعاف .

وبعد ساعتين كان الدكتور والمرأة ينحنيان على المريض فى السيارة وكانت تخرج من فمه المبطن بالبثور الملتهبة بعض بقايا الكلمات ، فيردد قوله « الفئران » . وهنا اخضر لون وجهه، وأصبحت شفتاه فى لون الشمع ، وثقل جفناه . وتقطعت أنفاسه وتلاحقت ، وتباعدت أطرافه بسبب الأورام ، وقد لصق بقاع فراشه كما لو كان يريد أن يطبقه عليه ، أو كما لو كان هناك صوت ماينبعث من باطن الأرض ويدعوه بلا انقطاع، كان البواب يختنق تحت ضغط خفى ، وانفجرت المرأة بالبكاء وهى تقول :

ـــ ألم يعد هناك أى أمل ، يا دكتور ؟

وأجاب ريو :

ـــ لقد مات .

يمكننا أن نعتبر موت البواب نهاية تلك الفترة المليئة ببواعث الحيرة، وبداية لفترة أخرى أصعب نسبياً من الفترة السابقة، تحولت فيها الدهشة التي استولت على الناس في الفترة الأولى إلى ذعر ؛ فمواطنونا لم يكونوا قد فكروا قط أنه يمكن لمدينتنا الصغيرة أن تصبح مكانا مختاراً للفئران لكي تأوى وتنفق فيه تحت وهج الشمس، وأن البوابين يموتون فيه بأمراض غريبة، وهذا ما قد فطنوا إليه منذ ذلك الحين، ولا شك أنهم كانوا مخطئين من وجهة النظر هذه، وأنه كان عليهم أن يعيدوا النظر في أفكارهم، ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لا نضم إلى ما لديهم من عادات مكتسبة، ولانتهت المشكلة، ولكن كان هناك مواطنون آخرون ممن لم يكونوا دائماً بوابين ولا فقراء، وقد اضطروا أن يسلكوا نفس الطريق التي كان ميشيل أول من ارتاده، ومنذ هذه اللحظة بدأ لديهم الخوف المصحوب بالتفكير العميق.

ولكن الراوى يرى — قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الحوادث — أن يستشهد برأى شاهد آخر هو «جان تارو» الذى تعرفنا عليه في أول القصة، فيما يتعلق بالفترة التي انتهت.

كان هذا الرجل قد أتى إلى وهران قبل ذلك بعدة أسابيع، ونزل منذ قدومه فندقا كبيرا في وسط المدينة، كان مظهره يدل على أنه في

درجة من اليسر تسمح له بالعيش من دخله ، ولكن لم يكن أحد يستطيع أن يقول: من أين أتى؟ ولا لماذا أتى ؟ بالرغم من أن المدينة كانت قد ألفته ، كنت تراه فى جميع الأماكن العامة . وما أن بدأ الربيع حتى كان يشاهد كثيراً على الشواطىء، ويسبح فى مياهها فى متعة ظاهرة ،كان رجلا طيباً ، دائم الابتسام ، يبدو صديقاً لكل المتع العادية دون أن يكون عبداً لها، والعادة الوحيدة التى عرفت عنه كانت زياراته للراقصين الأسبانيين ، وما أكثرهم فى مدينتنا .

وتعتبر مفكرة هذا الرجل هى الأخرى تاريخا لتلك الفترة العسيرة، ولكنه تاريخ من نوع خاص يبدو فيه التحيز بشكل ينم عن التفاهة ، وقد نظن — لأول وهلة — أن تارو كان يتفنن فى إصدار أحكامه على الأشياء، وعلى الناس من خلال الجانب المفرط فى التكبير من منظاره . فكان فى وسط هذا الاضطراب الذى ساد المدينة يحاول جاهداً أن يجعل من نفسه مؤرخا لما لا تاريخ له ، وقد نلومه على تحيزه هذا ، ونظن فيه تبلد القلب ،ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأن مفكرته تحوى مجموعة كبيرة من التفصيلات الثانوية التى لها أهميتها رغم كل اعتبار ، بل أن هذه الغرابة نفسها تمنعنا من التسرع فى الحكم على هذا الرجل الطريف .

كانت الملاحظات الأولى التى دونها جان تارو ترجع إلى بداية قدومه إلى وهران ، وكانت تعبر منذ البداية عن رضاه التام بوجوده فى مدينة تصل — فى حد ذاتها — إلى هذه الدرجة من القبح ، فنراه يورد فيها وصفاً مفصلا للأسدين البرنزيين اللذين يزينان دار البلدية،ويحشوها

باعتذاراته عن عدم وجود أشجار بالمدينة ، وعن قبح منظر المنازل ، وغرابة تخطيط المدينة ، ونرى تارو يذكر فى غضون هذه الملاحظات بعض المحادثات التى سمعها فى الترام والشوارع دون أن يعلق عليها ، فيما عدا محادثة واحدة ذكرها فيما بعد ، وتدور حول شخص يدعى كامب ، وهذه هى المحادثة التى سمعها تارو من اثنين من محصلى الترام .

— أنت تعرف كامب جيداً .

— كامب ؟ أهو شخص طويل القامة ، وذو شارب أسود ؟

— هو هذا ، كان يعمل محولا للخطوط .

— نعم بكل تأكيد

— لقد مات .

— حقاً ! متى حدث ذلك ؟

— بعد قصة الفئران .

— هكذا ! وماذا أصابه ؟

— لا أدرى ، ربما كانت الحمى ، إنه لم يكن قوى البنية ، وقد أصيب بخراريج تحت الإبطين ، ولم يقو على المقاومة .

— ومع ذلك لم تكن حالته تختلف عن غيره من الناس .

— بلى ، فقد كان متعب الصدر ، وكان مع ذلك مشتركا فى « جمعية نشر الموسيقى » ومن الطبيعى أن يصاب المرء بالضرر من مواصلة النفخ فى قصبة هوائية .

وأنهى الثانى الكلام قائلا :

ـــ آه ! إذا كان المرء مريضاً فما عليه إلا أن يكف عن النفخ فى قصبة هوائية .

وبعد أن انتهى تارو من تسجيل هذه الإشارات القليلة أخذ يسائل نفسه عن السبب الذى حدا بكامب إلى الاشتراك فى جمعية الموسيقى ضد مصلحته الأكيدة ، والبواعث العميقة التى جعلته يغامر بحياته فى سبيل استعراضات يوم الأحد ، ويتبع ذلك مشهد يبدو أنه أثر فى تارو تأثيراً طيباً ، وهو مشهد يحدث كثيراً فى الشرفة المواجهة لنافذته . فقد كانت غرفته تطل على شارع جانبى تنام فيه بعض القطط فى ظل الجدران ، ولكن لم يكن الناس ينتهون من تناول غذائهم فى كل يوم ، ويأوون إلى مضاجعهم خلال الساعات التى تأخذ فيها المدينة بأسرها سنة من النوم بسبب الحرارة حتى يظهر فى شرفة الجانب الآخر من الشارع رجل هرم قصير القامة ، فكان يقف بشعره الأبيض المرجل ، وقامته المستقيمة وملابسه ذات الطابع العسكرى ، ويدعو القطط بصوت متعال حنون فى آن واحد : « قطيطة ، قطيطة » وترفع القطط أعينها المثقلة بالنعاس دون أن تتحرك ، ثم يأخذ الرجل فى تمزيق قطع صغيرة من الورق ويلقى بها إلى الطريق ، وتلتفت القطط نحو هذه الفراشات البيضاء التى تنهمر على الطريق ، وتتقدم نحو الشارع ، وهى تمد أرجلها بتردد نحو القصاصات الأخيرة ، وحينئذ يأخذ الرجل فى البصاق على القطط بقوة ودقة ، فإذا ما أصاب الهدف ضحك من أعماقه .

وفضلا عن ذلك ، يبدو أن تارو قد أخذ بطابع المدينة التجارى ، ذلك أن مظهر المدينة وازدحامها ، بل ووسائل التسلية فيها ، كانت كلها

من مستلزمات الحياة التجارية . وقد حظى هذا الطابع الفريد — وهذا هو نص العبارة الواردة فى المفكرة — برضا تارو ، حتى لنراه ينهى إحدى الملاحظات التى قالها فى إطرائه بهذه الصيحة التعجبية « وأخيراً » . !

هذه هى النواحى الوحيدة التى اتخذت فيها ملاحظات هذا المسافر طابعاً شخصياً يصعب تحديد معنـاه وجديته ، فنراه — مثلا — بعد أن يذكر أن اكتشاف فأر ميت قد دفع صراف الفندق إلى ارتكاب خطأ حسابى — يضيف معقباً بخط أقل وضوحاً من المعتاد :

سؤال : ماذا نفعل حتى لا نضيع وقتنا ؟

جواب : أن نمارسه بكل ما فيه من طول .

الوسائل : قضاء أيام بطولها فى قاعة الانتظار بعيادة طبيب الأسنان على مقعد غير مريح ، قضـاء يوم الأحد بعد الظهر فى الشرفة ، الاستماع إلى محاضرات بلغة لا نفهمهـا ، أن يختـار المرء أطول الطرق الحديدية وأكثرها مشقة ويسـافر واقفاً بطبيعة الحـال ، أن يقف فى الصفوف الطويلة أمام شـباك التذاكر فى المسـارح ثم يترك دوره يمر دون حجز . ألخ . . ألخ .

وبعد هذه المفارقات اللغوية أو الفكرية مباشرة تبدأ المفكرة فى وصف مفصل لعربات الترام فى مدينتنا ، بشكلها الزورقى ، ولونها الذى لا يمكن تحديده ، وقذارتها المعتادة ، ثم ينهى كاتبها ملاحظاته بكلمة : « هذا جدير بالملاحظة » ، وهى عبارة لا تضيف جديداً . أما فيما يتعلق بقصة الفئران ، فهذا مثل من الإيضاحات التى يقدمها له تارو :

« لقد أصيب الرجل الهرم المواجه لى بخيبة أمل ، إذ لم تعد توجد قطط ؛ فقد اختفت جميعاً بعد أن أثارتها الفئران النافقة التى يعثر عليها بكميات كبيرة فى الشوارع ، وفى رأيى أن هـذا الأمر لا يرجع إلى أن القطط تأكل الفيران النافقة ؛ فإنى أذكر أن قططى لم تكن تحب ذلك ، ولكن هذا لا يمنع من أنها تمرح الآن فى البدرومات ، وأن الرجل المسن القصير قد أصيب بخيبة أمل ، فهو الآن يصفف شعره بعناية أقل من ذى قبل ، ويبدو أقل قوة ، وإنك لتشعر بما يعتريه من قلق ؛ إذ أنه يعود أدراجه من الشرفة بعد لحظة من خروجه إليها ، وقد حدث ذات مرة أن بصق فى الهواء .

« وفى المدينة أوقفوا اليوم إحدى عربات الترام ؛ لأنهم وجدوا فيها فأراً ميتاً لا يدرى أحد كيف وصل إلى هذا المكان . وقد غادر العربة سيدتان ، أو ثلاث سيدات ، وألقى بالفأر بعيداً ، ثم استأنف الترام سيره .

« وفى الفندق أخبرنى المشرف المناوب — وهو رجل جدير بالثقة — بأنه يتوجس شراً من هذه الفيران الكثيرة .

« فعندما تغادر الفئران السفينة . . » وقد أجبته : أن هذا صحيح فى حالة السفن ، ولكن لم يثبت صحته فيما يتعلق بالمدن . ولكنه مع ذلك كان راسخ الاقتناع بما يقول ، وقد سألته عن رأيه فيما يمكن أن نتوقع ، فلم يدر شيئاً ؛ إذ أنه من المستحيل التكهن بهذا الشر ، ولكنه لن يكون من المستغرب حدوث زلزال ، وقد وجدت أن هذا محتمل .

ولما سألني عما إذا لم يكن هذا يسبب لى القلق ، قلت له : إن كل ما يهمنى هو أن أتمتع باطمئنانى الداخلى ، وقد فهمنى الرجل فهما كاملا .

« وفى مطعم الفندق توجد أسرة بأكملها تثير الاهتمام : أما الأب فرجل طويل القامة نحيل العود يرتدى لباساً أسود ، وياقة منشاه ، وبه صلع فى وسط رأسه ، وله خصلتان من الشعر الأشهب ، واحدة ذات اليمين ، وأخرى ذات اليسار ، وتخلع عليه عيناه المستديرتان القاسيتان، وأنفه الدقيق ، وفمه المستقيم صورة بومة مهذبة .

كان الرجل دائماً أول من يصل إلى باب المطعم ، حيث كان يتراجع تاركا زوجته تمر — وهى سيدة قصيرة تشبه الجرذ الأسود — وبعد ذلك يدخل ، ومن خلفه مباشرة غلام وفتاة صغيرة يبدوان فى ملابسهما كـكلبين حسنى التدريب ، وعندما يصل إلى مائدته ينتظر حتى تأخذ زوجته مكانها ، ثم يتبعها بالجلوس ، وحينئذ يسمح للجروين الصغيرين بأن يستلقيا على مقعديهما .

كان يخاطب زوجته وأولاده بكلفة ، فكان يوجه لها جارح القول فى غلاف مهذب ، ويلقى إلى أولاده بالأوامر الصارمة :

— نيكول ، إنك تبدين ثقيلة الدم بصورة تعتبر غاية فى العظمة .
« إن الفتاة الصغيرة على وشك أن تنفجر باكية ، وهذا ما ينبغى لها أن تفعل » .

« لقد كان الغلام الصغير جد مشغول هذا الصباح بمسألة الفيران ، وأراد أن يقول كلمة فى هذا الموضوع وهو على المائدة ، فقال الأب :

ـــ لا ينبغى أن تتكلم عن الفئران وأنت على المائدة ، يا فيليب . إنى أنهاك عن التفوه بهذه الكلمة مستقبلا ، فقال الجرذ الأسود :

ـــ إن أباك على حق .

وهنا أخفى الجروان الصغيران أنفيهما فى طبقيهما ، وعبرت البومة عن شكرها بحركة مقتضبة من رأسها .

« ورغم هذا المثل الجميل نرى المدينة تكثر من الكلام عن قصة الفئران هذه ، وقد تدخلت الجريدة فى الموضوع . أما المجلة المحلية ـــ وهى متنوعة الموضوعات فى العادة ـــ فقد أصبحت لاهم لها إلا حملة الهجوم التى شنتها على البلدية ، فقالت :

« هل يعلم رجال البلدية أى خطر نتعرض له من جراء جثث الفئران المتحجرة ؟ » .

أما مدير الفندق ، فإنه لم يعد يستطيع التحدث فى موضوع آخر ، ومعنى هذا أن الموضوع يشيره ، فالعثور على فئران فى مصعد فندق محترم يبدو له أمراً غير معقول ، وقد قلت له مواسيا :

« ولكن كل الناس فى البلية سواء » فأجابنى :

« هو كذلك ، فنحن الآن فى نفس حالة الآخرين » .

وكان هو أول من حدثنى عن حالات تلك الحمى الغريبة التى بدأ الناس يقلقون لظهورها ـــ وقد أصيبت بها إحدى وصيفات فندقه ـــ فقال لى ـــ شارحاً ـــ باهتمام :

— ولكنها ليست معدية بكل تأكيد .

فقلت له :

— إن هذا لا يغير من الأمر شيئا .

فقال :

— آه . إنك مثلى يا سيدى ، تؤمن بالقضاء والقدر .

ولم أكن قد قلت شيئاً من هذا القبيل ، ولا أعتقد أنى أومن بالقضاء والقدر .

فقلت له . . .

وتأخذ مفكرة تارو — ابتداء من هذا الموضع — فى التحدث بشىء من التفصيل عن تلك الحمى المجهولة التى بدأ الناس يقلقون بسببها ، وبعد أن ذكر كيف أن الرجل الهرم القصير قد استعاد قططه عقب اختفاء الفئران ، وكيف استأنف إصابته الهدف بمزيد من الدقة والأناة ، أضاف قائلا : إنه من الممكن أن نذكر نحو عشر حالات من هذه الحمى فيها توفى معظم المصابين .

ومن الممكن أن نحصل على صورة للدكتور ريو من خلال هذه الوثيقة ، وهى صورة يستطيع الراوى أن يؤكد صدقها :

« يبدو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، متوسط الطول ، له كتفان ممتلئتان ، ووجه شبه مستطيل ، وعينان قاتمتان تنمان عن الجد ، وبفكيه بروز ، ويتسم أنفه بالاستقامة ، له شعر أسود قصير ، وفم مقوس ، وشفتان غليظتان مضمومتان فى غالب الأحيان ، إنه يشبه أن يكون

فلاحاً صقليا بجلده الأسمر المغطى بشعر أسود ، وملابسه ذات الألوان القاتمة دائماً — وإن كانت لائقة — سريع الخطى ، ينزل من الإفريز دون أن يغير من مشيته ، ولكنى رأيته مرتين كل ثلاث مرات يصعد الإفريز المقابل بقفزة قصيرة ، كثير الشرود أثناء القيادة ، فهو ينسى أن يعيد إشارة الدوران فى سيارته حتى بعد أن يتم دورانه ، عارى الرأس دائماً ، وهيئته تدل على أنه متمكن من عمله .

كانت الأرقام التى دونها تارو صحيحة ، وقد كان الدكتور ريو على بينة من ذلك ، ولما تم عزل جثة البواب اتصل الدكتور — تليفونياً — بريشار ليسأله عن هذه الحمى التى تصيب أعلى الفخذين .

فقال ريشار :

— لست أدرى شيئا عنها . لقد تسببت فى وفاة اثنين ، مات أحدهما بعد ثمان وأربعين ساعة من إصابته ، والثانى بعد ثلاثة أيام ، وكنت قد تركت هذا الأخير ذات صباح وقد بدت عليه كل مظاهر النقاهة .

فقال له ريو :

— أرجو إخطارى إذا صادف حالات أخرى من هذا القبيل .

ثم اتصل بأطباء آخرين ، وقد دله هذا التحقيق الذى أجراه على حدوث نحو عشرين حالة خلال بضعة أيام ، وكانت أغلبها قاتلة ، وحينئذ طلب من ريشار — أمين عام نقابة الأطباء فى وهران — أن يتخذ إجراء بعزل المرضى الجدد .

فأجابه ريشار قائلا :

— ولكنى لا أملك هذا الحق ؛ إذ لابد لذلك من صدور

قرارات إدارية ، ولكن ما الذى يجعلك تظن أن هذا المرض معد ؟

ـــ لاشيء يجعلنى أظن ذلك ، ولكن أعراضه تثير القلق .

ومع ذلك فقد وجد ريشار أنه ليس له الحق فى اتخاذ إجراء كهذا ، وأن كل ما يستطيع عمله هو أن يتحدث عنه إلى المدير .

وفى أثناء هذه المحادثات اكفهر الجو ، ولم يأت صباح اليوم التالى لموت البواب حتى ظهر ضباب كثيف حجب السماء ، وهطلت على المدينة أمطار كالسيول ، ولكنها كانت قصيرة الأمد ، وتلت هذه التغيرات المفاجئة حرارة مصحوبة بالأعاصير ، كما أن البحر نفسه قد فقد لونه الأزرق القاتم ، وبدا تحت هذه السماء الغائمة ذا انعكاس فضى أو حديدى تؤذى العين رؤيته ، وكانت حرارة الربيع مصحوبة بالرطوبة حتى جعلت الناس يهفون إلى حر الصيف اللافح ، وقد خيم على المدينة ـــ التى بنيت فوق هضبة على شكل قوقعة ـــ نوع من الخمول الحزين ، وراح كل من يقبعون وراء تلك الجدران الطويلة المتداعية ، أو يجوسون خلال الشوارع ذات المعارض الزجاجية التى يعلوها التراب ، أو يتكدسون فى عربات الترام ذات اللون الأصفر القذر ، يشعرون كما لو كانوا سجناء تحت هذه السماء . ولم يسعد بهذا الجو سوى مريض ريو الهرم الذى تغلب على ربوه ، حتى كان يقول :

ـــ إن هذا الجو اللافح مفيد لشعيبات الرئة .

والواقع أن هذا الجو كان لافحاً ، ولكنه لم يكن أشد ولا أقل لفحاً من الحمى ؛ لقد أصيبت المدينة بأجمعها بالحمى ، هكذا على الأقل كان إحساس

الدكتور ريو فى ذلك الصباح الذى توجه فيه إلى شارع « فيديرب » ليحضر التحقيق فى محاولة كوتار الانتحار ، ولكن هذا الإحساس كان يبدو له مجانبا للصواب ، وكان يعزوه إلى توتر أعصابه ، وإلى الهموم التى كانت تحيطه من كل جانب ، ورأى من الواجب أن يسرع بتنظيم أفكاره .

وعندما وصل لم يكن ضابط الشرطة قد حضر بعد ، وكان جران ينتظر على بسطة السلم ، فقررا أن يدخلا حجرته بادىء ذى بدء ، وأن يتركا الباب مفتوحاً . وكان جران موظف البلدية يسكن غرفتين أثثتا تأثيثا بسيطا ، ولم يكن فيهما ما يثير الملاحظة سوى رف من الخشب الأبيض وضعت عليه بعض المعاجم ، وسبورة سوداء كتب عليها بخط قد محى بعض الشيء ، وإن كان لايستعصى على القراءة «الممرات المزهرة» . وقد قرر جران أن كوتار قضى ليلة هادئة ، ولكنه استيقظ فى الصباح وهو يشكو من ألم فى رأسه ، وقد فقد كل نشاط ، أما جران نفسه فكان يبدو متعباً متوتر الأعصاب ، وقد أخذ يذرع المكان ذهاباً وجيئة ، ثم لا ينى يفتح ملفا كبيراً موضوعا على المنضدة ، ومليئاً بأوراق مكتوبة باليد ، لكى يعيد إغلاقه .

ومع ذلك فقد قص على الطبيب أنه لا يعرف كوتار إلا معرفة سطحية ، ولكنه يظن أن لديه بعض المال ، وكوتار فى رأيه رجل غريب الأطوار ، ولذا فقد وقفت علاقتهما مدة طويلة عند حد تبادل بعض التحيات على السلم .

— لم أتحدث معه إلا مرتين ، فمنذ بضعة أيام سقطت منى علبة

مليئة بالطباشير كنت أحملها معى إلى البيت ، وكان بها بعض الطباشير الأحمر والأزرق ، وفى هذه اللحظة خرج كوتار إلى السلم وساعدنى فى جمعه ، وسألنى فيم أستعمل هذا الطباشير مختلف الألوان .

وحينئذ شرح له جران أنه يحاول استرجاع معلوماته فى اللاتينية التى نسى الكثير منها منذ عهد الليسيه ، ثم قال موجها كلامه للطبيب :

ـــ نعم ، فقد أكدوا لى أنه ذو فائدة كبيرة فى معرفة معانى الكلمات الفرنسية .

لقد كان إذن يكتب على سبورته كلمات لاتينية . كان يرسم أجزاء الكلمات التى تتغير مع التصريف باللون الأزرق ، أما الأجزاء التى تبقى على حالها فى التصريف فكان يكتبها باللون الأحمر ، ثم واصل كلامه قائلا :

ـــ لست أدرى ما إذا كان كوتار قد فهم ما أقول ، ولكنه أبدى كثيراً من الاهتمام ، وطلب منى قطعة من الطباشير الأحمر ، وقد أدهشنى ذلك بعض الشيء ، ولكن . . . لم يكن فى إمكانى طبعاً أن أتكهن بأنه سيستخدمها فى مشروعه .

وسأله ريو عن موضوع المحادثة الثانية ، ولكن فى هذه اللحظة حضر ضابط الشرطة يصحبه أمين أسراره ، وطلب أن يبدأ بسماع أقوال جران . ولاحظ الطبيب أن جران إذا تحدث عن كوتار لقبه دائماً « باليائس » وقد أطلق مرة على محاولته الانتحار عبارة « القرار الذى لا راد له » . وقد استمر الرجلان يناقشانه أسباب الانتحار ، وكان يبدو على جران كما لو كان يتحسس فى اختيار ألفاظه ، وتوقف الضابط عند عبارة « هموم

شخصية ، وسأل جران عما إذا لم يكن قد ظهر شيء فى تصرفات كوتار يمكن منه الوصول إلى معرفة ما أسماه « بقراره » .

— لقد طرق بابى أمس ليطلب بعض عيدان الثقاب ، فأعطيته علبتى ، وقد اعتذر لى قائلا : « إن بين الجيران . . . » ثم أكد لى أنه سيعيد إلى ، علبتى فطلبت منه أن يحتفظ بها .

ثم سأله الضابط عما إذا لم يكن قد لاحظ شيئاً غريباً فى تصرفات كوتار ، فقال :

— لقد بدا لى من الغريب أن سيماه كانت تدل على أنه يود إطالة حديثه معى . ولكننى كنت مشغولا بالعمل .

ثم التفت إلى ريو ، وأضاف قائلا بشيء من الحرج :

— عمل شخصى .

وطلب الضابط رؤية المريض ، ولكن ريو رأى من الأوفق أن يعد كوتار لهذه الزيارة أولا . ولما دخل عليه فى غرفته وجده لا يرتدى إلا ملابس داخلية ذات لون ضارب إلى الشهبة ، وكان جالساً فى سريره وعيناه فى اتجاه الباب ، ووجهه يعبر عن القلق ، وقال :

— أهى الشرطة إذن ؟

فقال ريو :

— نعم ، ولكن لا تضطرب . ما هى إلا بعض الشكليات ، ثم يتركونك فى سلام .

ولكن كوتار أجاب بأن هذا عبث فى عبث ، وأنه لا يحب الشرطة ، فظهر على ريو شيء من التأفف ، وقال :

ـ وأنا أيضاً لست متنبأ بحبها ، ولكن كل ما يطلب منك هو أن تجيب بسرعة على ما يوجه إليك من أسئلة ؛ لكى تنتهى المسألة إلى الأبد .

وسكت كوتار ، وعاد الطبيب ناحية الباب . ولكن هذا الرجل القصير عاد فدعاه ، ولما صار قريباً منه أمسك بيديه قائلا :

ـ لا يصح أن يسيئوا إلى رجل مريض ، رجل شنق نفسه ، أليس كذلك يا دكتور ؟ .

وظل ريو يتفحصه برقة ، ثم أكد له أن أحداً لم يفكر قط فى ذلك ، وأنه هنا لحمايته ، فبدا على كوتار شىء من الارتياح . ثم قام ريو بإدخال الضابط .

وقرئت شهادة جيران على كوتار ، وسأله الضابط عما إذا كان يستطيع أن يحدد أسباب فعلته ، فأجاب ـ دون أن ينظر إليه ـ بأن تعبير « هموم شخصية » مناسب جداً ، وألح عليه الضابط أن يذكر ما إذا كان فى نيته إعادة هذه الفعلة ، ولكن الانفعال بدا على كوتار ، وأجاب بالنفى ، وبأنه لا يطلب سوى أن يتركوه فى سلام .

وقال الضابط بشىء من الحدة :

ـ ألفت نظرك إلى ذلك ، أنت الآن تقلق سلام الآخرين .

ولكن ريو أومأ إليه بألا يواصل كلامه ، فتوقف عند هذا الحد ، واتجه إلى باب الخروج وهو يتنهد ويقول :

ـ أنت تعلم أن لدينا مشاغل أخرى منذ أن بدأ الناس يتكلمون عن هذه الحمى .

ثم وجه كلامه للطبيب يسأله عما إذا كان الأمر جد خطير ، فأجاب بأنه لا يدرى .

فقال الضابط — خاتماً كلامه — :

— إن الوقت أزف ، هذا كل ما فى الأمر .

نعم ، أغلب الظن أن الوقت قد أزف ، فقد كان الأمر يزداد استفحالا لدى مرور كل لحظة من النهار ، وكان ريو يشعر بأن مخاوفه تزداد بعد كل زيارة يؤديها لمرضاه ، وفى مساء اليوم نفسه ، حدث فى الحى الخارجى أن أخذ أحد جيران المريض الهرم فى القىء ، وراح يضغط على ثنيتى فخذيه ، ويهذى ، وكانت أورامه أشد من أورام البواب ، وقد بدا أحدها يبعث النتن ، ثم انفجر كما تنفجر الثمرة العطبة ، ولما عاد ريو إلى منزله اتصل — تليفونيا — بمخزن أدوية المنطقة ، ومما يذكر بهذه المناسبة أن ريو كان يكتفى بأن يسجل فى ملاحظاته الخاصة بالعمل فى هذا التاريخ عبارة : « إجابة بالنفى » .

وكان الناس قد أخذوا يدعونه إلى منازلهم فى حالات مشابهة ، فكان لا بد له من فتح الخراريج .

وكانت تكفى ضربة أو ضربتان متقاطعتان من مبضعه حتى يقذف الخراج بصديد ممزوج بالدم ، وكان المرضى ينزفون وهم متباعدو الأطراف ، ولكن البقع كانت لا تنى عن الظهور على البطن وعلى السيقان ، وكان الخراج الذى يكف عن الإفراز يعود فيتورم من جديد ، وفى أغلب الأحايين كان المريض يموت فى جو من الرائحة المروعة التى تفوح منه .

أما الصحافة التي طالما ثرثرت حول موضوع الفئران ، فلم تذكر هذه الحمى بشيء ، ذلك أن الفئران كانت تنفق في الطرقات ، أما الناس فكانوا يموتون في منازلهم ، والجرائد لا تهتم إلا بالشارع ، وأما المديرية والبلدية فقد خامرهما الشك ، ذلك أنه لم يكن يدور بذهن أحد أن يبدي اهتماما ما دام كل طبيب لم ير إلا حالتين أو ثلاث حالات ، ولكن كانت الكفاية كل الكفاية في أن يقوم أحد الناس بعملية جمع بسيطة ، وقد جاءت نتيجة هذه العملية مزعجة ، فقد تضاعفت حالات الوفاة مراراً في بضعة أيام ، وبدا لمن كان يشغلهم هذا المرض الغريب أن الأمر يتعلق حتما بوباء حقيقي ، وكان هذا هو الوقت الذي اختاره كاستل لزيارة ريو ، وكاستل زميل لريو ، ويكبره كثيراً في السن .

وقال له :

— أنت تعرف طبعاً يا ريو ما هو هذا المرض ؟

— إنني أنتظر نتيجة التحليلات .

— أما أنا فأعرف ما هو ، ولست في حاجة إلى تحليلات ، فقد قضيت شطراً من خدمتي في الصين ، ثم رأيت بعض الحالات التي من هذا القبيل في باريس منذ نحو عشرين عاما ، ولكن لم يكن أحد يجرؤ على أن يطلق إسماً على هذه الحالات في ذلك الحين ؛ فالرأي العام شيء مقدس ، ويجب أن يتجنب حدوث أي ذعر ، أن يتجنب حدوث ذعر بوجه خاص — ثم إنه — كما يقول أحد الزملاء — « هذا مستحيل ، فقد اختفى هذا المرض من الغرب » . نعم ، الجميع يعرفون أنه اختفى ما عدا من ماتوا ، وأنت أيضاً ياريو تعرف ذلك ، كما أعرفه أنا .

وأخذ ريو يفكر وهو ينظر من نافذة مكتبه إلى الأراضي الضحلة التي تحيط بالخليج بما فيها من حصى ، وكانت السماء مغبرة اللون رغم زرقتها ، ولم يكن يخفف من حدة هذه الغبرة سوى وجود المساء ، وقال ريو :

— نعم يا كاستل ، من الصعب تصديق هذا ، ولكن يبدو واضحاً جلياً أنه الطاعون .

ونهض كاستل ، واتجه نحو البـــاب . ثم ما لبث الطبيب العجوز أن قال :

— أنت تعرف ماذا سيقولون لنـا ، سيقولون : « إنه اختفى من بلاد المناطق المعتدلة منذ سنوات » .

فأجاب ريو — وهو يهز كتفيه — :

— اختفى ؟ ماذا يعني ذلك ؟

— نعم لا تنس أنه اختفى من باريس منذ حوالى عشرين عاماً .

— حسن . ولنأمل ألا تكون وطأته هنا أشد مما كانت هناك ، ولكنه حقيقة أمر صعب التصديق .

كانت هذه أول مرة تذكر فيها كلمة « الطاعون » . والآن وقد وصلنا إلى هذه النقطة من القصة — التى نترك فيها برنار ريو ساهما خلف نافذته — يجدر بنا أن نسمح للراوى بأن يبرر شك الطبيب ودهشته ؛ إذ أن وقع الأحداث على الطبيب كان هو نفسه وقعها على بقية المواطنين مع اختلاف فى الدرجة ، فالواقع أن الأوبئة من الأمور الشائعة . ولكن عندما ينزل الوباء على رءوسنا يصعب علينا الاعتقاد بأنه وباء ، وقد أصيب العالم بالطاعون مرات تقارب عدد المرات التى نكب فيها بالحرب ، ومع ذلك فكلا الشرين — الحرب والطاعون — يباغتان الناس على غير استعداد منهم لملاقاتهما .

لقد فوجىء ريو — كما فوجىء مواطنونا — بهذا الوباء ، وعلى هذا النحو ينبغى لنا أن نفسر تردده ، وعلى هذا النحو أيضاً يجب أن نفهم أنه كان موزعا بين القلق واليقين ؛ فعندما تندلع نيران الحرب يقول الناس : إنها لن تطول ؛ لأن استمرارها ينم عن أشد الغباء ، فالواقع أنه لا شىء أشد غباء من الحرب ، ولكن هذا لا يمنع من أن يطول أمدها ؛ إذ الغباء من شأنه المثابرة ، ويمكن أن نلمس ذلك بوضوح إذا ما صرفنا النظر قليلا عن حصر تفكيرنا فى أنفسنا ، وإذن فقد كان مواطنونا فى هذا الصدد كغيرهم من الناس ، كان تفكيرهم محصوراً فى أنفسهم ،

وبعبارة أخرى كانوا عريقين فى الإنسانية ، أى لا يعتقدون فى الأوبئة ، فالوباء أكبر من الإنسان ، ولذا يميل الناس إلى الاعتقاد بأنه ليس من أمور الواقع ، وبأن المسألة لا تعدى حلماً مزعجاً لا يلبث أن ينتهى ، ولكن الحلم لا ينقضى فى كل الأحيان ، ثم تتتابع الأحلام المزعجة بعضها فى إثر بعض ، حتى ينقض الناس أنفسهم فيها — وفى مقدمتهم أصحاب الفلسفة الإنسانية — لأنهم لم يتخذوا للأمر حيطته ، فمواطنونا لم يكونوا أشد من غيرهم وزراً، كل ما فى الأمر أنهم نسوا أن يتواضعوا ، وأنهم ظنوا أن كل شىء لا يزال ممكنا بالنسبة لهم ، ومعنى هذا أن الأوبئة غير ممكنة الحدوث ، فاستمروا فى عقد الصفقات ، وفى إعداد الرحلات ، وفى اعتناق الآراء . كيف كان يمكنهم إذن أن يفكروا فى الطاعون الذى يقضى على المستقبل والأسفار والمناقشات ؟ كانوا يظنون أنفسهم أحراراً ، ولكن لا وجود للأحرار ما دام للأوبئة وجود .

وقد ظل الدكتور ريو يعتقد أن الخطر غير حقيقى بالنسبة له، حتى بعد أن اعترف أمام صديقه بأن حفنة من المرضى فى نواح مختلفة من المدينة قد ماتوا منذ قليل بالطاعون دون سابق إنذار ، كل ما فى الأمر أنه إذا ما كان المرء طبيبا ، فإنه يكون أقدر من غيره على تكوين فكرة عن الألم ، ويكون أوسع من غيره خيالا ، فلما نظر الدكتور ريو من النافذة إلى المدينة — التى لم يتغير فيها شىء — لم يكد يشعر إلا بشىء يسير من الامتعـــاض أمام المستقبل الذى يسمونه القلق ، وأخذ يحاول أن يجمع فى فكره ما يعرفه عن هذا المرض ، وأخذت الأرقام تطفو فى ذاكرته ، وهو يقول فى نفسه : إن المرات الثلاثين التى عرف

فيها العالم « الطاعون » قد أسفرت عن نحو مائة مليون من الموتى ، ولكن ما قيمة هذه الملايين المائة من الموتى ؟ فإن كل من ساهم فى حرب لا يكاد يعرف ما هو الميت .

ولما لم تكن للإنسان الميت أية قيمة إلا إذا رأيناه ميتاً ، فإن مائة مليون من الجثث المنثورة فى غضون التاريخ لا يعتبرون إلا بمثابة خيط من الدخان فى خيالنا . وتذكر الطبيب طاعون القسطنطينية الذى أسفر عن عشرة آلاف ضحية فى يوم واحد، كما يقول پروكوب، وعشرة آلاف شخص يقدرون — على وجه التقريب — بخمسة أمثال عدد المتفرجين فى إحدى دور السينما الكبيرة . فلنتصور — إذن — أن شخصا قد جمع المتفرجين بعد خروجهم من خمس دور للسينما وقادهم إلى أحد ميادين المدينة ثم جعل منهم كومة واحدة من الموتى، لكى نستطيع الحكم على الأمر بوضوح . ويمكننا أن نضع بعض الوجوه المعروفة فوق هذه الكومة التى تتكون من أشخاص مجهولين .

ولكن هذا بطبيعة الحال أمر مستحيل التنفيذ ، ثم من منا يعرف عشرة آلاف وجه ؟ وأياً ما كان ، فإن پروكوب وأمثاله لا يعرفون العدد ، وقد حدث فى كانتون — منذ سبعين عاما — أن نفق أربعمائة ألف فأر بالطاعون قبل أن يدير الوباء وجهه نحو السكان ، ولكن لم تكن هناك فى سنة ١٨٧١ وسيلة لحصر عدد الفئران . كانت الإحصاءات تقريبية ، بالجملة ، وكانت فرص الوقوع فى الخطأ مؤكدة ، ومع ذلك فإنه إذا كان طول الفأر ثلاثين سنتيمتراً ووضعنا أربعين ألف فأر فى صف أحدها تلو الآخر ، أصبح طولها . . .

وأخذ صبر الطبيب فى النفاد ، فما كان ينبغى له أن ينساق وراء الأحداث ، ذلك أن يضع حالات لا تعتبر وباء ، ويكفى اتخاذ بعض الاحتياطات . ينبغى أن نتمسك بما تعلمناه عن أعراض هذا الوباء : الذهول ، والانهيار ، واحمرار العيون ، واتساخ الفم ، وآلام الرأس ، والعقد ، والعطش الشديد ، والهذيان ، والبقع التى تنتشر على الجسم ، والتمزق الداخلى ، وفى نهاية كل هذا . . فى نهاية كل هذا ، طرأت جملة فى ذاكرة الدكتور ريو ، جملة تضع خاتمة كل هذه الأعراض : « يصبح النبض ضعيفاً متقطعاً ، وتحدث الوفاة فجأة إثر حركة بسيطة » . نعم فى نهاية كل هذا ، يصبح المرء وكأنه علق بخيط رفيع ، وكان ثلاثة أرباع الناس — وهذا هو الرقم الصحيح — ينتظرون بقلق شديد أن تصدر منهم تلك الحركة الصغيرة التى سوف تهوى بهم .

واستمر الطبيب ينظر من النافذة . كان يرى خلال زجاج النافذة سماء الربيع الرطبة من ناحية ، ومن الناحية الأخرى تلك الكلمة التى ما زالت ترن فى الغرفة : الطاعون .

ولم يكن لهذه الكلمة نفس المعنى الذى أراد العلم أن يضمنها إياه ، ولكنها كانت تعنى سلسلة طويلة من الصور الغريبة التى تتسق والمدينة التى يغلب عليها اللونان الأصفر والأشهب ، تلك المدينة التى كانت فى هذه الآونة متوسطة الازدحام ، والصوت الذى ينبعث منهـا أقرب إلى الطنين منه إلى الضجيج ، بالاختصار تلك المدينة السعيدة ، إذا كان من الممكن أن يكون الشىء سعيداً وكئيباً فى وقت واحد .

كان اطمئنان المدينة وهدوءها وعدم اكتراثها عما يباعد — بكل سهولة — بينها وبين الصور القديمة المعروفة للوباء : أثينا عندما اجتاحها الطاعون وهجرتها العصافير ، المدينة الصينية ، وقد غصت بالمحتضرين فى صمت ، المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى مرسيليا وهم يهيلون فى الحفر الجثث التى تقطر دماً ، مدينة بروفانس عندما بنوا فيها الجدار الكبير ليصد ريحه العاتية ، يافا وما فيها من متسولين ذوى مناظر بشعة ، الأسرة الرطبة المتعفنة وقد التصقت بأرض مستشفى القسطنطينية ، المرضى وهم يجرون بالخطم ، وتلك المواكب التنكرية من الأطباء ذوى الأقنعة إبان الطاعون الأسود ، ووضع الأحياء فى قبور ميلانو كل زوجين فى قبر ، عربات اليد وهى تحمل الموتى فى مدينة لندن المذعورة ، والأيام والليالى وقد غصت — فى كل مكان وكل وقت — بصرخات الناس التى لا تنتهى . . . ولكن لم تكن كل هذه الصور قد وصلت بعد من القوة إلى الحد الذى يكفى للقضاء على الهدوء الذى ساد المدينة ذلك النهار ، ومن الناحية الأخرى أخذ ضجيج الترام يرتفع فجأة من خلال النافذة مفنداً — فى ثانية واحدة — كل قسوة وكل ألم ، أما البحر الذى ربض فى نهاية رقعة الشطرنج القاتمة التى تكونها المساكن ، فكان هو وحده الذى يكشف عما يحويه العالم أبداً من اضطراب وعدم استقرار .

وأخذ الدكتور ريو — وهو ينظر إلى الخليج — يفكر فى الحرائق التى تحدث عنها لوكريس والتى كان الأثينيون يقيمونها تجاه البحر حيث كانوا يحملون إليها الموتى ليلا ؛ ولكن لما لم يكن ثمة مكان لكل الجثث ، كان الأحياء يتصارعون بالمشاعل ليتمكنوا من الحصول على

مكان لمن كانوا أعزاء عليهم ، مفضلين النضال الدامي على ترك ما معهم من جثث . ويمكننا أن نتخيل هذه النيران الحمراء أمام مياه البحر الهادئة الداكنة ، ومعارك المشاعل في ليل يتطاير فيه الشرر ، والدخان الكثيف المتصاعد إلى السماء التي ترعى كل هذا ، ويمكننا أن نخشى ...

ولكن هذا الدوار لم يكن ليصمد أمام صوت العقل . صحيح أن كلمة « طاعون » قد ذكرت منذ لحظة ، وصحيح أنه في هذه اللحظة نفسها انقضّ الوباء على ضحية أو ضحيتين وجند لهما .

ولكن هذا مما يستطاع إيقافه . وكل ما هنالك — مما ينبغي عمله — ينحصر في أن نعترف بوضوح بما يجب الاعتراف به ، وأن نطرد الظلال غير المفيدة ، ونتخذ الإجراءات المناسبة . وبعد ذلك لا بد أن يتوقف الطاعون ؛ إذ أن الطاعون لا يمكن توهمه ، أو يمكن توهمه بصورة خاطئة ، فلو توقف — وهو الأمر الأقرب إلى الاحتمال — سار كل شيء على ما يرام ، أما إذا كان الأمر عكس ذلك فإن حقيقته ستعرف ، ويعرف أيضاً ما إذا لم تكن هناك وسيلة للاستعداد له أولا ، ثم للقضاء عليه ثانياً .

وفتح الطبيب النافذة ، وارتفع فجأة صخب المدينة ، وأخذ يطرق سمعه صليل متقطع قصير لمنشار ميكانيكي في مصنع مجاور ، وانتفض ريو مستيقظاً . فهذا العمل اليومي هو اليقين بعينه ، أما ما دون ذلك فليس إلا خيوطاً واهية ، وأحداثاً غير ذات قيمة لا يصح التوقف عندها ، وأهم ما في الأمر أن يمارس كل إنسان مهنته بأمانة .

بينما كان الدكتور ريو غارقا فى تأملاته على هذا النحو ، أعلن إليه مقدم جوزيف جران .

وكان جوزيف جران الموظف بالبلدية كثير المشاغل ، وبالرغم من هذا كان يكلف من حين لآخر بالمعاونة فى أعمال الإحصاء الخاصة بالأحوال الشخصية للسكان ، وقد ساقه ذلك إلى القيام بحصر الوفيات ، ولما كان بطبيعته خدوما ، فقد قبل أن يحضر بنفسه إلى ريو نسخة من النتائج التى يصل إليها .

ورأى الطبيب جران يدخل مصحوبا بجاره كوتار ، وكان الموظف يلوّح بورقة فى يده ، وهو يصيح قائلا :

— إن الأرقام فى صعود يادكتور ، إحدى عشرة حالة وفاة فى ثمان وأربعين ساعة .

وحيى ريو كوتار ، وسأله عن صحته ، وشرع جران يشرح للطبيب كيف أن كوتار أصر على شكر الطبيب ، والاعتذار له عن المتاعب التى سببها له ، ولكن ريو كان مشغولا بالنظر فى صحيفة الإحصائيات .

ثم قال بعد قليل :

— قد يكون من الأوفق أن نقرر تسمية هذا المرض باسمه .

لقد كنا نتخبط حتى الآن، هيا معى فإنى ذاهب إلى المعمل.

وقال جران وهو يهبط السلم خلف الطبيب :

— نعم ، نعم . يجب تسمية الأشياء بأسمائها ، ولكن ما هو هذا الاسم ؟

— لا أستطيع أن أذكره لك ، ولن يجديك هذا فى شىء .

وابتسم الموظف قائلا :

— أترى ؟ إن الأمر ليس سهلا .

واتجه الجميع إلى ميدان الأسلحة حيث ظل كوتار لائذا بالصمت ، وكانت الشوارع قد بدأت تزدحم بالناس ، وأخذ غروب بلدنا العابر ينسحب أمام جحافل الليل ، وبدأت طلائع النجوم فى الأفق الذى لم يزل واضحا للبصر ، وما هى إلا ثوان حتى أضيئت المصابيح فوق الشوارع فشملت السماء كلها بالظلام . وبدا ضجيج المناقشات وكأنه قد ازداد درجة عن ذى قبل .

ولما وصلوا إلى ركن من أركان ميدان الأسلحة قال جران :

— إنى أسألك المعذرة ، إذ يجب أن أستقل الترام ، فإن أمسياتى مقدسة عندى ، وكما يقولون فى بلدى : « لا ينبغى أبداً أن نؤجل للغد » .

وكان ريو كثيراً ما لاحظ أن جران — وهو من مواليد مونتليار — يحب دائما أن يستشهد بأمثال بلده ، وأن يضيف إليها عبارات أخرى تافهة لا تنتمى لأى مكان مثل : « زمن الأحلام » أو « إضاءة سحرية »

وقال كوتار :

— هذا صحيح ، فمن غير الممكن إخراجه من مسكنه بعد العشاء .
وسأله ريو عما إذا كان يعمل لحساب البلدية ، فأجاب جران بالنفي قائلا : إنه يعمل لحسابه هو .

فقال ريو — لمجرد أن يضيف شيئاً — :

— حسن . وهل هناك تقدم ؟

— بطبيعة الحال ، إذ أنى أعمل فى ذلك منذ سنوات ، ولكن إذا نظرنا المسألة من ناحية أخرى ، وجدنا أن النجاح ليس كبيراً .

وقال الطبيب وهو يوقف سيارته :

— ولكن ما هذا العمل ؟

وتمتم جران بشيء ما ، وهو يثبت قبعتـــه المستديرة فوق أذنيه الكبيرتين :

وفهم ريو بشكل غامض جداً أن الأمر يتعلق بذهاب إحدى الشخصيات . وهنا كان الموظف قد غادرهما ، وأخذ يسير بخطى سريعة قصيرة فى شارع المارن ، وعلى عتبة المعمل قال كوتار للطبيب : إنه يريد مقابلته ليطلب إليه النصيحة ، فدعاه ريو — ويده تعبث فى جيبه بورقة الإحصائيات — إلى أن يأتى لاستشارته ، ولكنه تنبه إلى أنه ذاهب فى اليوم التالى إلى الحى الذى يسكنه ، فاستدرك قائلا : إنه سيمر لرؤيته فى نهاية فترة العصر .

ولاحظ الطبيب — وهو يغادر كوتار — أنه لا يزال يفكر فى جران . تخيله وسط نوع من وباء الطاعون ، ليس هذا الوباء الذى تمر به المدينة الآن ، لأنه بكل تأكيد لن يكون ذا خطر ، ولكن وسط وباء

من تلك الأوبئة الكبار التى عرفها التاريخ . « إنه من هذا النوع من الأشخاص الذين لا يمسون بسوء فى مثل هذه الحالات » . ونذكر أنه قرأ — فى مكان ما — أن الطاعون لا يمس ذوى البنية الضعيفة بسوء ، ولكنه — بصفة خاصة — يحطم ذوى البنية القوية ، واستمر يفكر فيه ، وقد رأى أن مظهره يوحى بشىء من الغموض .

والواقع أن « جوزيف جران » لا يبدو لأول وهلة أكثر من موظف فى دار البلدية — كما تدل عليه هيئته — فهو طويل القامة ، نحيل ، ويبدو غارقا فى ملابسه التى يختارها دائماً فضفاضة متوهما أنه بذلك يستطيع الانتفاع بها مدة أطول ، وإذا كان يحتفظ للآن بكل أسنانه السفلى فإنه على العكس من ذلك قد فقد كل أسنان الفك العلوى ، ومن شأن ابتسامته — التى ترفع شفته العليا — أن تجعل فمه يبدو كفتحة مظلمة ، فإذا أضفنا إلى هذه الصورة ما يتسم به من هيئة تشبه هيئة رجل من رجال مدرسة اللاهوت ، ومن السير بحذاء الجدران ، والتسلل إلى البيوت ، ورائحة البدروم والدخان ، وكل ملامح التفاهة ، عرفنا أننا لا نستطيع أن نتخيله إلا أمام أحد المكاتب منكباً على مراجعة تعريفة حمامات المدينة ، أو منهمكا فى جمع عناصر تقرير حول الضريبة الجديدة المقررة على رفع القمامة المنزلية ، يقوم أحد المحررين الشبان بإعداده : نعم لقد كان جران يبدو — حتى فى عين من لم يوهبوا فطنة خاصة — كما لو كان قد خلق لكى يشغل وظيفة مساعد مؤقت فى البلدية ، حيث يعهد إليه بالأعمال الدقيقة والضرورية فى آن واحد ، ويتقاضى عليها أجراً قدره اثنان وستون فرنكا فى اليوم .

والواقع أن هذه هى الصفة التى يقول إنه ذكرها أمام «كلمة «المؤهلات» فى أوراق توظيفه ، وكانوا قد وعدوه قبل هذا العمل منذ اثنين وعشرين عاماً — بعد فشله فى الحصول على «الليسانس» بسبب قلة المال — بأن يجعلوا منه موظفاً مثبتاً بعد فترة وجيزة ، وكان ذلك يتوقف على أن يقضى فى منصبه فترة قصيرة يثبت فيها كفاءته فى المسائل الدقيقة التى تعرض لإدارة مدينتنا ، وقد أكدوا له أنه لابد سيصل إلى مركز محرر الذى يسمح له بالعيش فى سعة . ومما لا شك فيه أنه لم يكن الطموح هو الذى دفع جوزيف جران . إلى العمل ، وكان هو نفسه يؤكد لنا ذلك بابتسامة حزينة ، ولكنه كان شديد الرغبة فى حياة مادية مستقرة ، يصل إليها بوسائل شريفة، ومن ثم يمكنه القيام بالمشاغل المحببة إلى نفسه دون أن يتعرض لتأنيب الضمير ، وإذا كان قد قبل العرض الذى عرض عليه ، فإنه لم يفعل ذلك إلا لأسباب مشرفة ، بل ويمكننا أن نقول : إلا بدافع إخلاصه لمثل أعلى .

واستمر هذا الوضع المؤقت سنوات طويلة، وارتفع مستوى المعيشة بنسب لا حدود لها ، وظل راتب جران — رغم بعض العلاوات — صغيراً بشكل يصعب تصديقه . وقد شكا ذلك إلى ريو ، ولكن يبدو أنه لم يكن يهتم بذلك أحد ، وهنا تظهر غرابة أطوار جران ، أو على الأقل إحدى علاماتها ، فقد كان فى إمكانه أن يطالب ، لا بحقوق لم يكن هو نفسه متأكداً منها ، ولكن بما أعطى من تأكيدات ووعود . ولكن رئيس المكتب الذى عينه كان قد مات منذ زمن طويل، ثم لم يكن هذا الموظف يذكر بدقة نص الألفاظ التى قيلت له فى الوعد الذى أعطى له ، أما السبب

الأخير — وهو أهم الأسباب — فهو أن جوزيف جران كان لا يجد كلماته إلا بصعوبة .

كانت هذه هى السمة المميزة التى يبدو طابعها واضح المعالم على مواطننا هذا ، كما لاحظ ريو ، وكانت هى التى تمنعه من كتابة خطاب المطالبة الذى يفكر فيه ، أو تحول بينه وبين القيام بالمساعى التى تتطلبها الظروف ، فقد كان — على حد قوله — يحس أن شيئاً ما يمنعه من استعمال كلمة « حق » بصفة خاصة ، لأنه لم يكن واثقا من وجاهتها ، أو كلمة « وعد » التى قد يفهم منها ضمنا أنه يطالب بحقه ، ومن ثم تنم عن نوع من الجرأة لا يتفق والوظيفة المتواضعة التى يشغلها . ومن جهة أخرى كان يحرم على نفسه استعمال كلمات « التعطف » و « الرجاء » والاعتراف بالجميل ، التى يرى أنها لا تتفق مع كرامته الشخصية ، وهكذا ظل مواطننا يمارس وظيفته المغمورة تلك إلى سن متقدمة ، لأنه لم يجد الكلمة المناسبة ، هذا إلى أن جران قد لاحظ — على حد قوله للدكتور ريو — أن حالته المادية مضمونة ، لأنه يكفيه فى هذا الصدد أن يقيس احتياجاته على دخله ، وهكذا رأى نفسه يعترف بصحة إحدى الكلمات المحببه إلى العمدة ، وهو من كبار رجال الصناعه فى مدينتنا ، وتؤكد هذه الكلمة — بكل قوة — أنه فى نهاية الأمر (وهو يدقق فى إبراز هذه الكلمه التى تحمل كل ما فى هذه الحجة من وزن) إنها إذن تؤكد نهاية الأمر ، أنه لم يتأت لأحد أن يشاهد شخصاً يموت من الجوع ، وأياما كان ، فقد كان من شأن الحياة المتقشفة — شبه الصوفية هذه التى يحياها جوزيف

جران — أن حروته نهائياً من كل المشاغل التى من هذا القبيل، واستمر يبحث عن ألفاظه .

ويمكننا — على نحو ما — أن نقول : إن حياته كانت مثالية ؛ فقد كان من أولئك الرجال النادرين فى مدينتنا وفى غيرها من المدن ، الذين لا تنقصهم شجاعة التصريح بمشاعرهم الطيبة . والواقع أن القليل الذى كان يدلى به عن ذات نفسه يشهد بما يمتاز به من طيبة وميول لا يمكن الاعتراف بها فى أيامنا هذه ؛ فلم يكن وجهه يحمر خجلا عندما يقر أنه يحب أبناء أخته وأخته ، وهم كل ما تبقى له من أقارب ، وأنه يذهب لزيارتهم فى فرنسا مرة كل عامين ، ويعترف بأن ذكرى والديه — اللذين فقدهما وهو لا يزال صغيراً — تحز فى نفسه ، ولا يضيره أن يعترف بأنه يحب — أولا وقبل كل شيء — أحد أجراس الحى الذى يسكنه ، وهى تدق برقة حوالى الساعة الخامسة مساء . ومع ذلك فقد كانت كل كلمة يستعملها فى التعبير عن هذه العواطف البسيطة تكلفه عناء كبيراً ، وكانت هذه الصعوبة هى أكثر ما عاناه من هموم ، فكان يقول للدكتور :

— آه يادكتور ! كم يطيب لى أن أتعلم كيف أعبر عن نفسى ، وكان يكرر ذلك فى كل مرة يقابل فيها ريو .

وفى هذا المساء فهم ريو فجأة — وهو ينظر إلى هذا الموظف فى انصرافه — ماذا يريد جران أن يقول ، إنه يكتب ولا ريب كتاباً أو شيئاً من هذا القبيل . وقد اطمأن ريو إلى هذه الفكرة حتى عندما

، وصل إلى المعمل . لقد كان يعلم أنها فكرة سخيفة ، ولكن لم يكن فى استطاعته أن يصدق أن الطاعون يستطيع أن يحط رحاله فى مدينة يوجد فيها موظفون صغاراً يمارسون هوايات مشرفه ، ذلك أنه لم يستطع أن يتخيل وجود مكان لهذه الهوايات وسط الطاعون ، ومن ثم فقد أصدر حكمه بأنه لا يمكن للطاعون — من الوجهة العملية — أن يكون له مستقبل بين مواطنينا .

وفى اليوم التالى تمكن ريو — بفضل إلحاحه الذى قيل إنه فى غير محله — من تشكيل لجنة صحية بالمديرية ، وقال ريشار :

— صحيح أن الشعب فى حالة قلق ، ومن شأن الثرثرة أن تحيط كل شىء بالتهويل ، وقد قال لى المدير : « لتتصرفوا بسرعة — إذا أردتم — ولكن فى صمت » ، وذلك بالرغم من اقتناعه بأن المسألة لا تتعدى كونها إنذاراً كاذباً .

وبينما كان برنار ريو يصطحب كاستل فى عربته قاصدين المديرية ، قال له هذا الأخير :

— أتعرف أن هذا المركز خال من المصل ؟

— أعرف ذلك ، وقد اتصلت تليفونياً بالمخزن ، والمدير واقع فى حيرة . يجب إحضار المصل من باريس .

— أتعشم ألا يطول ذلك .

وواصل ريو كلامه قائلا :

— لقد أبرقت فعلا .

وكان المدير لطيفاً ، ولكنه كان بادى العصبية فقال :

— لنبدأ فى الموضوع أيها السادة : هل ألخص لكم الموقف ؟

ولكن كان من رأى ريشار ألا فائدة من ذلك ، فالأطباء يعرفون الموقف ، ولم تبق إلا معرفة الإجراءات التى ينبغى اتخاذها .

وأجاب كاستل العجوز بصراحة مذهلة قائلا :

ــ المسألة تنحصر فى معرفة ما إذا كان المرض هو الطاعون أم لا .

وصاح طبيبان أو ثلاثة فى دهشة . أما الآخرون فبدا عليهم التردد، وانتفض المدير فى مكانه ، والتفت بحركة آلية نحو الباب كما لو كان يريد أن يتأكد من منع هذا الخبر الهائل من التسرب إلى الممرات، وأعلن ريشار أنه لا ينبغى الاستسلام للذعر ، فالمسألة تتعلق بحمى ذات مضاعفات على شكل عقد ، هذا هو كل ما يمكن إعلانه . أما الفروض، فإنها دائماً أخطر الأمور ، سواء فى العلم أو فى الحياة ، وأخذ كاستل العجوز يمضغ شاربه الأصفر فى هدوء ، ورفع عينيه الغائمتين نحو ريو ، ثم عاد فوجه إلى الحضور نظرة ملؤها حسن النية ، ونبههم إلى أنه يعرف جيداً أنه الطاعون ، ولكن الاعتراف بذلك رسمياً يضطرهم طبعاً إلى اتخاذ إجراءات لا تعرف الرحمة ، وهو يعرف أيضاً أن هذا هو ما يضطر زملاءه إلى التراجع ، لذلك يراه يود ــ لكيلا يزعجهم ــ أن يقر بأنه ليس الطاعون ، وهنا ثار المدير ، وأعلن أن هذه طريقة خاطئة فى التفكير .

وقال كاستل :

ــ ليس المهم أن تكون هذه الطريقة فى التفكير حسنة ، ولكن المهم أن تبعث على التأمل .

ولما كان ريو قد لزم الصمت ، فقد طلبوا منه أن يدلى برأيه ، فقال :

ــ إنها حمى تشبه التيفود ، ولكنها مصحوبة بعقد وقىء ، وقد فتحت بعض العقد ، وأجريت بعض تحليلات يرى المعمل أنها تحتوى على ميكروب الطاعون ، ومع ذلك يجب أن تكون أكثر دقة ، فنقول : إن هناك بعض خلافات نوعية فى هذا الميكروب تجعله لا يتفق تماماً والأوصاف التقليدية لميكروب الطاعون .

وانبرى ريشار يؤكد أن هذه النتيجة تبعث على التردد ، وأنه ينبغى على الأقل الانتظار حتى ظهور النتيجة الإحصائية لمجموعة التحليلات التى بدأ فيها منذ أيام .

وقال ريو بعد فترة صمت وجيزة :

ــ إذا كان الميكروب يصل فى ظرف ثلاثة أيام إلى مضاعفة حجم الطحال إلى أربعة أمثاله ، وأن يجعل العقد تصبح فى حجم البرتقالة وقوام العصيدة ، فإن هذا بالذات يحرم علينا أن نتردد ، فبؤرات العدوى فى ازدياد مطرد ، وإذا لم نوقف المرض بعد أن رأينا هذه الصورة التى ينتشر بها فإنه قد يقضى على نصف سكان المدينة قبل مضى شهرين ، ومن ثم فليس المهم أن نسميه طاعوناً أو حمى ، إنما المهم ألا نسمح له بالقضاء على نصف سكان المدينة .

وكان من رأى ريشار ألا نكون متطرفين فى تشاؤمنا ، ولا سيما أنه لم يقم الدليل بعد على أنه مرض معد ، مادام أهل المرضى لم يصابوا بسوء .

ولكن ريو لفت نظر الجميع إلى أن آخرين قد ماتوا ، وأن العدوى

لم تكن قط أمراً مطلقاً ، وإلا ستمرت فى صعود لا ينتهى حتى يقضى المرض على جميع السكان بشكل صاعق ، والمسألة لاعلاقةلها بالتشاؤم، وإنما ينبغى اتخاذ الإجراءات اللازمة .

ومع ذلك فقد ظن ريشار أنه يلخص الموقف عندما ذكر الحضور بأنه ينبغى — لإيقاف هذا المرض ، فى حالة ما إذا لم يتوقف من تلقاء نفسه — أن نطبق الإجراءات الوقائية الصارمة التى ينص عليها القانون ، وأنه لا يمكن تطبيقها إلا إذا اعترفنا بأنه الطاعون ، ولما لم يكونوا متأكدين من ذلك ، فإن الأمر يتطلب بعض التفكير .

وألح ريو قائلا :

— إن المسألة لا تنحصر فى معرفة ما إذا كانت الإجراءات التى ينص عليها القانون إجراءات صارمة ، ولكن فى معرفة ما إذا كانت ضرورية لحماية نصف سكان المدينة من الهلاك ، أما ما عدا ذلك فمسألة إدارية ، وقد نص دستورنا بالذات على وجود مدير للفصل فى هذه المسائل .

وقال المدير :

— هذا لاشك فيه ، ولكن المسألة تحتاج إلى أن تعترفوا — رسمياً — بأن الأمر يتعلق بوباء الطاعون .

فقال ريو :

— إذا لم نعترف بذلك ، فسوف نجازف بقتل نصف سكان المدينة .

وتدخل ريشار — بشىء من الحدة — قائلا :

ـــ الحقيقة أن الزميل يعتقد أنه الطاعون ، ووصفه لأعراض المرض يثبت ذلك .

وأجاب ريو : بأنه لم يصف أعراض المرض ، وإنما وصف ما رآه ، وما رآه هو الأورام والبقع والحمى المصحوبة بالهذيان التى تقضى على المريض فى ثمان وأربعين ساعة ، وسأل السيد ريشار عما إذا كان يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسئولية التأكد بأن الوباء سوف يتوقف دون إجراءات وقائية شديدة ؟

وتردد ريشار بعض الشىء ، ثم نظر إلى ريو ، وقال :

ـــ قل لى رأيك بإخلاص ، هل أنت متأكد من أنه الطاعون ؟

وأجاب ريو :

ـــ إنك لم تحسن عرض المسألة ، فإنها ليست مسألة ألفاظ ، بل مسألة وقت .

وقال المدير :

ـــ رأيك إذن أنه يجب تطبيق الإجراءات الوقائية التى تتخذ فى حالة الطاعون حتى لو لم يكن الأمر يتعلق بالطاعون .

ـــ لو أصررتم على أن يكون لى رأى ما ، فهذا هو رأيى بالفعل .

وأخذ الأطباء فى التشاور ، ثم قال ريشار :

ـــ ينبغى أن نأخذ على عاتقنا مسئولية التصرف مع افتراض أن المرض هو الطاعون .

وقد وافق الجميع على هذه الصيغة بحرارة .

وقال ريشار لريو :

ـــ أهذا هو رأيك أنت أيضاً ، أيها الزميل العزيز ؟

فقال ريو :

ـــ لا تهمنى الصيغة فى شىء ، قولوا ـــ إذا شئتم ـــ : إنه لا ينبغى لنا التصرف على أساس أن نصف سكان المدينة غير مهدد بالموت ، لأنه فى هذه الحالة سيموت حتما .

وخرج ريو من الاجتماع وسط الامتعاض العام ، وبعد قليل كان يتجول فى الحى الخارجى الذى تتصاعد منه رائحة الشواء والبول ، فالتفتت نحوه امرأة تصرخ صراخاً يائساً ، وقد التهبت أصول فخذيها .

وفى اليوم التالى للاجتماع قفزت الحمى قفزة أخرى صغيرة ، واضطرت الصحف نفسها إلى التحدث عنها ، ولكن بطريقة خفيفة ، حيث اكتفت ببعض الإشارات ، وفى اليوم الذى تلاه لاحظ ربو أن البلدية قد ألصقت بعض الإعلانات البيضاء فى أقل الأماكن ظهوراً بالمدينة ، وكان من الصعب أن يوجد فى هذه الإعلانات أى دليل على أن السلطات قد بدأت تواجه الأمر ، فلم تكن الإجراءات صارمة ، ويبدو أنهم قد ضحوا بالكثير فى سبيل عدم إزعاج الرأى العام ، والواقع أن الإعلان كان ينص على أنه قد ظهرت فى مدينة وهران بعض حالات من حمى خبيثة لم يمكن بعد التأكد من أنها معدية ، وهذه الحالات ليست واضحة المعالم إلى الحد الذى يجعلها مثيرة للقلق ، ومما لا شك فيه أن السكان سوف يظلون محتفظين بثباتهم ، ثم استمر الإعلان يقول . . ومع ذلك فقد اتخذ المدير بعض الإجراءات الوقائية من باب الاحتياط ، ذلك الأمر الذى يسهل على الجميع فهمه ، وإذا فهمت الإجراءات جيداً ، ونفذت كما ينبغى ، كانت كفيلة بأن تقضى على كل ما يهدد بخطر الوباء ، ومعنى ذلك أن المدير لا يشك لحظة واحدة فى أنه سيلقى كل معونة خالصة من كل من هم تحت إدارته .

ثم أضاف الإعلان أنه ستتخذ بعض الإجراءات الجماعية ، ومن

بينها إبادة الفئران بتمرير غاز سام فى المجارى ، وكذلك بمراقبة أنابيب المياه مراقبة دقيقة . وأوصى السكان بمراعاة النظافة التامة ، ودعا من يحملون براغيث إلى التوجه إلى مستوصفات البلدية ، ومن جهة أخرى نبه على الأسر بضرورة التبليغ عن الحالات التى يشخصها الأطباء ، وبالموافقة على عزل مرضاها فى قاعات العزل الخاصة فى المستشفيات ، وقد أعدت هذه القاعات بحيث تعالج المرضى فى أقل وقت يمكن ، مع توفيرها لهم أكبر قسط من فرص الشفاء ، وقد اشتمل الإعلان على عدة مواد إضافية تنص على التطهير الإجبارى لغرف المرضى ، ووسائل النقل التى استعملوها ، وفيما عدا ذلك اكتفى الإعلان بتوصية أقارب المريض بأن يضعوا أنفسهم تحت الرقابة الصحية .

أشاح الدكتور ريو بوجهه فجأة عن الإعلان ، وسار فى طريق كابيته، حيث كان جوزيف جران فى انتظاره . وما أن رآه حتى رفع ذراعيه مرة أخرى ، وقال ريو :

— نعم ، الأرقام فى صعود . هذا ما أعرفه .

فقد قضى المرض خلال الليلة الماضية على نحو عشرة فى المدينة ، ثم قال الطبيب لجران : إنه قد يراه هذا المساء ؛ لأنه سيذهب لزيارة كوتار .

وأجاب جران :

— إنك على حق ، ستكون زيارتك مفيدة له ؛ لأنى ألمح عليه بعض التغير .

— وكيف ذلك ؟

— لقد أصبح مهذباً .
— ألم يكن كذلك من قبل ؟

وتردد جران فى الإجابة ، فلم يكن فى وسعه أن يقول : إنه كان عديم التهذيب ، فمثل هذا التعبير لن يكون صحيحاً ؛ إذ أنه كان رجلا منطويا على نفسه ، كتوما ، غير بعيد الشبه من الخنزير البرى ، كانت كل حياته لا تتعدى غرفته ، ومطعما متواضعاً ، وبعض المهمات الغامضة . كانت هذه هى كل حياة كوتار ، أما من الناحية الرسمية ، فقد كان ممثلا لبعض شركات النبيذ ، والمشروبات الروحية ، وكان يقوم من حين لحين بزيارة شخصين أو ثلاثة أشخاص لا بد أنهم كانوا عملاءه ، وفى المساء كان يذهب أحيانا إلى السينما المواجهة للمنزل ، وقد لاحظ موظف البلدية أن كوتار يفضل أفلام العصابات . وأيا ما كان ، فإن ممثل شركات النبيذ هذا كان دائما مثالا لحب العزلة والحذر .

ويرى جران الآن أن كل هذا قد تغير ، وراح يقول :

— لست أدرى كيف أعبر عن ذلك ، ولكن يخيل إلى أنه يحاول استمالة الناس إليه ، وأن يجذب الجميع إلى صفه ، فهو كثيراً ما يتحدث إلى ، ويعرض على أن أخرج معه ، وفى معظم الحالات لا أجدنى أقوى على الرفض ؛ على أية حال إن أمره يهمنى ، ألم أنقذله حياته ؟

لم يتلق كوتار زيارة من أحد منذ محاولته الانتحار ، وقد دأب على محاولة اجتذاب ود الناس فى الطرقات وفى المحلات التجارية ، فلم يحدث أن تحدث أحد مع البدالين بكل هذه الرقة ، ولا أبدى مثل هذا الاهتمام بالإنصات إلى بائعة السجائر .

ثم قال جران مبدياً بعض الملاحظات :

— إن بائعة السجائر هذه أفعى حقيقية ، وقد حذرت كوتار منها ، ولكنه قال لى : إننى مخطىء ، وإن لها نواحى طيبة ، وكل ما فى الأمر أنه يجب أن نعرف كيف نكتشف هذه النواحى .

وقد صحب كوتار جران مرتين أو ثلاث مرات إلى المطاعم والمقاهى الفاخرة بالمدينة ، والتى كان قد بدأ يرتادها بالفعل ، وكان يقول :

— إن المرء يكون على راحة فى هذه الأماكن ، ثم إنه يجد نفسه فيها فى صحبة طيبة .

وقد لاحظ جران الاهتمام الخاص الذى يغدقه خدم هذه المحال على مندوب شركات النبيذ ، وعرف أن سبب ذلك يرجع إلى العطاء السخى الذى يغدقه هو عليهم ، وكان من الواضح أن كوتار شديدة الحساسية لهذه المجاملات التى كانوا يرددونها له ، فذات يوم صحبه رئيس الخدم حتى الباب ، وساعده على ارتداء معطفه ، فقال كوتار لجران :

— إنه شخص طيب ، ويمكن أن يدلى بشهادته .

— يدلى بشهادته عن ماذا ؟

وبدا على كوتار التردد ، ثم قال :

— عن . . عن أننى لست رجلا شريراً .

هذا إلى أنه كانت له بعض النزوات ، ففى ذات يوم عامله البدال بلطف أقل من المعتاد ، فعاد إلى منزله فى حالة ثورة لا حد لهـــا ، وأخذ يردد قوله :

— لقد انحاز للآخرين هذا الوغد .

— من هم الآخرون ؟

— جميع الآخرين .

بل لقد شهد جران مشهداً مثيراً من هذا القبيل عند بائعة السجائر ، فبينما كان الجميع منهمكين فى الحديث ، تكلمت المرأة عن حادث اعتقال كان له دوى فى مدينة الجزائر منذ قليل ، وكان الأمر يتعلق بموظف تجارى صغير قتل عربياً على شاطىء البحر ، وعقبت البائعة بقولها :

— لو أنهم وضعوا هؤلاء المجرمين جميعاً فى السجن لاستطاع الأشراف أن يتنفسوا الصعداء .

ولكنها اضطرت إلى قطع كلامها أمام اضطراب كوتار المفاجىء ، فقد قذف بنفسه خارج الحانوت دون أن يفوه بكلمة استئذان ، وظل جران والبائعة واقفين يحركان أذرعهما من الدهشة .

وبعد ذلك لفت جران نظر ريو إلى تغيرات أخرى طرأت على أخلاق كوتار . فقد كان من معتنق الأفكار التحررية المتطرفة ، وكانت كلمته المفضلة : « الكبار يأكلون الصغار دائماً » ، مما يبرهن على ذلك . ولكنه منذ بعض الوقت لم يعد يشترى إلا جريدة وهران ذات الآراء المتزنة ، وقد لا يكون المرء مخطئاً إذا أدعى أنه كان يتعمد قراءتها فى الأماكن العامة ، بل لقد حدث ذات مرة ، بعد بضعة أيام من تماثله للشفاء أن طلب من جران — وقد كان فى طريقه إلى مكتب البريد — أن يصدر له إذن بريد بمائة فرنك تعود أن يرسلها كل شهر إلى أخت له تسكن فى مكان ناء ، ولكن لم يكد جران يبتعد قليلا حتى قال له كوتار :

— أرسل لها مائتى فرنك ، ستكون هذه مفاجأة لطيفة لها ، فهى

تعتقد أنى لا أفكر فيها مطلقاً ، ولكن الحقيقة أنى أحبها كثيراً .

وأخيراً اتفق أن حدثت بينه وبين جران محادثة غريبة ، واضطر هذا الأخير إلى أن يجيب على أسئلته المرتابة بأن لديه عملا يشغله كل مساء .

فقال كوتار :

ـــ حسن ، هل تؤلف كتابا ؟

ـــ إذا شئت ، ولكنه أمر أكثر تعقيداً من ذلك .

فصاح كوتار قائلا :

ـــ آه ، كم أتمنى أن أحذو حذوك .

وبدت الدهشة على جران ، فقال كوتار متلعثما : إنه إذا كان المرء فنانا فإنه يجد فى هذا علاجا لكثير من المشاكل .

وسأله جران :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن الفنان له من الحقوق أكثر مما لغيره ، كل الناس يعرفون ذلك ، فهم يتسامحون معه كثيراً .

وقال ريو لجران فى صبيحة يوم الإعلانات :

ـــ لابد أن قصة الفئران قد أدارت له رأسه كما فعلت بكثيرين غيره ، هذا كل ما فى الأمر ، أو قد يكون خائفاً من الحمى .

وأجاب جران :

— لا أظن ذلك يا دكتور ، ولو طلبت إلى رأيى . . .

وفى هذه الأثناء مرت عربة إبادة الفئران تحت النافذة ، وهى تحدث ضجة شديدة فى سيرها السريع ، وصمت ريو حتى ذهبت الضجة ، وصار من الممكن سماع ما يقول ، فطلب — وهو شارد الذهن — من موظف البلدية أن يدلى إليه برأيه ، ونظر إليه الأخير نظرة كلها جد ، ثم قال :

— إنه رجل يخفى أمراً شديد الوطأة على ضميره .

ورفع الطبيب كتفيه باستخفاف ، فقد كانت هناك مسائل أخرى أكثر أهمية — على حد تعبير ضابط الشرطة — وفى فترة ما بعد الظهر اجتمع ريو بكاستل ، ولم تكن الأمصال قد وصلت ، فسأله ريو :

— ولكن هل ستكون هذه الأمصال ذات جدوى ؟ إن الميكروب غريب .

وأجاب كاستل :

— أوه ! إننى أخالفك فى هذا الرأى ، فهذه الحيوانات تبدو غريبة ، ولكنها كلها ذات عنصر واحد فى جوهر الأمر .

— هذا محض افتراض ، ولكننا فى الواقع لا نعرف عنها شيئاً .

— إنه بكل تأكيد محض افتراض ، ولكن الناس جميعاً يفترضونه .

وظل الطبيب يشعر طيلة ذلك اليوم بأن الدوار الخفيف الذى ينتابه كلما فكر فى الطاعون يزداد حدة ، وأخيراً أدرك أنه خائف ، فدخل مرتين إحدى المقاهى التى تعج بالناس ، فقد كان يشعر — مثل كوتار —

بالحاجة إلى الاقتراب من الناس ، والشعور بدفئهم البشرى ، وكان ريو يجد أن هذا نوع من الغباء ، ولكنه كان يساعده على ألا ينسى أنه وعد المندوب بالزيارة .

وفى المساء وجد الطبيب كوتار أمام مائدة طعامه ، ولاحظ عند دخوله وجود قصة بوليسية على المائدة ، ولكن المساء كان يتقدم ، وقد غدا من العسير متابعة القراءة وسط الظلام المتكاثف ، فلا بد أنه كان قد بدأ منذ لحظة يستسلم لتأملاته فى الضوء الخافت ، وسأله ريو عن حاله ، فأجاب بلسان يتلعثم — وهو يجلس — بأن حاله على مايرام ، ويمكن أن يستمر كذلك لو تأكد من أن أحداً لم يعد يهتم به .

ورد عليه ريو : بأن المرء لا يمكنه أن يعيش دائماً بمفرده ، فقال كوتار :

— ليس هذا ما أعنى ، إنى أتحدث عن أولئك الذين يفكرون فيك ليسيئوا إليك .

ولم يجب ريو بشىء ، فتابع كوتار كلامه قائلا :

— تأكد جيداً أن حالتى ليست من هذا النوع ، فقد كنت أقرأ هذه القصة . . إنها تدور حول شخص بائس قبضوا عليه ذات صباح دون سابق إنذار ، كان هناك من يهتم بأمره دون أن يدرى ، كانوا يتكلمون عنه فى المكاتب ، ويسجلون اسمه على الجوازات ، أتظن أن هذا عدل ؟ أتظن أن من حقهم أن يتصرفوا هذا التصرف مع إنسان ؟

فقال ريو :

ــ الأمر يتوقف على أشياء كثيرة ؛ فلو نظرنا له من إحدى نواحيه ، لوجدنا أنه لا يملك أحد هذا الحق إطلاقا ، ولكن كل هذه أمور ثانوية ، ولا ينبغى أن تسرف ــ هكذا ــ فى حبس نفسك ، بل يجب عليك أن تخرج .

فبدا الامتعاض على كوتار ، وقال : إنه لا يفعل إلا هذا ، ومن الممكن أن يشهد له الحى بأجمعه ، بل إن المعارف لا تنقصه حتى خارج الحى ، ثم تساءل :

ــ أتعرف السيد ريجو المهندس ؟ إنه من أصدقائى .

وخيم الظلام على الغرفة أكثر من ذى قبل ، وازدحم شارع الضاحية ، ثم رنت صيحة ارتياح وتحية لحظة إضاءة المصابيح، وتوجه ريو إلى الشرفة ، وتبعه كوتار . وكما يحدث كل مساء فى مدينتنا ، هبت من الأحياء المحيطة نسمة خفيفة تحمل أصواتا هامسة ، ورائحة اللحم المشوى ، وذلك الطنين المرح الشذى ، طنين الحرية الذى يعم الشارع — بالتدريج — بعد أن يغص بالشباب الصاخب المرح .

وكان الليل ، وصيحات السفن البعيدة عن مدى البصر ، والطنين الذى ينبعث من البحر ومن الجماهير المتلاطمة ، كانت هذه الساعة — التى يعرفها ريو حق المعرفة ، وكان يحبها فيما مضى — تبدو له الآن خانقة بسبب كل ما كان يعرفه .

وقال لكوتار :

— هل يمكن أن نضىء النور ؟

وعندما أضىء النور أخذ الرجل القصير ينظر إليه بأهدابه المهتزة ، وقال :

— قل لى يا دكتور : لو انتابنى المرض ، هل تقبلنى فى قسمك بالمستشفى ؟

— ولم لا ؟

وهنا سأله كوتار عما إذا كان قد حدث من قبل أن قبض على أحد في عيادة أو في مستشفى ، وأجاب ريو بأن ذلك قد حدث ، ولكن كل شيء يتوقف على حالة المريض ، فقال كوتار :

— إني أثق فيك .

ثم سأله عما إذا كان يقبل أن يوصله إلى المدينة بسيارته .

ولما صارا في قلب المدينة ، كانت الشوارع أقل ازدحاما ، والأفراد أقل انتشاراً ، وكان بعض الأطفال مازالوا يلهون أمام أبواب بيوتهم ، وأوقف الطبيب السيارة في المكان الذي طلبه كوتار أمام جمع من هؤلاء الأطفال الذين كانوا يلعبون « الحجلة » ، ويتصايحون ، ولكن كان من بينهم طفل ذو شعر أسود ملزج ومفرق مستقيم ، ووجه قذر ، أخذ يسلط نحو ريو بعض النظرات من عينيه الفاتحتين المخيفتين ، وأشاح الطبيب بنظره عنه ، وعندما نزل كوتار من السيارة صافح الطبيب وهو واقف على الإفريز ، وكان يتكلم بصوت أجش محتبس ، وقد نظر خلفه مرتين أو ثلاث ، وقال :

— إن الناس يتكلمون عن وجود وباء ، هل هـــذا صحيح يا دكتور ؟

فقال ريو :

— الناس يتكلمون دائماً ، هذا أمر طبيعي .

— عندك حق ، ولكن إذا مات منا عشرة فستكون نهاية العالم ، وليس هذا هو ما ينبغي لنا .

وكان محرك السيارة يواصل أزيزه ، وقد وضع ريو يده على ضابط السرعة ، ثم نظر من جديد إلى الطفل الذى لم يكن قد كف عن تفحصه بنظراته الهـــادئة ، ثم حدث فجأة دون مقدمات أن ابتسم له الطفل ابتسامة عريضة .

وقال ريو لكوتار — وهو يبتسم للطفل — :

— ماذا إذن ينبغى لنا ؟

وتشبث كوتار بباب السيارة ، وصاح بصوت ملىء بالدموع والهلع قائلا قبل أن ينصرف :

— زلزال ، زلزال حقيقى .

ولم يحدث زلزال ، ومر اليوم التالى على ريو ، وهو يذرع أركان المدينة الأربعة ، ويتفاوض مع أسر المرضى ، بل يناقش المرضى أنفسهم ، ولم يشعر يوماً بثقل مهنته كما شعر بها هذا اليوم ، كان المرضى — حتى الآن — يسهلون له مهمته ، كانوا يركنون إليه ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يجدهم فيها الطبيب مترددين منطوين على مرضهم بنوع من الدهشة المصحوبة بالريبة . ولم يكن الطبيب قد اعتاد بعد هذا النوع من الكفاح . وفى نحو الساعة العاشرة مساء أوقف سيارته أمام باب العجوز المريض بالربو ، والذى كان آخر من يزوره ، وهنالم يستطع ريو أن ينتزع نفسه من مقعده إلا بمشقة كبيرة ، وقد تباطأ فى الدخول متشاغلا برؤية الشارع المظلم ، والنجوم التى تظهر وتختفى على صفحة السماء المظلمة ، وكان المريض الهرم جالساً فى سريره ، ويبدو عليه

أنه يتنفس بأسهل من ذى قبل ، وقد شغل نفسه بعد حبات البازلاء التى راح ينقلها من قدر إلى آخر ، واستقبل الطبيب هاشا ، ثم سأله :

— هل هى الكوليرا يا دكتور ؟

— من قال لك هذا ؟

— الجريدة ، والراديو أيضاً أذاع هذا النبأ .

— لا ، ليست الكوليرا !

فقال العجوز باضطراب متزايد :

— مهما يكن الأمر فإن آلامهم هائلة ، هؤلاء المرضى !

وأجاب الطبيب :

— لا تصدق ما يقال .

ولما انتهى ريو من فحص المريض جلس وسط قاعة الطعام البادية الفقر . نعم . لقد كان خائفا ؛ فهو يعلم أنه يوجد فى هذا الحى نفسه نحو عشرة من المرضى الذين ينتظرون زيارته فى صباح اليوم التالى ، وقد انحنوا على ما بهم من عقد وأورام ؛ وقد أتى شق الأورام ببعض النتائج الطيبة فى حالتين ، أو ثلاث حالات فقط ، ولكن لم يكن هناك حل آخر فى معظم الحالات غير المستشفى ، وكان يعرف ماذا يعنى المستشفى بالنسبة للفقراء ، فقد قالت له زوجة أحد المرضى : « لا أريد أن يكون موضعاً لتجاربهم » . نعم ، لن يكون موضعاً لتجاربهم ، ولكنه سيموت ، هذا هو كل ما هنالك ، ذلك أن الإجراءات التى اتخذت لم تكن كافية ، وقد كان ذلك أمرا واضحا كل الوضوح ، أما عن القاعات التى قالوا عنها :

إنها « جهزت تجهيزاً خاصاً ، فقد كان يعرف كل شيء عنها : إنها تنحصر في جناحين أخرج منهما المرضى السابقون بسرعة ، وسدت نوافذهما ، وأحيطا بنطاق وقائي ، وإذا لم يتوقف الوباء من تلقاء نفسه ، فإنه لن يكون لهذه الإجراءات التي تخيلتها الإدارة أي أثر في قهره .

وقد ظلت البلاغات الرسمية متفائلة حتى المساء ، وفي صباح اليوم التالي أعلنت وكالة « رانسدوك » : أن الإجراءات التي اتخذتها المديرية قد تلقاها الناس بحسن فهم ، وأن ثلاثين حالة جديدة من حالات المرض قد ظهرت ، وتحدث كاستل إلى ريو في التليفون سائلا :

— كم سريراً يوجد بجناحي المستشفى ؟

— ثمانون .

— وهناك في المدينة أكثر من ثلاثين مريضاً بطبيعة الحال ؟

— هناك أولئك الذين يتملكهم الخوف ، أما الباقون — وهم الأكثر عدداً — فلم يمهلهم المرض .

— وعمليات الدفن ؟ أليست موضوعة تحت الرقابة ؟

— كلا ، وقد كلمت ريشار في التليفون ، وأفهمته أنه لابد من اتخاذ إجراءات كاملة ، بدلا من الجمل الفارغة ، وأنه يجب أن نقيم سداً منيعاً ضد المرض ، وإلا فلا فائدة من فعل أي شيء .

— وبعد ؟

— أجابني بأنه لا يملك السلطة ، وفي رأيي أن العدد سيستمر في الصعود .

وفعلا لم تمر ثلاثة أيام حتى امتلأ الجناحان ، وكان ريشار يشيع أنه سيخلي إحدى المدارس ، وتحول إلى مستشفى مساعد ، وظل ريو ينتظر وصول المصل ، ويشق العقد والأورام ، وعاد كاستل إلى كتبه القديمة ، وظل يوالى زياراته الطويلة للمكتبة .

وأنهى كاستل محادثته قائلا :

— لقد ماتت الفئران بالطاعون — أو بشىء ما يشبهه كثير الشبه — وقد كانت السبب فى انتشار عشرات الألوف من البراغيث التى ستنشر العدوى بطريقة حسابية واضحة إذا لم توقف فى الوقت المناسب .

وهنا لاذ ريو بالصمت .

وفى هذه الفترة كان يبدو الوقت وكأنه قد استقر ، وامتصت الشمس مياه البرك الصغيرة التى تركها وابل آخر الفصل ، وكان كل ما فى هذا الموسم يدعو إلى البهجة ، من السماء الزرقاء الجميلة التى تفيض بالضياء الصفراء ، وأزيز الطائرات ، والدفء . ومع ذلك فقد قفزت الحمى فى ظرف أربعة أيام أربع قفزات مثيرة للدهشة : ستة أموات ثم أربعة وعشرون ميتاً ، ثم ثمانية وعشرون ، ثم اثنان وثلاثون . وفى اليوم الرابع أعلن عن افتتاح المستشفى المساعد فى إحدى مدارس الحضانة ، وبدا مواطنونا فى الشوارع أكثر انهياراً وأشد صمتاً ، وقد كانوا — حتى هذه اللحظة — يخفون قلقهم تحت ستار من الدعابات .

وقرر ريو أن يتحدث إلى المدير بالتليفون ، فقال له :

— إن الإجراءات ليست كافية .

— الأرقام تحت يدى ، وهى حقا مثيرة للقلق .

— إنها أكثر من مثيرة للقلق ، إنها واضحة .

— سأطلب أوامر من الحكومة العامة .

ووضع ريو السماعة ، وكان ذلك فى حضرة كاستل الذى عقب بقوله :

— أوامر ! إن الأمر يحتاج لكثير من الخيال .

— والأمصال ؟

— سوف تصل فى خلال هذا الأسبوع .

وطلبت المديرية — عن طريق ريشار — من ريو أن يعد تقريراً يرسل إلى عاصمة المستعمرة لاستعجال الأوامر ، وقد سجل فيه ريو وصفاً إكلينيكياً للمرض معززاً بالأرقام ، وفى اليوم التالى بلغ عدد الوفيات أربعين حالة ، وأخذ المدير على عاتقه — كما قال — مسئولية اتخاذ الإجراءات المقررة ابتداء من اليوم التالى ، وصدرت الأوامر بأن يبلغ المرضى عن أنفسهم ، وأن يعزلوا ، أما منازل المرضى فتغلق ، وتطهر . ويفرض الحجر الصحى على أقاربهم للوقاية ، وتقرر أن تتولى إدارة المدينة مسائل الدفن بالشروط التى تراها ، وبعد يوم واحد وصلت الأمصال بالطائرة ، وكانت هذه الأمصال تكفى للحالات التى كانت تحت العلاج ، ولكنها لم تكن لتكفى فى حالة انتشار المرض .

وكان الرد الذى تلقاه ريو على برقيته : أن الكميات المخزونة قد نفدت ، وقد بدئ فى إنتاج كميات أخرى .

فى هذا الوقت عم الربيع ــ القادم من جميع الضواحى المحيطة ــ كل أسواق المدينة ، وكانت آلاف الورود تذبل فى سلال الباعة على طول الأرصفة ، فينتشر رائحها السكرى فى أرجاء المدينة ؛ كانت المدينة تبدو ــ فى ظاهر الأمر ــ وكأن شيئاً لم يتغير فيها ؛ كانت عربات الترام تغص بالركاب فى أول النهار كالمعتاد ، أما خلال النهار فكانت خاوية بادية القذارة ، وظل تارو يراقب العجوز القصير ، كما ظل هذا العجوز يبصق على القطط ، واستمر جران يعود إلى بيته كل مساء ، فينكب على عمله الغامض ، كما ظل كوتار يلف ويدور فى المدينة ، والسيد أوتون ــ قاضى التحقيق ــ يواظب على إدارة شئون بيته . أما العجوز المريض بالربو فقد ظل هو الآخر ينقل البازلاء من قدر إلى آخر ، كما كان الصحفى رامبير يشاهد من حين لآخر فى هدوئه واهتمامه المعتادين .

وفى المساء كانت الجموع نفسها تملأ الشوارع ، والصفوف تطول أمام دور السينما ، وبدا أن الوباء أخذ فى التراجع ، فقد مرت بضعة أيام لم تقع فيها سوى نحو عشر وفيات ، ثم فجأة ارتفع الرقم كالسهم ، وفى اليوم الذى عاد فيه عدد الوفيات إلى ثلاثين من جديد ، كان ريو ينظر إلى البرقية الرسمية التى قدمها له المدير قائلا :

« إنهم خائفون » أما البرقية نفسها فكان نصها :

« أعلن عن وجود وباء الطاعون ، وأغلق المدينة » .

يمكننا أن نقول : إن الطاعون أصبح شغلنا الشاغل جميعاً منذ تلك اللحظة ؛ فالذى حدث حتى الآن — رغم الدهشة والقلق اللذين نتجا عن هذه الأحداث الشاذة — أن كل واحد من مواطنينا قد استمر فى مشاغله الخاصة ، منهمكا فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلا دون أن يغادر مكانه ، وكان هذا بلا شك هو ما ينبغى أن يكون، ولكن ما أن أغلقت الأبواب حتى لاحظ الناس — بما فيهم الراوى — أنهم قد أصبحوا جميعاً فى الهم سواء ، وأن عليهم أن يتدبروا أمرهم ، وهكذا أصبح الشعور الغالب على شعب بأسره — منذ الأسابيع الأولى — هو شعور الفراق بين شخصين متحابين فضلا عن شعور الخوف ، ذلك العذاب الأساسى الذى قاسى منه الشعب أثناء هذا المنفى الطويل الأمد .

والواقع أن أخطر نتيجة ترتبت على إغلاق أبواب المدينة كانت ذلك الفراق المفاجىء الذى فرض على أناس لم يكونوا قد أخذوا له أهبته ، فافترقت أمهات عن أطفالهن ، وزوجات عن أزواجهن ، وعشاق كانوا قد ظنوا لدى فراقهم منذ أيام أنه فراق مؤقت ، وراحوا يتبادلون العناق على أرصفة المحطة ، وكل منهم يوجه التوصيات إلى صاحبه ، وكلهم ثقة فى أن شملهم سيجتمع بعد بضعة أيام ، أو بضعة أسابيع على الأكثر . لقد غرق هؤلاء العشاق فى تلك الثقة الإنسانية الغافلة التى لم

تكن مشاغلهم العادية تلهيهم عنها ، حتى وجدوا أنفسهم وقد ضرب بينهم الفراق بسور منيع حرمهم حتى من إمكان التراسل ؛ وقد كان ذلك لأن إغلاق المدينة قد حدث قبل أن يعلن قرار المديرية ببضع ساعات ، وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن أن تكون هذه الحالات الشخصية محل تقدير ، ويمكننا أن نقول : إن أول أثر تلقاه المواطنون من هذا المرض الذى اجتاح المدينة اجتياحاً عنيفاً ينحصر فى أنه اضطرهم إلى تناسى عواطفهم الشخصية ، وأن يتصرفوا كما لو كانوا خلوا من العواطف ، وعندما وضع قرار المديرية موضع التنفيذ فى الساعات الأولى من ذلك اليوم ، انهال على المديرية وابل من الطلبات التليفونية والكتابية موجهة إلى الموظفين ، يعرض فيها أصحابها حالات ومواقف تستحق الاهتمام ، ولكنها أيضاً مستحيلة التنفيذ ؛ ذلك أنه كان لابد من مرور أيام عديدة حتى يدرك الناس أنهم فى موقف لاسابقة له ، وأن كلمات «الخروج عن القاعدة» و «المجاملة» و «الاستثناء» لم تعد ذات معنى .

لقد حرمنا حتى من تلك المتعة البسيطة التى نجدها فى الكتابة ؛ فلم تعد المدينة ترتبط ببقية أجزاء البلد بوسائل المواصلات العادية ، هذا إلى أنه كان قد صدر قرار جديد يحرم جميع أنواع المراسلات حتى لا تكون الخطابات وسيلة لنشر العدوى ، وقد حدث فى بادىء الأمر أن تمكن بعض أصحاب الحظوة من الاتفاق مع دوريات الحراسة المرابطة على أبواب المدينة على حمل رسائلهم إلى خارجها ، حدث هذا فى الأيام الأولى من إعلان الوباء عندما كان الحراس لا يزالون يعتبرون الرضوخ لشعور الشفقة أمراً طبيعياً ، ولكن ما أن مضى بعض الوقت ، حتى اقتنع

هؤلاء الحراس أنفسهم بخطورة الموقف ، فأحجموا عن تحمل تبعات لا يستطيعون أن يتنبئوا بمداها .

أما الاتصالات التليفونية بالمدن الأخرى التي كان قد صرح بها في أول الأمر ، فقد أحدثت تزاحماً شديداً في المكاتب العامة على الخطوط دفع القائمين بالأمر إلى إيقافها لبضعة أيام ، ثم إلى حصرها حصراً شديداً فيما سموه بحالات الضرورة القصوى : كحالات الوفاة، والولادة، والزواج، ولم تبق لنا من وسيلة سوى البرقيات . وهكذا اضطر الناس الذين تربطهم بعضهم ببعض صلات العقل والقلب والدم أن يبحثوا عن دلائل هذه الصلات القديمة بين حروف برقية من بضع كلمات ، ولما كان من شأن الصيغ التي نستعملها في البرقيات أنها محدودة وسريعاً ما تستنفد ، فقد أصبحت ضروب الحياة الطويلة المشتركة ، ولهيب العواطف الحارق تضغط بسرعة في قوالب جاهزة يتبادلها الناس بانتظام مثل : « إني بخير . فكرى في نفسك . حناني » .

وبالرغم من ذلك فقد أصر بعضنا على الكتابة ، وأعملوا فكرهم بلا هوادة من أجل الاتصال بالخارج بوسائل كان يتضح في النهاية أنها وهمية ، ومع ذلك فقد نجحت بعض هذه الوسائل التي تخيلناها دون أن ندرى شيئاً عن نجاحها ، لأننا لم نتلق عنها رداً ، وظللنا أسابيع بطولها نضطر إلى نسخ الخطابات نفسها ، وإعادة المعلومات نفسها ، وإصدار النداءات نفسها إلى حد أنه لم يمر بعض الوقت حتى أصبحت تلك الكلمات التي كانت تخرج من قلوبنا مخضبة بالدم خاوية من كل معنى ؛ فقد كنا نعيد كتابتها بطريقة آلية محاولين أن نجعل من هذه الجمل الميتة علامات

لصعوبة حياتنا ، وفى النهاية وجدنا أن نداء البرق التقليدى أفضل من هذه الاسطوانة القديمة الملحة ، ومن ذلك الحديث الصلد مع الجدران .

ولم تمر إلا أيام حتى تأكد الناس أنه لن يخرج من المدينة أحد ، فخطر للبعض أن يسأل عما إذا كان يمكن التصريح بعودة أولئك الذين خرجوا من المدينة قبل الوباء . وبعد بضعة أيام من التفكير ، أجابت المديرية بالإيجاب ، ولكنها أوضحت أنه لن يصرح بأى حال لمن يعودون إلى المدينة بالخروج منها مرة ثانية ، وأنه إذا كان لهم حرية العودة إلى المدينة فلن يكون لهم الحق فى مبارحتها مرة ثانية ، وهنا قام عدد من الأسر — وإن كان عدداً ضئيلا — باتخاذ قرار متسرع لاروية فيه ، وفضلت رغباتها فى رؤية أقاربها على تركهم فى منجى من الخطر ، ودعت هؤلاء الأقارب إلى الاستفادة من تلك الفرصة ، ولكن سرعان ما أدرك سجينو الطاعون مدى الخطر الذى يعرضون له ذوى قرباهم ، فتحملوا آلام الفراق صاغرين . ولكن حدث عندما وصل المرض إلى أعلى مراحل خطورته أن تغلبت المشاعر الإنسانية فى إحدى الحالات على الخوف من الموت ، وما يصحبه من آلام ، ولم تكن تلك — كما قد يتبادر إلى الذهن — حالة عاشقين دفعهما الحب أحدهما نحو الآخر عبر الآلام والأخطار ، ولكنها كانت حالة الطبيب العجوز كاستل وزوجته اللذين كانا قد تزوجا منذ سنين عديدة ، وذلك أن مدام كاستل كانت قد توجهت إلى مدينة مجاورة قبل الوباء بأيام قلائل ، والواقع أن هذين الزوجين لم يكونا من الأزواج الذين يضرب بهم المثل فى السعادة ، بل وفى وسع الراوى أن يؤكد — استناداً على ما توحى به جميع الظواهر — أنه

هذين الزوجين لم يكونا — حتى هذه اللحظة — متأكدين من رضائهما عن زواجهما ، غير أن الفراق المفاجىء العنيف الطويل الأمد برهن لهما على أنهما لا يطيقان العيش أحدهما بعيداً عن الآخر ، وإزاء هذه الحقيقة — التى انكشفت لهما فجأة بكل وضوح وجلاء — أصبح الطاعون فى نظرهما أمراً غير ذى بال .

كانت هذه حالة استثنائية ، أما فى غيرها من الحالات ، فقد كان مما لا شك فيه أن الفراق لن ينتهى إلا بنهاية الوباء ، وهكذا رأينا المشاعر التى كانت تملأ حياتنا ، والتى كنا مع ذلك نعتقد أننا نعرفها جيداً (فقد ذكرنا أن عواطف سكان وهران تتسم بالبساطة) ، نقول : رأينا هذه المشاعر تلبس لباساً جديداً ، فاكتشف الكثير من الأزواج والعشاق — الذين كانوا يضعون فى صواحبهم كل ثقتهم — أنهم غيورون ، ومن الناس من كانوا ينظرون إلى حبهم بعين الريبة ، فاكتشفوا أنه ثابت كالطود ، وهناك أبناء كانوا يعيشون إلى جوار أمهاتهم دون أن يمنحوهن نظرة واحـــدة من نظراتهم ، فأصبحوا ينوءون بالقلق والأسف كلما لاحت لخيالهم تجعيدة واحدة من تجاعيد وجوههن ، وهكذا رأينا أن هـذا الفراق المفاجىء القاسى — الذى انقطع عن الماضى ، ولم يكن له مستقبل يمكن التكهن به — قد تركنا حائرين عاجزين عن مقاومة الذكرى ... تلك الذكرى القريبة البعيدة فى آن واحد ، والتى أصبحت الآن كل ما يملأ أيامنا ، فكنا فى حقيقة الأمر نتألم مرتين : مرة من آلامنا نحن ، ومرة أخرى للآلام التى نتوهمها للأعزاء الغائبين ، سواء أكانوا أبناء ، أم زوجات ، أم عشيقات .

والحقيقـــة أنه لو كان مواطنونا فى ظروف أخرى لوجـدوا لأنفسهم مخرجا فى حياة أقل أنطواء ، وأكثر نشاطاً ، ولكن الطاعون تركهم بلا عمل ، واضطرهم لقضاء وقتهم فى التجوال حول المدينة الحزينة، بينما راح استسلامهم لحنين الذكريات يزداد يوماً بعد يوم ؛ ذلك أنهم كانوا فى جولاتهم — التى لاغاية لها — يمرون دائماً بنفس الطرقات ، وهى فى مدينـة صغيرة كهذه لايمكن أن تكون إلا تلك الطرقات ذاتها التى كانوا يذرعونها مع أعزائهم الغائبين .

وهكذا كان النفى أول شىء جاء به الطاعون لمواطنينا ، ويعتقـد الراوى أنه يستطيع هنا أن يعبر — باسم الجميع — عما عاناه فى ذلك الحين ؛ إذ أن الكثيرين من مواطنينا قد عانوه معنا فى نفس الوقت ، إنه لم يكن إلا الشعور بالنفى ، ذلك الشعور بالفراغ الذى كنا نحمله دائماً فى نفوسنا ، ذلك التأثر المحدد ، تلك الرغبة الجامحة فى الرجوع إلى الوراء، أو — على العكس من ذلك — فى حث خطى الزمن ، تلك السهام المحرقة ، سهام الذكرى ، وإذا كان يتأتى لنا فى بعض الأحيان أن ننساق وراء الأوهام ، ونعلل أنفسنا بانتظار دقة جرس عودة الغائب ، أو وقع خطى مألوفة لنا على السلم ، وإذا كان يتأتى لنا فى هذه الأحايين أن ننسى أن القطارات متوقفة عن المسير ، وإذا كان يتأتى لنا أن نرتب أمورنا على أن ننتظر فى بيتنا فى الساعة التى يعود فيها المسافر الذى وصل بالقطار السريع إلى حينا فى الأحوال العادية ، فإن هذا العبث لم يكن ليدوم بطبيعة الحال ؛ فلم يكن هناك بد من حلول اللحظة التى نلمس فيها جيداً أن القطارات لاتأتى ، وحينئذ كنا ندرك تمام الإدراك أن فراقنا قد قدر له

الدوام ، وأنه يتحتم علينا أن نحاول اعتياد هذا الأمر مع مرور الوقت ؛ وحينئذ كنا نعود إلى حالة السجناء التى قدرت علينا ، فلم يكن لنا مناص من أن نعيش فى ماضينا ، ولو تأتى لأحدنا أن يحاول العيش فى المستقبل لعدل عن ذلك إذا استطاع ؛ إذ أنه يشعر حينئذ بآلام الجراح التى يرمى بها الخيال — فى نهاية المطاف — أولئك الذين يثقون فيه .

وسرعان ما حرّم المواطنون على أنفسهم — بصفة خاصة ، وحتى فى مجالسهم العامة — تلك العادة التى كانوا قد اكتسبوها وهى تحديد مدة الفراق ، لماذا ؟ ذلك لأنه إذا كان أكثر الناس تشاؤماً قد حددوها بستة أشهر ، وتجرعوا سلفاً كل مافى هذه الأشهر القادمة من مرارة ، وعملوا كل جهدهم فى رفع قوتهم المعنوية إلى مستوى هذه التجربة ، وبذلوا قصاراهم لكى يحفظوا بقايا قواهم من أن يدركها الوهن قبل نهاية فترة العذاب الممتدة على مدى واسع من الأيام المتتالية ، فقد كان يحدث أن يوحى اليهم صديق عابر ، أو إعلان فى جريدة ، أو مجرد ظن طارىء ، أو حيطة مفاجئة بأنه ليس هناك مايؤكد أن المرض لن يستمر أكثر من ستة أشهر ، بل قد يمتد إلى سنة ، أو ربما إلى أكثر من سنة .

وحينئذ كانت تنهار شجاعتهم ، وتخمد إرادتهم ، ويعيل صبرهم — بشكل مفاجىء — إلى حد يصور لهم أنه لا يخرجهم من هذه الهوة ؛ ولهذا فرضوا على أنفسهم ألا يفكروا أبداً فى وقت الخلاص ، ألا يلتفتوا أبداً إلى المستقبل ، أى أن يغضوا دائماً من أبصارهم ،

ولكن هذا الحذر ، وهذه الطريقة للتحايل على الألم ، طريقة إغلاق الأبواب هرباً من المعركة ، كانت تلقى شر الجزاء بطبيعة الحال ؛ ففى نفس الوقت الذى كانوا يتجنبون فيه الوقوع فى هذا الانهيار بأى ثمن ، كانوا يحرمون أنفسهم حقاً من تلك اللحظات الكثيرة التى كانوا يستطيعون فيها أن ينسوا الطاعون فى غمرة الصورة الخيالية التى يرسمونها للقائهم فى المستقبل .

وهكذا أصبحوا معلقين وسط المسافة بين هذه الهوات وتلك القمم ، أصبحوا يتلاطمون أكثر مما يعيشون ، ولا ملجأ لهم إلا أيام لا وجهة لها ، وذكريات قاحلة ، وظلال هائمة . لم تكن لتقوى على البقاء لو لم تنشب جذورها فى أرض آلامهم .

وهكذا كانوا يشعرون بما يشعر به جميع المسجونين وجميع المنفيين من عذاب ، عذاب من لهم ذاكرة لا فائدة منها ، بل إن هذا الماضى نفسه — الذى مافتئوا يذكرونه — لم يكن لمذاقه من طعم سوى المرارة ، وكم ودوا لو استطاعوا أن يضيفوا إليه كل ما يأسفون لعدم حدوثه بينهم وبين من ينتظرون عندما كان الممكن أن يحدث ، كما أنهم كانوا يربطون الغائب بجميع الظروف التى تمر بهم فى حياة السجن التى كانوا يحيونها ، حتى بما كان منها يتسم بسعادة نسبية ، ولم تكن حالتهم حينئذ بالتى يمكنهم أن يرضوا عنها ، فقد كانوا متبرمين بحاضرهم ، أعداء لماضيهم ، محرومين من مستقبلهم .

وهكذا كنا نشبه أولئك الذين وضعتهم العدالة أو الأحقاد البشرية وراء القضبان ، ولم يكن هناك مهرب من هذا الفراغ غير المحتمل إلا فى

إعادة سير القطارات فى خيالنا ، وملء أوقاتنا برنين متتابع لأجراس أبوابنا ، تلك الأجراس التى كانت تصر على الصمت ، ولكن إذا كان الناس يشعرون بالمنفى ، فإن منفاهم كان فى بلدهم فى أغلب الأحيان ، ورغم أن الراوى لم يعرف إلا هذا النوع من المنفى ، فإنه لا يصح له أن ينسى أولئك الذين اتسع نطاق آلام الفراق بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا على سفر وفاجأهم الطاعون فى المدينة واحتجزهم فيها ،فحرموا فى آن واحد عن يحبون ، ومن بلدهم الذى استحال عليهم أن يعودوا إليه ، وذلك كما حدث للصحفى رامبير وغيره،وهكذا كان هؤلاء فى وسط ذلك المنفى العام أكثر من غيرهم إيغالا فى النفى ؛ لأنه إذا كان الوقت يجعلهم كغيرهم نهباً للقلق الذى هو من خصائصه ، فإنهم فوق ذلك مرتبطون بفكرة المكان ، وكانوا يصطدمون — دون توقف — بذلك الجدار الذى يفصل بين المقر الموبوء الذى فرض عليهم ، وبين وطنهم الذى ضاع منهم ،فأغلب الظن أنهم هم الذين كانوا يرون هائمين على وجوههم فى كل ساعات النهار فى المدينة المغبرة ، يدعون — فى صمت— ذكرى الأمسيات التى عرفوها وحدهم ، وينادون أصبحة بلادهم المنعشة ، لقد كانوا حينئذ يغذون نار ألمهم بتأويل علامات غير محسوسة ، وإرهاصات محيرة : كمرور الطير فى سماء المدينة ، أو ندى الغروب، أو تلك الأشعة الغريبة التى تنساها الشمس أحياناً فى الشوارع المقفرة . أما هذا العالم الخارجى الذى فى مقدوره دائماً أن ينقذ الناس من كل شىء ، فإنهم يغمضون أعينهم دونه ، مصرين على مداعبة أوهام أكثر من حقيقية ، وعلى أن يظلوا يتابعون — بكل قوتهم — صور أرض يتكون جوها من نوع معين من الضوء ، وتلين

أو ثلاثة ، وشجرة محببة إليهم ، وبعض وجوه نسائية معينة ، ومثل هذا الجو لم يكونوا ليرضوا عنه بديلا .

وإذا كان لنا أن نخص العشاق بحديثنا — وهم أكثر الناس إثارة لاهتمامنا كما أن الراوى أقدر على الحديث عنهم أكثر من غيرهم — فإنهم كانوا نهباً لأنواع أخرى من العذاب ، ومن بينها تأنيب الضمير ، فقد سمح لهم هذا الموقف الجديد بأن ينظروا إلى عاطفتهم بنوع من الموضوعية المحمومة ، وقد كان من النادر فى هذه المناسبات ألا يظهر لهم ضعفهم الشخصى بوضوح ، وأولى المناسبات التى ظهر لهم فيها هذا الضعف هى الصعوبة التى كانوا يجدونها فى أن يستعيدوا فى خيالهم حركات الغائب وتصرفاته ، فيلومون أنفسهم على جهلهم بالطريقة التى ينظم بها هذا المحبوب وقته ، ويتهمون أنفسهم بالاستهتار ، لأنهم قصروا فى معرفة تلك الطريقة ، وزعموا — نفاقاً — أنها ليست المنبع الذى يجد فيه المحب سعادته ، وحينئذ كانوا لا يلبثون أن يستعيدوا فى أذهانهم قصة حبهم بكل سهولة ، ويتفحصوا نقائصهم ، ومما لا شك فيه أننا كنا كلنا — فى الظروف العادية — نعرف ، عن شعور أو عن غير شعور ، أنه لا يوجد حب لا يمكن له أن يتفوق على نفسه ، ومع ذلك فقد كنا نقبل مطمئنين أن يظل حبنا حباً صغيراً ، ولكن الذكرى أكثر إلحاحاً من الواقع ، فأصبحنا ندرك — بصورة منطقية — أن تلك المصيبة التى نزلت علينا من الخارج ، والتى رزئت بها مدينة بأسرها ، لم تقتصر على إشعارنا بأنها لم تحمل إلينا إلا آلاماً غير عادلة ، فتثير فى نفوسنا السخط عليها ، بل لقد دفعتنا أيضاً إلى أن نتألم من أنفسنا ، ومن ثم

اضطرتنا إلى قبول آلامنا ، وكانت هذه إحدى طرق المرض لكى يحول عنه أنظارنا ، ويجعل الأمور تختلط فى أذهاننا .

وهكذا اضطر كل منا إلى أن يعيش ليومه ، وفى وحدة تامة تجاه السماء . وكان من شأن هذا الاستسلام العام الذى لم يكن منه بد أن يؤثر على أخلاق الناس مع طول الوقت ، وكانت أول مظاهر هذا التأثير اتجاه الأخلاق نحو التفاهة ، ففرض بعض مواطنينا مثلا على أنفسهم نوعاً آخر من العبودية ، سخرهم فى خدمة الشمس والمطر ، فكان يبدو لمن يراهم أنهم يتلقون تأثيرات الطقس لأول مرة ، وبطريقة مباشرة ، فكانت وجوههم تبدو مستنيرة لدى أول شعاع ذهبى يقع عليهم ، بينما كانت تكفهر وجوههم — وكذلك أفكارهم — فى أيام المطر .

لقد كانوا منذ بضعة أسابيع لا يعرفون هذا النوع من الضعف ، ولا تلك العبودية الهوجاء ؛ لأنهم لم يكونوا وحيدين فى مواجهة العالم ، ولأن الكائن الذى كان يعيش معهم كان يحول — بطريقة ما — بينهم وبين الكون ، ولكن الأمور انعكست بالنسبة لهم ابتداء من تلك اللحظة ، فتفرغوا لدراسة نزوات السماء ، ومعنى ذلك أنهم كانوا يألمون ويأملون دون سبب .

وهكذا بلغ شعورهم بالوحدة أقصى حدوده ، فلم يكن لأحد أن يرجو العون من جاره ، وعاش كل منا وحيداً مع مشاغله الخاصة ، ولو حاول أحدنا مرة أن يسر بما فى نفسه ، أو أن يقول شيئاً عن شعوره ، لما تلقى إلا جواباً جارحاً ، فكان سرعان ما يدرك أنه هو ومخاطبه

لا يتكلمان فى موضوع واحد ؛ أما هو فيعبر عما اختمر فى أعماق الليالى الطوال من آلام ، فكانت الصورة التى أراد أن يطلع محدثه عليها قد نضجت ، وتم نضجها فى نار الانتظار والحب ، وأما الآخر فكان على العكس من ذلك يتصور أنه أمام عاطفة من العواطف المتواضع عليها ، وألم من تلك الآلام التى تباع فى الأسواق ، واكتئاب من ذلك الذى يصنع بالجملة ، ولذلك كان الجواب دائماً زائفاً ، ومما يحسن العدول عنه ، سواء أكان ودياً أم عدائياً . وأما أولئك الذين لا يطيقون الصمت فكانوا حين يرون أن الآخرين لا يعرفون لغة القلب الحقيقية ، يضطرون إلى أن يستعملوا أيضا لغة السوق ، ويتكلموا بالطريقة التى جرى عليها العرف عن العلاقات البسيطة ، والأحداث التافهة ، وبالاختصار عن أحداث الحياة اليومية الرتيبة ، وهنا أيضاً كان لابد لأكثر الآلام صدقا أن تترجم عن نفسها ، فى تلك القوالب المصنوعة ، قوالب المحادثات المبتذلة . كان هذا هو الثمن الذى يدفعه سجينو الطاعون ، لكى يكسبوا عطف بوابيهم ، أو إصغاء من يستمعون إليهم .

ولكن ما هو أهم من كل ذلك أن سجناء الطاعون هؤلاء كانوا يعتبرون من المجدودين فى الفترة الأولى من سجنهم ، مهما كانت شدة الآلام التى يعانونها من قلقهم ، ومهما كان من ثقل الحمل الذى ترزح به قلوبهم رغم فراغها ، ففى نفس اللحظة التى بدأ فيها السكان يفقدون رباطة جأشهم كان فكرهم يتجه بكليته نحو الشخص الذى ينتظرونه ، وفى وسط الحزن العام ساعدت أثرة الحب على حمايتهم . وإذا كان الطاعون

قد شغل فكرهم ، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى أن يعرضهم لفراق يكون دائماً .

وهكذا كان من شأن ذلك أن يمدهم — إبان اشتداد الوباء — بنوع من انشغال البال ذى تأثير طيب ، لعله كان يؤول بأنه نوع من رباطة الجأش ، فاليأس قد أنقذهم من الهلع ، وكان لنكبتهم آثارها الطيبة ، ولذلك كان إذا حدث لأحدهم ، مثلا ، أن اجتاحه المرض ، لم يكن ليجد لديه من الوقت ما يعينه على التفكير فيه ، فكان إذا انتهى من هذه النجوى الداخلية الطويلة مع أحد الأطياف رأى نفسه وقد ألقى به — دون انتظار — إلى سكون الأرض الكثيف .

وبينما كان مواطنونا يحاولون أن يدبروا أمرهم مع هذا المنفى المفاجىء، كان الطاعون يضع حراساً على الأبواب، ويحول اتجاه السفن التى كانت تتجه نحو وهران، ومنذ إغلاق المدينة لم تدخلها عربة واحدة، وقد خيل للناس — منذ ذلك اليوم — أن السيارات قد أخذت تدور حول نفسها. أما الميناء، فقد كان منظره هو الآخر غريباً لمن ينظر إليه من أعلى الطرقات ؛ فالزحام المعتاد والذى كان يخلق منه ميناء من أكبر موانى الشاطىء قد انطفأ بغتة، وإن كانت بعض السفن المحجوزة للحجر الصحى ما زالت تشاهد فيه، ولكن بعض الروافع المهجورة، وعربات القطارات المقلوبة على جانبها كانت ترى على الأرصفة إلى جانب أكوام من الدنان أو الأكياس، كانت تشهد بأن التجارة هى الأخرى قد قتلها الطاعون.

ورغم هذه المشاهد التى لم يعتدها الناس من قبل، فقد كان من الصعب على مواطنينا أن يفهموا ما حدث لهم حق الفهم على ما يبدو، فقد كانوا رغم هذه المشاعر التى عمت — كألم الفراق والخوف — يستمرون فى جعل مشاغلهم الشخصية فى المكان الأول من اهتمامهم ؛ وذلك أنه لم يتأت لأحد منهم بعد أن يقدر المرض حق قدره ؛ فما برحت غالبية الناس شديدة الحساسية لكل ما يعرقل عاداتهم، أو يمس مصالحهم

بوجه خاص . كان ذلك هو الذي يثيرهم ، ويضيقون به ذرعا ، وكان أول رد فعل يصدر عنهم مثلا ينحصر فى توجيه الاتهام إلى إدارة المدينة ، وكان جواب المدير على الانتقادات التى ظهر صداها فى الصحف — من مثل : « ألا يمكن جعل الإجراءات المتخذة أكثر مرونة ؟ » — جواباً غير متوقع ؛ ففى تلك اللحظة لم تكن الصحف ، ولا وكالة رانسدوك قد تلقت بلاغا رسمياً عن إحصائيات المرض ، فأخذ المدير يبلغها يوماً بيوم إلى الوكالة راجياً إياها أن تنشرها مرة فى الأسبوع .

وهنا أيضاً لم يكن تأثير الإعلان على الناس فورياً ، فقد حصر الإعلان الصادر فى الاسبوع الثالث للمرض عدد الوفيات فى ثلاثمائة واثنتين ، ولكنه فى الواقع لم يتحدث إلى خيال الناس ، فمن جهة ربما لم يكونوا جميعاً قد ماتوا بالطاعون ، ومن جهة أخرى لم يكن أحد فى المدينة يدرى شيئاً عن عدد الذين يموتون كل أسبوع فى الأوقات العادية ، ذلك أن سكان المدينة كانوا يبلغون مائتى ألف نسمة ، ولم يكن الناس يعرفون ما إذا كانت نسبة الوفيات هذه نسبة عادية أم لا ، والواقع أن هذا النوع من الإيضاحات لا يحظى فى العادة بما يستحق من عناية رغم أهميته المؤكدة ، فكان الجمهور ينقصه المعلومات التى تمكنه من عقد المقارنات . ولكن ، مع مرور الوقت ، واستمرار ازدياد عدد الوفيات ، أدرك الناس الحقيقة ؛ فقد أعلن فى الاسبوع الخامس عن وفاة ثلاثمائة وواحد وعشرين شخصاً ، أصبحوا فى الاسبوع السادس ثلاثمائة وخمسة وأربعين شخصاً ، وكان أقل ما يقال فى هذه الزيادات أنها كانت بليغة فى معناها ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث لا تجعل مواطنينا يغيرون رأيهم

فى الموقف ، وهو أمر خطير مقلق بمـــا لا يدع مجالا للشك ، ولـكنه مؤقت أولا وقبل كل شيء .

وهكذا استمر القوم يجوبون الطرقات ، ويجلسون على موائد المقاهى ، إنهم لم يكونوا فى مجموعهم من الجبناء ، بل كانوا يتبادلون الدعابات أكثر مما يتبادلون الشكايات ، ويبدون كما لو كانوا يقبلون بصدر رحب تلك المضايقات المؤقتة ، وهكذا ظلت المظاهر كما هى دون افتضاح ، ولـكن حدث فى نهاية الشهر ، على وجه التقريب ـــ وخلال أسبوع الصلوات الذى ستتحدث عنه فيما بعد ـــ أن وقعت تغييرات أشد خطراً من تلك ، فقلبت مظهر المدينة رأساً على عقب ، وكان أول هذه التغييرات أن المدير قد اتخذ إجراءات خاصة بالمرور والتموين ، فحدد التموين بالمدينة ، وتقرر أن يكون بيع البنزين بالبطاقات ، بل وأخضع استهلاك الكهرباء نفسه لضروب الاقتصاد والتقشف ، ولم تعد تصل إلى وهران سوى المنتجات التى لا غنى عنها ، وكانت هذه تصل إليها عن طريق البر والجو ، وهكذا أخذت حركة المرور تضعف بالتدريج حتى صارت فى حكم المعدومة ، واضطرت بعض المحال الفاخرة إلى إغلاق أبوابها بين عشية وضحاها ، واضطرت محال أخرى إلى أن تضع على واجهتها لافتات تنفى وجود البضائع فيها ، بينما اصطفت أمام أبوابها صفوف المشترين .

وهكذا صار منظر وهران غريباً ، فقد ازداد فيها عدد المشاة ، وأصبحت شوارعها تغص بالمشاة حتى فى الساعات التى يخف فيها العمل ، وذلك بعد أن اضطرهم إغلاق المحلات ، وبعض المكاتب إلى التعطل ،

ولكنهم حتى فى هذه اللحظة لم يكونوا فى حالة بطالة ، ولكن فى حالة عطلة . وهكذا أصبحت وهران فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وفى جو صفت سماؤه ، وازدانت بزرقة جميلة ، تبدو كما لو كانت فى عيد فأوقف فيها المرور ، وأغلقت المحلات لكى يسمح بمرور موكب عام ، وكما لو كان السكان قد ملئوا الشوارع ليشتركوا فى الأفراح العامة ، وكم كان ذلك المنظر خداعاً .

ومن الطبيعى أن تستفيد دور السينما من هذه العطلة العامة ، وأن تحقق ربحاً طائلا . ولكن ما لبث تداول الأفلام أن توقف ، ولم يمر أسبوعان حتى اضطرت دور العرض إلى تبادل برامجها ، ثم انتهت الدور — بعد وقت قليل — إلى عرض فيلم واحد بصفة مستمرة ، ومع ذلك لم ينقص إيرادها .

أما المقاهى فقد ظلت تلبى طلبات روادها بفضل ما كان لديها من مواد مخزونة ، وهذا طبيعى فى مدينة تحتل تجارة النبيذ والمشروبات المكان الأول فيها ، والحقيقة أن الناس كانوا يسرفون فى الشراب ، ولما كان أحد المقاهى قد أعلن أن « النبيذ الجيد يقتل الميكروب » فقد زداد الناس اقتناعاً بأن الكحول يحمى من الأمراض المعدية ، فكنت ترى الشوارع حوالى الساعة الثانية من كل صباح ، وقد عجبت بعدد غير قليل من السكارى الذين طردتهم المقاهى ، وأخذوا يذرعون أرض المدينة وهم يتبادلون أشد الآراء تفاؤلا .

ولكننا لو نظرنا للأمر من زاوية معينة لوجدنا أن كل هذه

التغيرات كانت غير عادية ، وأنها تمت بسرعة لا تجعل من السهل اعتبارها عادية ودائمة ، ومن ثم فقد ظللنا نضع مواطننا الشخصية فى المكان الأول من اعتبارنا . وقد حدث بعد إغلاق أبواب المدينة بيومين أن قابل الدكتور ريو — وهو خارج من المستشفى — كوتار ، ورفع هذا الأخير نحوه وجهاً يطفح بالرضا ، وهنأه ريو على ذلك ، فقال هذا الرجل القصير :

— نعم ، إن الحال على ما يرام ، ولكن قل لى يا دكتور : ما هذا الطاعون المشئوم ! لقد بدأ يتخذ شكلا خطيراً ، وأجابه الطبيب بالإيجاب ، فعلق أخونا على جوابه بشىء من الابتهاج قائلا :

— ليس هناك ما يدعوه الآن إلى التوقف ، لابد أن كل شىء سوف ينقلب رأساً على عقب .

وسارا لحظة سوياً ، وحكى كوتار كيف أن بدالا مسكينا فى حيه كان قد اختزن بعض المواد الغذائية ليبيعها بسعر مرتفع ، وكيف اكتشفت العلب المحفوظة التى كان قد أخفاها تحت سريره عندما حضر القوم لأخذه إلى المستشفى حيث مات ، ثم عقب بقوله : « إن الطاعون ليست وراءه فائدة » .

وهكذا كانت جعبة كوتار مليئة بقصص الوباء ، الحقيقى منها والكاذب ، وكان مما ذكره : أنه حدث ذات صباح فى وسط المدينة أن رأى الناس رجلا تبدو عليه علامات الطاعون يندفع وسط هذيان المرض إلى خارج منزله ، ويلقى بنفسه على أول امرأة يصادفها ، ويضمها بقوة ، وهو يصيح :

إنى مصاب بالطاعون، ثم علق كوتار — بلهجة مبتهجة لا تتمشى مع ما يؤكده — :

— حسن ! من المؤكد أننا سنصبح جميعاً من المجانين .

وكذلك جاء جوزيف جران فى عصر اليوم نفسه ، وانتهى بأن أفضى إلى الدكتور ريو ببعض أسراره الشخصية ، وكان قد لمح صورة لمدام ريو على المكتب ، ثم نظر إلى الطبيب نظرة متسائلة ، فأجاب ريو بأن زوجته تعالج خارج المدينة :

فقال جران :

— من ناحية ما ، يعتبر هذا من حسن الحظ .

وأجاب الدكتور بأن ذلك فعلا من حسن الحظ ، ولكن بقى أن نأمل فى أن يتم شفاؤها :

وقال جران :

— آه ، إنى أفهم ذلك جيداً .

والمرة الأولى — منذ عرفه ريو — أخذ يتكلم بغزارة ، ورغم أنه كان كالمعتاد يبحث عن كلماته ، فقد كان ينجح دائماً فى العثور عليها كما لو كان قد فكر طويلا من قبل فيما يقوله الآن .

لقد تزوج فى سن مبكرة جداً من فتاة فقيرة صغيرة جداً من جيرانه ، وكان قد توقف عن إتمام دراسته ، وحصل على عمل لكى يتمكن من الزواج . ولم تخرج جان ولا هو نفسه من حيهما ، كان يذهب ليراها فى بيتها ، فيسخر أهلها قليلا من هذا الخاطب الصامت المرتبك . وكان أبوها

عاملا فى السكة الحديد ، وكان فى وقت راحته يرى دائماً منعزلا قرب النافذة، مستغرقا فى التفكير ، ناظراً إلى حركة الشارع وقد وضع راحتيه الكبيرتين على خديه . أما الأم، فكانت مشغولة دائماً بأعمال المنزل ، وكانت چان تساعدها . وچان هذه ضئيلة الجسم حتى أن جران لم يرها مرة تعبر الشارع إلا اعتراه القلق . لقد كانت العربات تبدو له حينئذ ذات حجم هائل . وذات يوم ـــ أمام أحد محلات عيد الميـــلاد ـــ كانت چان تنظر إلى الواجهة الزجاجية ، وقد استحوذ عليها الإعجاب ، ثم ارتمت ناحية جران وهى تقول : ما أجمل هذا ! وكان هو قد ضغط على معصمها ، وهكذا تقرر زواجهما .

أما بقية القصة ، فكانت بسيطة حسبما يقول جران ، والواقع أنها كذلك بالنسبة للناس جميعاً ، فالناس يتزوجون ويستمرون يحب بعضهم بعضاً ـــ شيئاً ما ـــ وينهمكون فى عملهم . إنهم ينهمكون فى عملهم إلى حد أن ينسوا الحب ، وكانت چان أيضا تعمل ، لأن رئيس المكتب لم يف بوعده ، وهنا لابد من شىء من الخيال لكى نفهم ما أراد جران أن يقوله ، فقد سار وراء عاداته ، وزاد صمتا على صمت ، وقد ساعده التعب على ذلك ، فلم يحاول أن يجعل زوجتـــه الشابة تستمر فى الاعتقاد أنها محبوبة ، ذلك أن انكباب الرجل على عمله ، والفقر ، والمستقبل الذى يغلق أبوابه ببطء ، وقضاء الأمسيات حول المائدة فى صمت ، كل ذلك من شأنه أن يخلق جواً لامجال فيه للعاطفة الملتهبة ، ومن المحتمل أن تكون چان قد قاست من ذلك ولكنها بقيت ، وقد يحدث أن يتعذب المرء طويلا دون أن يدرى . ومرت الأعوام ، وبعد ذلك ذهبت ، ولم

تذهب وحدها بطبيعة الحال : « لقد أحببتك فيما مضى ، أما الآن فقد تعبت . . . لست سعيدة لأنى أذهب ، ولكن ليس المرء فى حاجة لأن يكون سعيداً لكى يبدأ من جديد » هذا هو مجمل ما كتبته له .

وقد تعذب چوزيف جران بدوره. نعم ، كان فى مقدوره أن يبدأ من جديد ـ كما لاحظ ريو ـ ولكن الذى حدث هو أنه لم يعد يعتقد فى إمكان ذلك .

وكل ما فى الأمر أنه ظل يفكر فيها ، كان يود أن يكتب لها خطاباً ليبرر موقفه ، ولكن « كان هذا أمراً صعباً » على حد تعبيره ، إذ يقول: « إنى أفكر فى ذلك منذ وقت طويل ، فقد كنا ـ ونحن متحابان ـ يفهم بعضنا بعضا دون حاجة إلى كلام ، ولكن الإنسان لا يظل على حبه دائماً ، وقد جاءت لحظة معينة كان على فيها أن أعثر على الكلمات التى كان يمكن أن تبقيها ، ولكنى لم أستطع » . ومخط جران أنفه فى منشفة ذات مربعات، ثم جفف شاربه ، وريو لا ينفك عن النظر إليه . ثم قال العجوز :

ــ أرجو المعذرة يا دكتور ، ولكن كيف أعبر عن ذلك ؟

إنى أضع فيك ثقتى ، ومعك أستطيع أن أتكلم ، وحينئذ يطغى على التأثر .

وكان واضحاً أن جران يقف على بعد ألف فرسخ من الطاعون .

وفى المساء أبرق ريو إلى زوجته بأن المدينة مغلقة ، وأنه بخير ، وأنه يجب عليها أن تستمر فى العناية بنفسها ، وأنه يفكر فيها . وبعد ثلاثة أسابيع من إغلاق أبواب المدينة وجد ريو شاباً ينتظره عند خروجه من المستشفى، وقد بادره هذا الشاب بقوله :

ـــ إنى أفترض أنك تعرفنى .

وخيل إلى ريو أنه يعرفه حقاً ، ولكنه ظل متردداً ، فقال الآخر :

ـــ لقد جئتك قبل هذه الحوادث أطلب منك معلومات عن ظروف حياة العرب ، إن إسمى ريمون رامبير .

وقال ريو :

ـــ هذا صحيح ؛ وها أنت ذا الآن تجد أمامك موضوعاً لتحقيق صحفى جميل .

وكان الشاب يبدو متوتر الأعصاب ، فقال : إنه لم يأت لهذا الغرض ، بل ليطلب العون من الدكتور ريو ، وأضاف :

ـــ أرجو لمعذرة ، فأنا لا أعرف أحداً فى هذه المدينة ، ومن سوء الحظ أن مندوب جريدتى فيها رجل معتوه .

وعرض عليه ريو أن يسيرا سوياً إلى أحد المستوصفات فى وسط المدينة ، لأن لديه أوامر يريد أن يصدرها ، وهبطا أزقة حى الزنوج . وكان المساء قد اقترب ، ولكن المدينة ـــ التى كانت دائماً صاخبة فى مثل هذه الساعة ـــ كانت تبدو وحيدة بشكل يلفت النظر . وكانت الأصوات القليلة المنبعثة من أحد الأبواب العسكرية فى أرجاء هذه السماء الذهبية تشهد بأن العسكريين يتظاهرون بممارسة مهنتهم ؛ وفى تلك الأثناء كان رامبير يتكلم والاضطراب لايفارقه طيلة سيره مع ريو فى هذه الشوارع الوعرة ، تحيط به جدران المنازل المغربية ، الزرقاء ، والصدفية ، والبنفسجية ؛ ذلك أنه كان قد ترك زوجته فى باريس ، وفى الحقيقة أنها ليست زوجته ،

ولكن كلا الأمرين سواء ، لقد أبرق إليها منذ إغلاق المدينة ، ولكنه لما كان قد ظن أن الأمر ماهو إلا حادث مؤقت ، فقد فكر فى بادىء الأمر فى مجرد الكتابة إليها ، ولكن زملاءه فى وهران أفهموه أنهم لايستطيعون عمل شىء من أجله ، وأن مكتب البريد قد رد خطابه ، وقد ضحكت منه إحدى موظفات المديرية فى شىء من السخرية ، وكان كل ماوصل إليه ، بعد وقوفه ساعتين فى الصف ، أنهم قبلوا منه برقية قال فيها :

« كل شىء على مايرام . إلى اللقاء القريب » .

ولكنه لم يكد يستيقظ فى الصباح حتى طرأت فى رأسه فجأة فكرة ، أنه لايعرف كم من الوقت ستستمر هذه الحال ، ولذا قرر أن يرحل . ولما كان يحمل بعض التوصيات — فمهنته تمنحه الكثير من التسهيلات — فقد تمكن من الوصول إلى مدير مكتب المدير ، وقال له : إنه لاعلاقة له بوهران ، وليس مما يعنيه أن يبقى فيها ، وأنه كان قد وجد هنا بطريق المصادفة ، ومن العدل أن يسمحوا له بالرحيل ، ولو اضطر إلى أن يحجز فى الحجر الصحى بعد أن يصبح خارج المدينة . فقال له مدير المكتب : إنه يفهمه جيداً ، ولكنهم لايستطيعون أن يستثنوه ، وأنه سوف ينظر فى الأمر ، ولكن الموقف جد خطير على وجه العموم ، ولا يمكن اتخاذ أى قرار ، وقال رامبير :

— ولكنى غريب عن هذه المدينة .

— هذا لاشك فيه ، ولكن كل مانستطيعه هو أن نأمل ألا تطول مدة الوباء .

ولكى ينهى المدير حديثه معه ، حاول أن يواسيه بأن لفت نظره إلى أنه يستطيع أن يجد فى وهران مادة تحقيق صحفى طريف ، وأنه ما من حادث إلا وله ناحيته الطيبة ، وهز رامبير كتفيه باستخفاف .

وهنا كانا قد وصلا إلى وسط المدينة ، وواصل رامبير كلامه قائلا :

ــ هذه سخافة يادكتور ، أنت تفهم ذلك جيداً . فأنا لم أولد لكى أقوم بالتحقيقات الصحفية ، ولكن ربما كنت قد ولدت لكى أعيش مع امرأة ، فهل لم يكن هذا فى الحسبان ؟

وقال ريو : إن هذا على كل حال كلام معقول . ولم تكن شوارع وسط المدينة مزدحمة كما كانت من قبل ، كان هناك بعض المارة يحثون الخطى نحو مساكنهم النائية ، ولم يكن أحد يبتسم ، وقد ظن ريو أن ذلك لم يكن إلا نتيجة لإعلان « رانسدوك » الذى كان موعده هذا اليوم ، وقال فى نفسه : « بعد مرور ثمان وأربعين ساعة سوف يبدأ مواطنونا فى الأمل من جديد ، أما اليوم ، فالأرقام لا تزال طازجة فى ذاكرتهم .

وبدأ رامبير يقول دون مناسبة :

ــ المسألة أننا ــ هى وأنا ــ قد تقابلنا منذ فترة غير بعيدة ، ونحن جد متفاهمين .

ولم يقل ريو شيئاً ، وأردف رامبير يقول :

ــ يبدو أنى أضايقك ، ولكنى لم أرد أن أسألك إذا كنت تستطيع أن تعطينى شهادة تؤكد أنى لست مصاباً بهذا المرض المشئوم ، أعتقد أن هذا قد يفيدنى .

وأومأ ريو برأسه موافقاً . وفى هذه اللحظة كان غلام صغير قد ألقى بنفسه بين ساقيه ، فأوقفه بلطف على قدميه . ثم استأنفا السير حتى وصلا إلى ميدان الأسلحة . وكانت أغصان الأشجار وسعف النخيل تتدلى بلا حراك — فى لونها الأشهب من تراكم الغبار — حول تمثال للجمهورية علته الأتربة والأقذار . وتوقفا عند قاعدة التمثال ، وهنا ضرب ريو الأرض بقدميه الواحدة تلو الآخرى ؛ ليزيل عنهما الأتربة البيضاء العالقة بهما ، ثم نظر إلى رامبير الذى كانت قبعته مائلة إلى الخلف ، وياقة قميصه مفكوكة الأزرار تحت رباط عنقه ، ولحيته غير حليقة ، إن كل هيئته تدل على الغضب والغيظ ، وقال :

— تأكد أننى أفهمك جيداً ، ولكن طريقتك فى التفكير ليست سليمة ، فأنا لا أستطيع أن أكتب لك هذه الشهادة ؛ لأنى — فى الواقع — لا أدرى إذا كنت مصاباً بهذا المرض أم لا ، وحتى لو لم تكن مصاباً به ، فأنا لا أستطيع أن أجزم بأنك لن تلتقط العدوى فى اللحظة التى تنحصر بين خروجك من مكتبى ودخولك المديرية . . وحتى لو . .

وقال رامبير :

— حتى لو ماذا ؟

— حتى لو أعطيتك هذه الشهادة ، فلن تجديك شيئاً .

— لماذا ؟

— لأنه يوجد فى المدينة آلاف من الأشخاص الذين فى مثل حالتك ، ومع ذلك لا يمكن تركهم يخرجون .

— ولكن إذا لم يكونوا هم الآخرون مصابين بالطاعون ؟

— ليس هذا سبباً كافياً . نعم ، إنى أعرف أنها قصة سخيفة ، ولكنها تتعلق بنا جميعاً ، ويجب قبولها على علاتها .

— ولكنى لست من هذه المدينة .

— منذ الآن سوف تصبح — بكل أسف — من هذه المدينة كجميع من فيها .

وازداد انفعال أخينا ، وقال :

— إنها مسألة إنسانية ، أقسم لك على ذلك ، قد تكون لا تعرف معنى الفراق بالنسبة لشخصين متفاهمين .

ولم يجب ريو على الفور ، ثم قال : إنه يعتقد أنه يعرف معنى ذلك ، وأنه يود من كل قلبه أن يعود رامبير إلى امرأته ، وأن يجتمع شمل كل المحبين ، ولكن هناك عوائق وقوانين ، وهناك الطاعون ، وأنه ليس فى مقدوره إلا أن يعمل ما ينبغى عمله .

وقال رامبير :

— كلا ، لا يمكنك أن تفهم ذلك ؛ فأنت لا تتكلم إلا بلغة العقل ، إنك تعيش فى عالم المجردات .

ورفع الدكتور عينيه إلى تمثال الجمهورية ، ثم قال : إنه لا يدرى إذا كان يتكلم لغة العقل ، ولكنه يتكلم لغة الواقع المؤكد ، وكل من اللغتين تختلف عن الأخرى ، وأعاد الصحفى عقد رباط عنقه ، ثم قال :

— هل معنى ذلك أنه يجب على أن أتصرف بطريقة أخرى ؟

ثم أردف قائلا — بشيء من التحدى — :

— ولكنى سأغادر هذه المدينة .

وأجاب الطبيب مرة أخرى بأنه يفهمه جيداً ، ولكنه لا شأن له بذلك ، وهنا قال رامبير وقد انفجر بغتة :

— بل لك شأن به ، لقد أتيت إليك ، لأنهم قالوا لى إنك ساهمت بنصيب كبير فى الإجراءات التى اتخذت ، وظننت أنه فى مقدورك أن تحل — بالنسبة لحالة واحدة — ما ساهمت فى ربطه ، ولكن الأمر لا يهمك ، فأنت لا تفكر فى أحد ، ولم تعمل أى حساب لأولئك الذين عذبهم الفراق .

وأقر ريو أن هذا صحيح من إحدى نواحيه ، وأنه لم يشأ أن يدخل ذلك فى اعتباره ، وقال رامبير :

— آه ، أرى أنك تريد أن تتحدث عن المصلحة العامة ، ولكن الصالح العام يتكون من سعادة كل شخص على انفراد .

وقال الدكتور ، وكأنه أفاق من بعض الشرود :

— على رسلك ، فإلى جانب هذا توجد أشياء أخرى ، ولا ينبغى للمرء أن يسرف فى إصدار الأحكام ، وأنت غير محق فى غضبك ، وإذا استطعت أن تنجح فى حل هذه المشكلة ، كان ذلك مما يسعدنى ، وكل ما فى الأمر أن هناك أشياء يحرم على فعلها بحكم مهنتى .

وهز الآخر رأسه متململا ، وقال :

ـــ نعم ليس لى حق فى أن أغضب ، وهذا يكفى لأنى أضعت عليك الكثير من الوقت .

وطلب منه ريو أن يطلعه على نتائج محاولاته أولا فأول، وألا يحمل له أية موجدة ، إذ لا بد أن تكون هناك نقطة يستطيعان أن يلتقيا فيها ، وهنا بدأ القلق لجأة على رامبير ، وقال بعد فترة صمت :

ــ أعتقد ذلك ، نعم ! أعتقد ذلك على الرغم منى ، ومن كل ما قلت لى .

ثم بدا عليه التردد وهو يقول :

ــــ ولكنى لا أستطيع أن أقرك على رأيك .

وأنزل طرف قبعته على جبينه ، وانصرف بخطى سريعة .

ورآه ريو يدخل الفندق الذى يسكنه جان تارو .

وبعد لحظة هز الطبيب رأسه . . نعم ، امل الصحفى على حق فى تعجله فى العودة إلى السعادة ، ولكن هل كان على حق فى اتهامه ، ولاسيما حين قال له : « أنت تعيش فى عالم المجردات » ؟ هل تعتبر حقا من قبيل المجردات تلك الليالى التى أمضاها فى مستشفاه حيث تضاعف شره الطاعون، ورفع عدد الضحايا إلى خمسمائة فى الأسبوع ؟ نعم ، لقد كان هناك نصيب من المجردات ، والبعد عن الواقع فى تلك النكبة . ولكن إذا كانت المجردات قد أقبلت على قتلك ، فلن يكون لك مناص من أن تحسب لها حساباً . وكان ريو يعلم جيداً أن ذلك لم يكن أيسر ما فى الموضوع ، لم تكن حتى الأمور اليسيرة ـــ مثلا ـــ إدارة هذا المستشفى الإضافى

الذى كلفوه بإدارته (ويوجد الآن ثلاثة مستشفيات إضافية) . فقد أمر بإعداد غرفة استقبال فى قاعة تطل على قاعة الكشف ، وكان فى أرض هذه الغرفة تجويف امتلأ بالماء فتكونت فيه بحيرة صغيرة،أعد فى وسطها جزيرة صغيرة من الآجر . وكان المريض ينقل إلى الجزيرة ، ويجرد من ملابسه بسرعة ، وتلق ملابسه فى الماء ، وهنا يغسل وينشف ويغطى بقميص المستشفى الخشن ثم يعرض على ريو . وكان بعد ذلك ينقل إلى إحدى القاعات . وقد اضطروا إلى استخدام الفناء المسقوف فى إحدى المدارس، وهو الآن يحوى خمسمائة سرير تكاد كلها تكون مشغولة . وبعد استقبال الصباح — الذى يشرف عليه ريو بنفسه ، وبعد القيام بتطعيم المرضى وشق الأورام — كان يتحتم عليه أن يراجع الإحصائيات ، ثم يعود إلى استشارات ما بعد الظهر . أما فى المساء ، فكان يقوم بزياراته ، ثم يعود إلى منزله فى وقت متأخر من الليل ، وقد لاحظت أمه فى الليلة السابقة ، وهى تقدم له برقية من زوجته ، أن يديه ترتعدان ، فقال لها :

— نعم ، ولكن — بشىء من قوه الإرادة — سوف أتمكن من ضبط أعصابى أكثر من ذلك .

كان ريو قوى البنية شديد المقاومة ، ولم يكن فى الواقع قد أدركه التعب بعد ، ولكنه ضاق ذرعاً بهذه الزيارات التى كان يقوم بها ، فتشخيص الحمى الوبائية معناه حجز المريض بسرعة ، وهنا تبدأ المجردات والصعوبات الحقيقة ، لأن أسرة المريض تعلم أنها لن تراه إلا معافى أو ميتاً . وفى ذات مرة قالت السيدة لوريه — أمام الخادمة التى كانت تعمل فى فندق تارو — : «الشفقة يادكتور !» مامعنى ذلك؟ لاشك فى أنه يشعر بالشفقة،

ولكن هذا لم يكن ليفيد أحداً ، ذلك أنه يجب عليه أن يخطر تليفونياً عن وجود الحالة ، فيسمع بعد قليل رنين عربة الإسعاف . وفى أول الأمر كان الجيران يفتحون نوافذهم وينظرون . أما بعد ذلك ، فكانوا يحكمون إغلاقها ، وحينئذ تبدأ المقاومة والدموع ومحاولة الإقناع ، وباختصار تبدأ المجردات . وكانت تقع فى هذه البيوت — التى أنهكتها حرارة الحمى والقلق — بعض المشاهد الجنونية ، وكان المريض ينتهى رغم ذلك بأن ينقل ، وبعد ذلك يستطيع ريو أن ينصرف .

وفى أول الأمر كان يكتفى بالإخطار التليفونى ، ثم يسرع بالذهاب لعيادة مرضى آخرين دون أن ينتظر سيارة الإسعاف . ولكن كان يحدث أن يغلق أهل المريض الأبواب ، ويفضلوا الحياة على انفراد مع الطاعون على فراق أصبحوا يعرفون الآن جيداً نهايته . وعندئذ كان يقوم الصراخ والأوامر وتدخل الشرطة ، وفيما بعد كان يؤدى الأمر إلى استخدام القوات المسلحة، ثم فى نهاية الأمر يؤخذ المريض عنوة ؛ ولذلك كان يضطر ريو فى الأسابيع الأولى إلى المكوث حتى حضور سيارة الإسعاف ، وبعد ذلك أصبح من الضرورى أن يصحب كل طبيب مفتش متطوع ، ومن ثم يتمكن ريو من أن يسرع من مريض إلى آخر ، ولكن فى البداية كانت كل الأمسيات تنقضى على نحو ذلك المساء الذى دخل فيه عند السيدة لوريه فى جناحها الصغير المزدان بالمراوح والزهور الصناعية، فقد استقبلته الام وهى تقول بابتسامة لم تحسن تكلفها :

— أتعشم ألا تكون تلك الحمى التى يتحدث عنها الجميع .

أما هو فقد رفع الغطاء والقميص ، وراح يتأمل البقع الحمراء على البطن والفخذين ، والتهاب العقد ، وكانت الأم تنظر بين ساقى

ابنتها وهى تصرخ دون أن تتمكن من السيطرة على نفسها . نعم فى كل مساء كانت هناك أمهات يصرخن هكذا ، وعليهن سيماء الذهول أمام بطون ظهرت أمامهن بكل ما تحمل من أعراض مميتة . فى كل مساء كانت هناك أذرع تتعلق بذراعى ريو ، وكلام كثير لا فائدة منه ، ووعود ، ودموع غزيرة تذرف ، وفى كل مساء كان يتسبب رنين جرس سيارة الإسعاف فى أزمات لا طائل من ورائها ، ولكنها لا تكف عن الاشتعال ، وفى نهاية هذه السلسلة الطويلة من الأمسيات المتشابهة ، لم يكن لريو أن يتوقع غير سلسلة طويلة من المشاهد المتشابهة تتجدد بلا نهاية ، نعم فقد كان الطاعون — كالمجردات — رتيب النغم ، وربما لم يكن هناك سوى شىء واحد يتغير ، وهو ريو نفسه . لقد أحس بذلك هذا المساء ، وهو عند قاعدة تمثال الجمهورية غير شاعر بشىء سوى عدم الاكتراث العسير الذى بدأ يملأه ، وقد راح ينظر باستمرار إلى باب الفندق الذى اختفى فيه رامبير .

وفى نهاية تلك الأسابيع المزعجة ، بعد كل هذه الأماسى — التى كانت تفرغ فيها المدينة سكانها لكى يلفوا ويدوروا فى الشوارع — فهم ريو أنه ليس له أن يدافع عن نفسه فى اتهامه بعدم الشفقة ، فالمرء يتعب من الشفقة عندما تصبح غير ذات جدوى .

وعندما شعر الدكتور بقلبه يغلق من دونه أبوابه شيئاً فشيئاً، وجد فى ذلك الشفاء الوحيد من ثقل تلك الأيام المضنية ، فقد أدرك أن مهمته أسهل من ذى قبل ، ولذلك شعر بالارتياح ، وكانت أمه عندما تستقبله فى الثانية صباحاً تفزع لتلك النظرة الخاوية التى يلقيها عليها ، ومعنى ذلك

أنه قد ساءتها تلك الراحة الوحيدة التى كان من الممكن أن يحصل عليها ؛
ذلك أننا لكى نقاوم المجردات يجب علينا أن نتشبه بها بعض الشىء .
ولكن أنى لرامبير أن يحس ذلك ؟ فالمجرد لم يكن بالنسبة له إلا كل
ما يقف حجر عثرة فى سبيل سعادته . وفى الحقيقة كان ريو يعلم أن
الصحفى على حق — إذا نظرنا للأمر على نحو ما — ولكنه كان يعرف
أيضاً أن المعانى المجردة قد تبدو أحياناً فى صورة أقوى من السعادة ،
وحينئذ — حينئذ فقط — يجب أن يعمل له حسابه ، وهذا ما كان
لابد أن يحدث لرامبير . وقد عرف ريو ذلك بالتفصيل عندما قص
عليه رامبير ما فى نفسه فيما بعد ؛ وهكذا تمكن الدكتور من أن يتابع
— بطريقة جديدة — هذا النوع من الكفاح الواجم بين سعادة كل
شخص ومجردات الطاعون ، هذا الكفاح الذى انحصرت فيه حياة المدينة
بأسرها خلال تلك الفترة الطويلة .

ولكن ما قد يراه البعض معنى مجرداً قد يراه البعض الآخر أمراً حقيقياً ؛ فقد كانت نهاية الشهر الأول للوباء نهاية مظلمة بسبب ازدياد حدة الوباء زيادة ملحوظة ، وبسبب المواعظ العنيفة التى دأب على إلقائها الأب پانلو اليسوعى الذى كان قد أخذ بيد ميشيل العجوز فى بداية مرضه . وكان الأب پانلو ذائع الصيت بسبب اشتراكه فى مجلة الجمعية الجغرافية بوهران ؛ إذ أنه كان حجة فى فك طلاسم النقوش ، ولكن سلسلة المحاضرات التى ألقاها عن « الفردية الحديثة » جلبت له جمهوراً أكبر مما كان يجلب له موضوع تخصصه ، وقد دافع پانلو فى هذه المحاضرات بحرارة عن المسيحية من وجهة نظر منطقية من شأنها أن تنأى عن الإباحية الحديثة بقدر ما تنأى عن معميات القرون الماضية ، وفى هذه المناسبة لم يأل جهداً فى إطلاع مستمعيه على الحقائق المرة ، ومن هنا كانت شهرته .

وعندما قارب هذا الشهر نهايته قررت السلطات الدينية فى المدينة مقاومة الطاعون بوسائلها الخاصة ، وذلك بتخصيص أسبوع للصلوات الجماعية ، وقد اختتمت هذه المهرجانات الدينية العامة فى يوم أحد بقداس مهيب تحت رعاية القديس سان روش الذى مات بالطاعون . وبهذه المناسبة طلب من الأب پانلو أن يلقى كلمة ، وكان هذا الأخير قد اضطر مرغماً — طيلة الأيام الخمسة عشر السابقة — إلى ترك دراساته عن القديس

أوغسطين والكنيسة الإفريقية التي جعلت له مكانا مرموقا فى نظامها .
ولما كان پانلو ذا طبيعة مندفعة حامية ، فقد قبل تلك الرسالة التي كلف بها
بكثير من العزم والتصميم . وقد ظل الناس يتحدثون عن هذه الخطبة
الوعظية وقتا طويلا قبل موعدها . والواقع أنها تسجل ، على طريقتها ،
تاريخاً خاصاً فى هذه الفترة من قصة الوباء .

وقد كان إقبال الناس على أسبوع الصلاة هذا كبيراً ولم يكن هذا
لأن سكان وهران كانوا يتميزون فى أوقاتهم العادية بالتقوى والورع .
فإن حمامات البحر كانت تنافس القداس فى صبيحة الأحد منافسة قوية ،
ولم يكن هذا أيضاً لأن الناس قد رجعوا فجأة إلى دينهم ، ولكنه كان
يرجع من جهة إلى إغلاق المدينة ، وحظر دخول الميناء مما منع حمامات
البحر ، ومن جهة أخرى إلى أن الناس كانوا فى حالة ذهنية خاصة
شعروا فيها جيداً بأن شيئاً هاماً قد تغير تغيراً لاشك فيه ، وإن لم
يكونوا قد تقبلوا تلك الأحداث المذهلة التي حلت بهم قبولا حسنا
ومن أعماق نفوسهم . ومع ذلك فقد ظل الكثيرون يأملون فى أن
يتوقف الوباء وأن ينجوا منه هم وذووهم . ومن ثم فإنهم لم يكونوا قد
شعروا بعد بأنهم مدينون بشيء . لم يكن الطاعون بالنسبة لهم سوى
زائر ثقيل لابد أن يرحل يوما من الأيام كما جاء . نعم ، إنهم كانوا
خائفين ولكنهم لم يكونوا يائسين ؛ ولم تكن قد حلت بعد اللحظة
التي سيبدو لهم فيها الطاعون كما لو كان هيكل حياتهم نفسها ، فينسيهم
طريقة حياتهم التي ساروا عليها حتى الآن . وقصارى القول أنهم كانوا
فى حالة انتظار . أما بالنسبة للدين كما بالنسبة لكثير من المشاكل

الأخرى ، فإن الطاعون كان قد كيف عقولهم تكييفاً غريباً ، فباعد بينهم وبين عدم الاكتراث بقدر ما باعد بينهم وبين التحمس ، تكيفاً يمكن تحديده تحديداً لا بأس به بكلمة « الموضوعية ». وكان فى وسع أغلبية الذين تتبعوا أسبوع الصلوات أن يتبنوا الدعوى التى عرضها أحد المتدينين أمام الدكتور ريو ، والتى تنبنى على الفكرة القائلة : « مهما يكن من شىء ، فإنه لا يمكن أن ينتج عن ذلك أى ضرر » . وإن تارو نفسه الذى كان قد دون فى مفكرته أن من عادة الصينيين فى مثل هذه الحالة أن يدقوا الطبول أمام عفريتة الطاعون ، عاد فلاحظ أنه من المستحيل أن نعرف ، فى الحقيقة ، أيهما أجدى وأنفع . دقات الطبول أم الإجراءات الوقائية . وأضاف أنه يجب ، لكى نقطع فى الموضوع برأى ، أن تكون لدينا معلومات عما إذا كانت عفريتة الطاعون موجودة حقا أم لا ، وإن جهلنا بهذه النقطة يضرب على كل آرائنا فى هذا الموضوع بالعقم .

ومهما يكن من شىء فقد غصت كاتدرائية مدينتنا بالمؤمنين طوال هذا الأسبوع . ففى الأيام الأولى كان الكثيرون من السكان يفضلون البقاء فى حدائق النخيل والرمان التى تمتد أمام المدخل ليستمعوا إلى تلك الأمواج الدافقة من الابتهالات والأدعية التى كانت تصل إلى الشوارع . ثم اقتفوا أثر الآخرين شيئاً فشيئاً ، وقرروا الدخول ، وأخذوا يخلطون أصواتهم فى خجل بأصوات الحاضرين لترديد الأدعية . وفى يوم الأحد احتل جمهور كبير قاعة الكنيسة ، وامتد حتى الميدان الخارجى والدرجات الأخيرة من السلم ، وكانت السماء قد اكفهرت منذ الليلة الماضية ، وهطل المطر مدراراً ، فنشر الذين بقوا فى الخارج مظلاتهم ، وانتشرت رائحة

البخور ، مختلطة برائحة الأثواب المبتلة فى الكاتدرائية التى اعتلى الأب پانلو منبرها .

كان متوسط الطول ولكنه كان بدينا ، وعندما استند على حافة المنبر ، وقبض بيديه الكبيرتين على خشبها لم يكن يرى منه سوى هيكل أسود سميك تعلوه بقعتان هما خداه المحمران تحت نظارته المصنوعة من الصلب . كان صوته جهوريا يشتعل بالحماس ، ويصل إلى مدى بعيد . وعندما انهال على مستمعيه بتلك الجملة الوحيدة العنيفة المتقطعة النبرات « إخوتى ، ها أنتم أولاء ترزحون فى التعاسة ، أخوتى إنكم تستحقونها » سرت فى الحضور همهمة امتد سريانها حتى الباب الكبير .

أما ماتلا ذلك من الخطبة ، فلم يكن من الناحية المنطقية يتصل بهذه المقدمة المؤثرة ، ولكن نهاية الخطاب هى وحدها التى أفهمت مواطنينا أن الأب پانلو لجأ إلى وجه لبق من أوجه الخطابة ، فأوضح موضوع وعظه بأجمعه فى كلمة واحدة ، كما لو كان يصوب إحدى الضربات ، وبعد تلك الجملة مباشرة استشهد پانلو بنص التوراة الخاص بالطاعون فى مصر فقال : « كانت أول مرة ظهر فيها هذا الوباء فى التاريخ لمحاربة أعداء الله ، فقد وقف فرعون فى وجه الإرادة الخالدة ، فاضطره الطاعون إلى أن يجثو على ركبتيه ، ومنذ بداية كل تاريخ كان الوباء يضطر المختالين والمتعامين إلى أن يركعوا على ركبهم ، فكروا فى ذلك جيدا ، وخروا ساجدين » .

وكان المطر يزداد انهماراً فى الخارج عندما نطق القس بهذه الجملة وسط السكون المطلق ، فكان وقعها أشد وأقوى وسط دقات المطر على لوحات القسيفساء . لقد كان لها رنين جعل بعض المستمعين ينزلقون — بعد قليل من التردد — من مقاعدهم إلى كراسى الركوع ، وظن الآخرون أن من واجبهم أن يحذوا حذوهم ، وبدون أن تحدث أية ضجة — سوى صوت بعض المقاعد وهى تتخبط — وجد جميع الحضور أنفسهم وقد جثوا على ركبهم ، وهنا رفع بانلو هامته ، وأخذ نفساً عميقاً ، ثم استأنف خطابه بلهجة تزداد نبراتهـا وضوحاً ، فقال : « إذا كان الطاعون يوجه إليكم أنظاره اليوم ، فما ذلك إلا لأن وقت التفكير قد حان ، والصالحون لا يخشون ذلك ، أما الشريرون فلهم أن يرتعدوا فرقا ، فالعالم الآن بمثابة خزانة هائلة للغلال ، ولسوف يضرب الطاعون القمح البشرى حتى يفصل منه القش عن الحب ، وسيكون القش أكثر من الحب ، وعدد الذين يدعوهم إليه أكثر من عدد الناجين . إن الله لم يرد هذا الشر بالناس ؛ فإن هذا العالم طالما أوضع فى الشر معتمداً على رحمة الله ، كان الناس يسمحون لأنفسهم بارتكاب كل شىء ، ثم يكتفون بالندم وطلب المغفرة ، وكان الجميع يشعرون بالقدرة على الندم وطلب الغفران ، وكانوا لا يتكلمون عنه إلا إذا جاء أوانه ، أما قبل هذا الأوان ، فقد كان من اليسير عليهم أن ينساقوا وراء شهواتهم ، تاركين لرحمة الله تدبير ما بعد ذلك ، ولكن لم يكن من الممكن أن تستمر هذه الحال ، فالله الذى أطل على الناس فى هذه المدينة بوجه هو الشفقة بعينها قد مل الانتظار ، وصدم فى أمله الخالد ،

وأشاح عنهم بوجهه ، وها نحن أولاء ، بعد أن حرمنا من النور الإلهي، نتخبط — ولوقت طويل — في دياجير الطاعون » .

وهنا أخذ أحد الحاضرين يصهل من الهلع كحصان نفد صبره، وبعد لحظة صمت قصيرة استأنف الأب كلامه بصوت أكثر انخفاضاً ، فقال : « نقرأ في الأسطورة الذهبية » أنه حدث في زمن الملك همبرت في لارديا أن اجتاح إيطاليا طاعون عنيف إلى حد جعل الأحياء لا يكادون يكفون لدفن الموتى ، وقد استقر هذا الطاعون بصفة خاصة في روما وبافي ، وقد رأى الناس رأي العين ملكا خيراً يصدر الأوامر للملاك الشرير — الذي كان ممسكا بصولجان صيد — ويأمره بأن يدق على المنازل، وكان عدد الموتى الذين خرجوا من كل منزل يعادل عدد الدقات التي أصابته .

وكان بانلو في هذا الوقت يمد ذراعيه في اتجاه الباب الكبير كما لو كان يريد أن يرى الناس شيئاً من خلف الستار المهتز من وقع المطر ، ثم قال بصوت قوي : « إخوتي ، إنه نفس الصيد القاتل الذي يحدث الآن في شوارعنا ، انظروا إلى ملك الطاعون هذا ، إنه جميل جمال الشيطان وله بريق كبريق الشر نفسه ، وقد وقف فوق أسطح منازلكم ، وأمسك بيده اليمنى العصا الحمراء ، ورفعها حتى مستوى الرأس ، في حين أن يده اليسرى تشير إلى أحد منازلكم ، وقد تكون أصبعه في هذه اللحظة تشير إلى بابكم ، وعصاه تدق على خشب الباب ، في هذه اللحظة أيضاً يدخل الطاعون بيتكم ، ويجلس في غرفتكم منتظراً أوبتكم . إنه هناك ،

ينتظر فى صبر وأناة وهو واثق من نفسه وثوق هذا العالم من نظامه ، وهذه اليد التى يمدها إليكم ، اعلموا جيداً أنه لاتوجد فى الأرض ولافى العلوم البشرية التافهة قوة تستطيع أن تجعلكم بمنجاة منها ، وهكذا سوف يضربكم الطاعون كما يضرب القمح على جرن الألم الملطخ بالدماء ، ثم يلقى بكم مع القش » .

ثم تابع الأب — بمزيد من الإيضاح والتفصيل — وصف تلك الصورة المؤثرة للوباء ، فصور قطعة الخشب الهائلة التى تلف وتدور فوق المدينة تخبط خبط عشواء ، ثم ترتفع ثانية وقد لطختها الدماء ، وتستمر تبعثر الدم والألم البشرى من أجل « بذر ينتهى بحصاد الحقيقة » .

وفى نهاية جملته الطويلة توقف — الأب بانلو — وقد تدلى شعره فوق جبينه ، وسرت فى جسمه رعدة نقلتها يداه إلى المنضدة التى أمامه ، ثم استأنف بصوت أكثر احتباساً ولكن بلهجة الاتهام ، فقال : « نعم ، لقد حانت ساعة التفكير ، لقد ظننتم أنه يكفى أن تزوروا الله يوم الأحد ، ثم بعد ذلك تصبحون أحرار التصرف فى كل أيامكم ، لقد ظننتم أنه يكتفى منكم ببعض ثنيات من ركبكم ثمناً لإثم عدم المبالاة ، ولكن الله لا يتهاون ، فهذه الاتصالات المتباعدة لا يمكن أن تشبع حنانه النهم . لقد كان يريد أن يراكم وقتاً أطول ، تلك هى طريقته فى حبكم وتلك — فى حقيقة الأمر — هى الطريقة الوحيدة للحب ، ومن ثم فقد مل انتظار أوبتكم ، وترك الوباء يزوركم كما زار كل المدن الآثمة منذ كان للناس تاريخ ، وها أنتم الآن قد عرفتم معنى الخطيئة كما عرفها قابيل وأبناؤه ،

وكما عرفها من كانوا قبل الطوفان ،وكما عرفها قوم لوط ،وكما عرفها فرعون وأيوب ، وكل من وجبت عليهم اللعنة .

وسيحدث لكم ما حدث لهؤلاء جميعاً ، ستنظرون إلى المخلوقات والأشياء نظرة جديدة ابتداء من ذلك اليوم الذى أغلقت فيه هذه المدينة أبوابها عليكم وعلى الوباء ، إنكم تعرفون الآن — وفى نهاية الأمر — أنه يجب الرجوع إلى ما هو جوهرى .

وفى تلك اللحظة هبت ريح رطبة على صحن الكنيسة ، وأخذت نيران الشموع تتمايل وتحدث أزيزا ، ووصلت رائحة الشمع القوية . وأصوات السعال والعطش إلى الأب بانلو الذى عاد إلى عرضه بلباقة استحوذت على إعجاب الناس ، فقال بصوت هادىء : «أعرف أن الكثيرين منكم يتساءلون بحق إلى أين أريد أن أصل بكم ؟ أريد أن أصل بكم إلى الحقيقة ، وأعلمكم أن تبتهجوا رغم كل ما قلت ، فقد مضى الوقت الذى كانت فيه النصائح والعون الأخوى هما الوسيلة لدفعكم إلى الخير. أما اليوم، فالحقيقة أمر يصدر إليكم، وطريق الخلاص هو العصا الحمراء التى ترشدكم إليها وتدفعكم إليها . وهنا ، أيها الإخوة ، تتجلى رحمه الله التى وضعت فى كل شىء الخير والشر ، الغضب والشفقة ، الطاعون والخلاص ، فهذا الوباء نفسه الذى يدمى قلوبكم الآن هو الذى سيسمو بكم ، ويريكم الطريق .

« منذ زمن طويل كان مسيحيو الحبشة يرون فى الطاعون وسيلة فعالة مرسلة من الله للوصول إلى الخلود ، فكان من لم يصب منهم يلف نفسه بأغطية المصابين لكى ينتهى بالموت على وجه التحقيق ، ولا شك فى أنه

لا يوصى أحد بهذا الغلو فى سبيل الخلاص ، فهو يدل على اندفاع مؤسف يقرب إلى حد كبير من الغرور . فلا ينبغى أن نكون أكثر تعجلا من الله ، وكل ما يشتم منه استعجال النظام الثابت الذى وضعه سبحانه منذ الأزل ليظل إلى الأبد لا يؤدى إلا إلى الكفر . ولكن هذا المثل يقدم لنا درساً نافعاً ، فهو يجسم أمام عقولنا المستنيرة نور الخلد الهنىء الذى يكمن فى كل ألم ، فهذا النور هو الذى يضىء الطريق الغاسقة التى تقود إلى الخلاص ، وهو الذى يظهر إرادة السماء واضحة جلية ، تلك الإرادة التى تحول الشر إلى خير فى غير ما ضعف أو وهن ، وهو أيضاً الذى يقودنا اليوم خلال طريق الموت والقلق وصيحات الهلع نحو السكون الضرورى ونحو جوهر كل حياة . هذا أيها الإخوة هو العزاء الأكبر الذى أردت أن أوجهه إليكم حتى لا يكون حديث العقاب هو كل ما تحملون معكم من هنا ، وحتى يتأتى لكم أيضاً بعض الحديث المطمئن » .

وهنا أحس الناس أن حديث پانلو قد انتهى ، وكان المطر فى الخارج قد كف عن الهطول ، وأخذت السماء التى اختلط فيها المطر بالشمس ترسل إلى المكان نوراً أكثر شباباً وقوة ، وتصاعد من الشارع ضجيج الأصوات ، وانزلاق العربات ، وكل ما تحويه لغة مدينة تستيقظ . وأخذ المستمعون يجمعون أشياءهم فى رفق محدثين شيئاً من الضوضاء المكتومة ، ولكن الأب پانلو استأنف كلامه ، وقال : إنه ينهى خطابه بعد أن بين المصدر الإلهى للطاعون ، وما له من صفة العقاب ، وأنه لن يلجأ فى ختام كلامه إلى بلاغة قد لا تكون فى موضعها ؛ إذ أنها تتعلق بأمر محزن ، وقد بدا له أن الأمر أصبح واضحاً للجميع ، ولكنه

أراد — فقط — أن يذكرهم بأن المؤرخ متى ماريه قد اشتكى — بمناسبة طاعون مارسيليا الكبير — من أنه قد انغمس فى الجحيم ، وعاش هكذا دون معونة ولا أمل . حسن ! لقد كان متى مارية أعمى ! أما الأب بانلو ، فعلى العكس من ذلك ، لم يشعر بمعونة السماء ، ولا بالأمل المسيحى اللذين منحهما الله للجميع كما شعر بهما اليوم ، وراح يرجو المواطنين — فوق كل رجاء ، ورغم بشاعة هذه الأيام ، وما امتلأت به من صيحات المحتضرين — أن يوجهوا إلى السماء الكلمة المسيحية الوحيدة ، كلمة الحب ، أما ما تبقى فالله وحده كفيل به .

هل كان لهذا الوعظ تأثير على مواطنينا ؟ من الصعب تحديد ذلك ، أما السيد أوتون — قاضى التحقيق — فقد قال للدكتور ريو : إن الحجج التى قدمها الأب بانلو فى خطابه لا يمكن تفنيدها ، ولكن غيره من الناس لم يكن لهم رأى واضح هذه الدرجة من الوضوح ؛ فكل ما فى الأمر أن الخطبة قد قربت إلى قلوب البعض تلك الفكرة التى كانت لا تزال غامضة ، وهى أنهم مقضى عليهم بسجن لا يمكن تصور مداه من أجل جريمة غير معروفة ؛ وإذا كان البعض قد استمروا فى حياتهم البسيطة ، وتكيفوا بحياة المعزل ، فقد ظل البعض الآخر — على العكس من ذلك — لا يفكر إلا فى الهرب من هذا السجن .

فقد كان الناس قد قبلوا — فى أول الأمر — أن تنقطع صلتهم بالخارج كما يقبلون أية مضايقة مؤقتة لا تعرقل إلا بعضا من عاداتهم ، ولكنهم — فجأة — تنبهوا إلى هذا النوع من الحجر تحت سماء بدأ صيفها يلفحهم بحره ، وحينئذ تولد عندهم شعور غامض بأن هذا السجن الضيق يهدد حياتهم بأجمعها ، فكانوا إذا ما حل المساء انغمسوا فى بعض الأعمال اليائسة تحت تأثير النشاط الذى كان يبعثه فيهم نسيم الليل البارد .

وقد حدث أول ما حدث أن أخذت المدينة ابتداء من هذا الأحد — ولا ندرى إذا كان ذلك لمجرد المصادفة أم لا — يعمها كلها تقريبا

نوع من الخوف بلغ من العمق حداً يجعلنا نظن أن مواطنينا قد بدءوا حقا يتنبهون إلى خطورة وضعهم ، وقد أدى هذا الشعور إلى شيء من التغير فى جو مدينتنا ، ولكن أكان التغير فى الجو أم فى القلوب ؟ هذه هى المسألة .

وبعد الوعظ بأيام قلائل ، بينما كان ريو يعلق على هذا الحدث مع جران ، وهما فى طريقهما ليلا نحو بعض الأحياء الخارجية ، اصطدم ريو بشخص يترنح أمامهما دون أن يحاول التقدم ، وتصادف فى هذه اللحظة أن ازداد ضوء مصابيح الشوارع التى كانت تضاء فى وقت يزداد كل يوم تأخراً ، وفجأة أرسل المصباح الأعلى الموضوع خلفها شعاعة ، فغمر الرجل بالضوء . لقد كان الرجل يضحك فى صمت تام وهو مغمض العينين ، وكان العرق يتصبب على وجهه الأبيض الشاحب فى قطرات كبيرة ، وقد تقلص وجهه بسبب هذه الموجة من الضحك الصامت ، وواصل ريو وجران سيرهما ، فقال هذا الاخير :

— إنه مجنون .

وكان ريو قد أمسك بذراع جران ليحثه على السير ، فشعر برعدة عصبية تسرى فى أوصال هذا الموظف ، فقال له :

— بعد قليل لن يكون بين ظهرانينا سوى مجانين .

وشعر ريو بجفاف حلقه الذى ساعد عليه التعب ، فقال :

— هيا نشرب شيئاً .

ودخلا مقهى صغيرا يضيئه مصباح واحد وضع فوق العداد ، فوجدا الناس يتحدثون بصوت منخفض ، دون سبب ظاهر ، وسط

هذا الهواء الكثيف المائل للحمرة ، واشد ما دهش الطبيب حينما رأى جران يطلب مشروبا روحيا ويشربه دفعه واحدة ، ويقول : إنه مشروب قوى ، ثم يرغب بعد ذلك فى الخروج ، وفى الخارج بدا لريو كما لو كان الليل مليئا بالأنين . وقد قرع مسمعه نوع من الصفير منبعث من مكان ما من السماء الحالكة فوق المصابيح ، فذكره ذلك بالوباء الخفى الذى كان يهز الهواء الساحق هذا لا يعرف الكلال .

وهنا قال جران :

ـــ من حسن الحظ ، من حسن الحظ :

وسأله ريو عما يقصد بذلك ، فقال :

ـــ من حسن الحظ أن لدى عمل .

وقال ريو :

ـــ نعم ، هذه ميزة .

ولكى يكف عن الإصغاء إلى هذا الصفير ، سأل جران عما إذا كان راضيا عن عمله .

ـــ نعم ، أعتقد أنى أسير فى الطريق الصحيح .

ـــ ألا يزال أمامك وقت طويل لإتمامه ؟

وبدا على جران الاهتمام ، وسرت حرارة الشراب فى صوته ، وهو يقول :

ـــ لا أدرى ، ولكن ليست هذه هى المسألة يا دكتور ، كلا ليست هذه هى المسألة .

وخيل إلى ريو فى الظلمة الحالكة أن جران يهز ذراعيه ، ويبدو عليه أنه كان يعد شيئاً فى ذهنه ، وقد انطلق به لجأة وبغزارة .

ـــ إن ما أريده يا دكتور هو أنه عندما يصل المخطوط إلى الناشر يهب واقفا بعد قراءته ، ويقول لمعاونيه : « أيها السادة أرفعوا قبعاتكم »

ودهش ريو لهذا الاعتراف المفاجيء ، وخيل إليه أن رفيقه قد قام بحركة نزع القبعة ، فرفع يده إلى رأسه ، ومدذراعه فى وضع أفقى ، وهنا بدا الصفير الغريب ، وكأنه قد بدأ من جديد بمزيد من القوة ، واستمر جران يقول :

ـــ نعم ، ينبغى أن يبلغ درجة الكمال .

وبالرغم من أن الدكتور ريو كان يجهل وسائل أهل الأدب وعاداتهم ، فقد خيل إليه أن الأمور لا تمر بهذه البساطة ، وأن الناشرين فى مكاتبهم مثلا ، يعملون حاسرى الرءوس ، ولكن لما لم يكن من الممكن الجزم بذلك ، فقد فضل ريو أن يظل صامتا ، وراح على الرغم منه يرهف سمعه لهمهمات الطاعون الغامضه ، واقتربا من الحى الذى يسكنه جران ، ولما كان هذا الحى مرتفعاً بعض الشيء فقد كانت تهب عليه نسمات خفيفة أنعشتهما ، وفى الوقت نفسه خلت المدينة من ضوضائها . واستمر جران مع ذلك يتكلم دون أن يفهم ريو كل ما كان يقوله له هذا الرجل الطيب ، كل ما فهمه أن المؤلف المذكور أصبح يتكون من صفحات كثيرة ، ولكن كاتبه كان لا يزال يبذل جهداً مضنيا ليصل به إلى درجة الكمال . « إنى أقضى ليالى وأسابيع طوالا أبحثه

عن كلمة . . . وأحياناً عن مجرد أداة وصل » . وهنا توقف جران ، وأمسك الطبيب من أحد أزرار معطفه ، وأخذت الكلمات تخرج متعثرة من فمه الأدرد وهو يقول :

ـــ أرجو أن تفهم هذا جيداً يا دكتور ، فقد يكون من السهل المفاضلة بين « لكن » و « و » ولكن من الصعب أن تفاضل بين « و » و « ثم » ويزداد الأمر صعوبة إذا كانت المفاضلة بين « ثم » و « بعد ذلك » . ولكن ما هو أشد من كل هذا تعقيداً ـــ بلا شك ـــ هو معرفة ما إذا كان يجب استعمال « و » أم لا يجوز .

وقال ريو :

ـــ نعم أفهم ذلك .

وواصل سيره . أما جران ، فكان بادى الاضطراب ، ثم رجع إلى طبيعته من جديد ، وتمتم قائلا :

ـــ أرجو المعذرة ، فلست أدرى ماذا دهانى هذا المساء !

وربت ريو بلطف على كتفه ، وقال : إنه يود مساعدته . وإن قصته تهمه كثيراً ، فعاد الاطمئنان إلى قلبه ، ولما وصل إلى باب منزله تردد قليلا ، ثم عرض على الطبيب أن يصعد معه لحظة ، وقبل ريو تلك الدعوة .

وفى غرفة المائدة دعاه جران إلى الجلوس أمام منضدة مغطاة بأوراق مليئة بالشطب ، ومكتوبة بخط دقيق تحتاج قراءته إلى مجهر ، وقال للطبيب الذى وجه إليه نظرة متسائلة :

— نعم هذا هو ، ولكن هل لك فى شىء من الشراب ؟ إن لدى القليل من النبيذ .

ورفض ريو ، وظل ينظر إلى الأوراق .

فقال جران :

— لا تنظر إليها ، إنها أول جملة أكتبها ، إنها ترهقنى كثيراً ، كثيراً جداً .

وكان هو أيضاً لا يكف عن تأمل كل هذه الأوراق ، ويبدو أن يده لم تستطع مقاومة إغراء إحدى هذه الصفحات ، فرفعها أمام مصباح المكتب الذى لا غطاء له ، وكانت الورقة ترتعد فى يده ، ولاحظ ريو أن جبين هذا الموظف قد تندى بالعرق ، وقال له :

— إجلس ، واقرأها لى !

فنظر إليه جران مبتسما بشىء من الاعتراف بالجميل ، وقال :

— نعم ، أعتقد أنى أود ذلك .

وتمهل قليلا وهو يواصل النظر إلى الورقة ، ثم جلس .

وفى نفس هذا الوقت كان ريو يسمع نوعاً من الطنين الغامض الذى يشبه أن يكون رداً على صفير الوباء فى المدينة .

وفى تلك اللحظة بالذات تمثلت أمامه بوضوح صورة المدينة التى تمتد تحت قدميه،وصورة العالم المغلق الذى تكونه،وصورة الصيحات المروعة التى تكبتها فى ظلام الليل ، وارتفع صوت جران مكتوماً وهو يقرأ :
« فى صباح جميل من أيام شهر مايو ، كانت هناك فارسة جميلة تمتطى فرساً

حمراء ، وتجوب بها شعاب غابة بولونيا المزهرة ، وهنا عاد الصمت ، وعاد معه طنين المدينة المعذبة ، وأعاد جران وضع الورقة على المنضدة ، واستمر يتأملها ، وبعد لحظة رفع عينيه وقال :

— ما رأيك ؟

وأجاب ريو بأن هذه البداية قد أثارت عنده الاستطلاع لمعرفة البقية ، ولكن جران قال : إن وجهة النظر هذه ليست هي الوجهة الجيدة ، ثم ضرب الأوراق براحة يده ، واستمر يقول :

— ليس هذا إلا تعبيراً تقريبياً ، وعندما أصل إلى التعبير التام عن اللوحة التي كونتها في مخيلتي ، وعندما تصبح جملتي صورة طبق الأصل من هذا السير الخبب : واحد — اثنان — ثلاثة — واحد — اثنان — ثلاثة — ، حينئذ يسهل إتمام الباقي لا سيما وأن الخداع سيكون شديداً منذ البداية إلى حد أنه يمكن أن يقال : « ارفعوا قبعاتكم » .

ولكن إذا كان المؤلف يصر على الوصول إلى هذه الدرجة ، فإنه لا يزال أمام الخباز الكثير من العجين الذي يتطلب النضج ؛ ذلك أنه لن يقبل أبداً أن يعهد بهذه الجملة كما هي إلى المطبعة ؛ لأنها إذا كانت توحي إليه بشيء من الارتياح في بعض الأحيان ، فإنه يدرك — بالرغم من ذلك — أنها لا تنطبق تماماً على الحقيقة الواقعة ، من طابع السهولة النسبية الذي تتسم به مما يجعلها تشبه الجمل المحفوظة شبها بعيداً ، ولكنه شبه على أية حال ، هذا — على الأقل — مضمون ما كان يقول جران ، عندما سمع الاثنان أشخاصاً يعدون تحت النافذة ، ونهض ريو واقفاً .

وقال جران :

ـــ سوف ترى ما سأفعل بها ، والتفت ناحية النافذة ، وأضاف « متى ينتهى كل هذا ! » .

ولكن تلك الخطوات المندفعة استأنفت وقعها من جديد ، وكان ريو قد نزل فعلا إلى الشارع،عندما مر أمامه رجلان ، وكان من الواضح أنهما يتجهان نحو أبواب المدينة . ذلك أن بعض مواطنينا كانوا فى الواقع قد فقدوا عقولهم تحت تأثير الحر والطاعون ، فأخذوا يلجئون إلى العنف ، ويحاولون أن يحتالوا على يقظة نطاقات الحراسة ليهربوا من المدنية .

كذلك حاول آخرون – مثل رامبير – أن يهربوا من هذا الجو المذعور، ولكن بمزيد من التصميم والبراعة، وإن لم يكن بمزيد من التوفيق، وكان رامبير قد استمر – في بادىء الأمر – يوالى مساعيه الرسمية، وقد كان يظن – على حد قوله – أن التصميم لابد وأن ينتهى دائماً بالانتصار على كل شيء، وأن التحايل من خصائص مهنته على نحوما . وهو لذلك، كان قد زار عدداً كبيراً من الموظفين والأشخاص الذين لا يشك عادة فى خبرتهم، ولكن هذه الخبرة لم تجدهم شيئاً فى هذه المسألة . كانوا فى أغلب الأحيان من الأشخاص الذين يستحوذون على آراء محدودة وحسنة الترتيب عن كل ما يخص أعمال البنك، أو التصدير، أو الموالح، بل وتجارة النبيذ أيضا . وكانت لديهم معلومات لا جدال فيها عن المشاكل القضائية أو التأمينات، كل هذا إلى جانب الدبلومات الكبيرة، والإرادة الأكيدة، بل ومما يلفت النظر أنهم كانوا جميعاً يتميزون بحسن النية، ولكن معلوماتهم بالنسبة لمسألة الطاعون كانت فى حكم المعدومة .

ومع ذلك فقد دافع رامبير عن قضيته أمام كل منهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وكان الأساس الذى تقوم عليه حجته دائماً أنه غريب عن مدينتنا، ولذلك ينبغى أن تدرس حالته بعناية خاصة، وكان الذين

يتحدث إليهم هذا الصحفي يقبلون — على وجه العموم — وجهة النظر هذه عن طيب خاطر . ولكنهم كانوا عادة يبينون له أن هذه أيضاً حالة عدد من الناس ، ومن ثم فلم تكن حاله من الخصوصية بالدرجة التي يتصورها ، وكان رامبير يرد عليهم بأن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً بالنسبة لحجته ، وكانوا يجيبونه بأن ذلك يغير من الأمر بعض الشيء بالنسبة للصعوبات الإدارية التي تقف في وجه كل إجراء استثنائي من شأنه أن يخلق ما يسمونه — بكثير من الامتعاض — « سابقة » وتعتبر هذه الطبقة من أصحاب الآراء طبقة أنصار الشكليات ، تبعا للتصنيف الذي ذكره رامبير للدكتور ريو ، وهناك — إلى جانب هؤلاء — أولئك الذين يحسنون الحديث ، ويؤكدون لصاحب الطلب أن كل هذا الذي يجري لا يمكن أن يدوم ، وإذا طلب إليهم إصدار القرارات راحوا يواسون رامبير بأن ضيقته لن تطول ، وهناك أيضاً ذوو الأهمية الذين يرجون زائرهم أن يترك لهم مذكرة يلخص فيها حالة ، ويخبرونه أنهم سيفحصونها ، والتافهون الذين يعرضون عليه بطاقات بالسكن ، أو عناوين بعض الفنادق الاقتصادية ، والمنهجيون الذين يطلبون منه ملء استمارة لا يلبثون أن يلقوا بها مع غيرها ، والمشغولون الذين يكتفون برفع أذرعتهم ، والمزعجون الذين يشيحون بوجوههم ، وأخيراً هناك التقليديون — وهم الأكثر عدداً — وكانوا يوجهون رامبير إلى مكتب آخر ، أو يدلونه على مسعى آخر .

وهكذا أنهك الصحفي نفسه في الزيارات ، ولكنه كون لنفسه فكرة واضحة صحيحة عن البلدية والمديرية وما يدور فيها ، وذلك بفضل

الوقت الذى أضاعه فى الانتظار على الأرائك الخشبية الموضوعة أمام لافتات كبيرة تدعو المواطنين إلى الاكتتاب فى أسهم الخزانة المعفاة من الضرائب ، أو التطوع فى جيش المستعمرات ، وبفضل ما ضيعه من وقت فى زيارة مكاتب لا ترى فيها إلا حافظات الأوراق ، ورفوف السجلات . أما الفائدة التى عادت على رامبير — كما قال لريو بشىء من المرارة — فهى : أن كل هذا حجب عنه حقيقة الموقف ، فشغله عن متابعة التقدم الذى كان يحرزه الطاعون ، الواقع أننا إذا تغاضينا عن مرور الأيام تباعاً بمزيد من السرعة ، فإنه يمكننا أن نقول — تجاه الوضع الذين توجد فيه المدينة بأسرها — : إن كل يوم يمر يقرب كل شخص فيها من نهاية محنه بشرط ألا يموت قبل ذلك ، وقد اعترف ريو بأن هذا حق ، ولكنها حقيقة مفرطة فى العموم .

وفى لحظة ما شعر رامبير بشىء من الأمل ، فقد تلقى من المديرية نشرة معلومات طلب إليه ملؤها بدقة ، وكانت هذه النشرة تستفسر عن شخصيته ، وحالته العائلية ، ومصادر دخله القديمة والحالية ، وما يسمونه بالحالة الاجتماعية ، وخيل إلى رامبير أن الأمر يتعلق بتحقيق يهدف إلى بحث حالة الأشخاص الذين يراد إعادتهم إلى محل إقامتهم الأصلى ، وكان لبعض المعلومات الغامضة التى تلقطها فى بعض المكاتب أثره فى تأييد هذه الفكرة ، ولكنه استطاع — بشىء من المساعى الدقيقة — أن يصل إلى المكتب الذى صدرت منه النشرة ، وهناك قالوا له : إن هذه المعلومات تجمع « لحالة ما إذا . . . » .

وسأل رامبير :

ـــ حالة ما إذا . ماذا ؟

فقالوا له بالتحديد : إنها من أجل حالة ما إذا أصيب بالطاعون ومات ، وذلك لكى يتمكنوا من إخطار أسرته من جهة ، ومن جهة أخرى لكى يعرفوا إذا كانت نفقات المستشفى ستدرج على ميزانية المدينة ، أو أن أقاربه سيكلفون بقضائها ، كان هذا يدل بطبيعة الحال على أنه لم يكن بعيداً عن تلك التى تنتظره كل البعد ، ما دام المجتمع يشتغل بأمورهما ، ولكن لم يكن فى هذا أى عزاء له . فقد كان هناك ما هو أكثر من ذلك لفتا للنظر ـــ ومن ثم فقد التفت إليه رامبير ـــ ونعنى به الطريقة التى يستطيع بها مكتب ما أن يستمر فى أداء خدماته ، حتى عندما تصل الكارثة إلى أقصى مداها ، وأن يستمر فى إصدار توجيهات خاصة بزمن آخر غير زمن الكارثة ، وكثيراً ما يكون هذا دون علم السلطات العليا ، وذلك لسبب واحد ، وهو أنه أنشىء من أجل هذه الخدمات .

وكانت الفترة التى تلت ذلك بالنسبة لرامبير أسهل الفترات ، وأشقها فى نفس الوقت . كانت فترة خمود بعد أن زار كل المكاتب ، وقام بكل المساعى ، وظهر له أن كل هذه المنافذ كانت مسدودة فى الوقت الراهن ، فجعل يتنقل من مقهى إلى آخر ، فكان يجلس فى الصباح فى شرفة أحدها وأمامه قدح من البيرة ، ثم يأخذ فى قراءة الجريدة على أمل أن يجد فيها أية علامة على قرب نهاية المرض ، وبعد ذلك كان يتفرس وجوه المارة فى الطريق ، ويشيح بامتعاض عن تعبير الحزن الذى يراه مرتسما عليها ، وكان يضطر لقراءة لافتات المحلات المواجهة له ، والإعلانات التى تروج

لفاتحات الشهية التي لم تعد تقدم ، فإذا ما أعاد قراءتها للمرة المائة نهض يطوف — بلا هدف — في شوارع المدينة الصفراء .

وهكذا كان ينتقل من نزهة يقوم بها بمفرده إلى المقهى ومن المقهى إلى المطاعم حتى يأتي المساء . ولمحه ريو ذات مساء على باب أحد المقاهي حيث كان يبدو متردداً بين الدخول وعدمه ، وأخيراً اختار الدخول ، وذهب ليجلس في أقصى القاعة ، وكانت هذه هي الساعة التي يؤجلون فيها إضاءة الأنوار في المقاهي إلى أقصى درجة ممكنة بأمر من السلطات العليا ، وكان الغروب الذي أخذ يعم القاعة قد جعلها في لون الماء المغبر ، وجعلت حمرة الشفق تنعكس على الزجاج ، ورخام المناضد يلمع لمعاناً ضعيفاً وسط الظلمة التي بدأت تنتشر ، وفي وسط القاعة الخاوية كان رامبير يشبه الشبح الضال ، وظن ريو أن هذه هي الساعة التي يجب فيها أن يخلو إلى نفسه ، ولكنها كانت أيضاً الساعة التي يشعر فيها كل سجناء هذه المدينة بوجوب تركهم لأنفسهم ، وأنه ينبغي عمل شيء من أجل التعجيل بالخلاص ، وعاد ريو أدراجه .

وتعود رامبير كذلك أن يقضي وقتاً طويلاً في محطة السكة الحديد ، وكان الدخول إلى الرصيف ممنوعاً ، ولكن قاعات الانتظار التي يمكن الوصول إليها من الخارج ظلت مفتوحة . وكان المتسولون أحياناً يقضون فيها أيام القيظ ، لأنها كانت ظليلة ورطبة ، فكان رامبير يأتي إليها ، ويأخذ في قراءة الجداول القديمة ، واللافتات التي تحظر البصق ، واللوائح التي تنظم أعمال شرطة القطارات ، ثم يجلس في أحد الأركان ، وكانت القاعة معتمة ، وقد وضعت بها مدفأة من الزهر ظلت باردة منذ شهور ،

وأحيطت بثمانى صور لبعض أدوات الرى القديمة ، وعلى الحائط علقت بعض الإعلانات التى تدعو للحياة السعيدة الحرة فى (باندول ، أوكان) وهنا أحس رامبير بشناعة تلك الحرية التى يجدها المرء عندما يكون معدماً . وكانت الصور الباريسية أشد الصور حزناً فى نفسه ، أو هذا على الأقل ما كان يقوله لريو ، فكان هناك منظر يمثل بعض الحجارة القديمة والمياه، ولوحة تمثل القصر الملكى ، وثالثة تمثل محطة الشمال ، ورابعة تمثل أحياء البانثيون المقفرة ، وغيرها تمثل أماكن أخرى من المدينة التى لم يكن يعرف أنه يحبها إلى هذا الحد ، وقد أخذت هذه الصور كلها تلاحقه وتحول بينه وبين القيام بأى عمل محدد ، وظن ريو أنه لا يفعل إلا أن يخلط هذه الصور بصور حبه ، وعندما أسر إليه رامبير — ذات يوم — بأنه يحب أن يصحو فى الرابعة صباحاً ، ويفكر فى مدينته ، لم يجد الطبيب صعوبة فى أن يؤول ذلك — حسب تجاربه الخاصة — بأنه عندئذ يحب تخيل المرأة التى تركها ، فهذه هى الساعة التى كان يمكنه فيها أن يمتلكها ؛ إذ أنه حتى الساعة الرابعة صباحاً لا يفعل الناس عموماً شيئاً ، بل يناموا فى تلك الساعة ، وهذا يدعو إلى الطمأنينة ؛ إذ أن أعز أمانى القلب القلق تنحصر فى أن يمتلك الشخص الذى يحبه إلى الأبد ، أو — إذا حلت ساعة الفراق — أن يتمكن من أن يغمره معه فى سبات عميق لا يقطعه حلم ، ولا ينتهى إلا ساعة اللقاء .

ولم يمر وقت طويل على خطبة الوعظ حتى كان القيظ قد بدأ ، وأشرف شهر يونية على الحلول، وحدث فى اليوم التالى ليوم المطر الغزير — الذى جاء متأخراً عن أوانه وصار العلامة المميزة ليوم الأحد ، يوم الخطبة — أن انطلق الصيف من عقاله فى السماء وفوق المنازل ، فهبت رياح شديدة حارقة طيلة يوم كامل ، جفت على إثرها الجدران ، وتوسطت الشمس كبد السماء ، وأخذت موجات الحرارة والضوء تجرف المدينة طيلة النهار ، وأصبح المرء لا يجد خارج الشوارع ذات البواكى ، وخارج المساكن مكاناً واحداً إلا وكان هدفاً للوهج الذى يعشى الأبصار ، كانت الشمس تطارد مواطنينا فى كل ركن فى الشارع ، حتى إذا توقفوا وجهت إليهم ضربتها ، ولما كان ارتفاع هذا القيظ المبتدىء قد اتفق مع ارتفاع عدد الضحايا الذى وصل إلى حوالى السبعمائة فى الأسبوع ، فقد أصاب المدينة شبه انهيار ، وقل الزحام فى الأحياء الخارجية ، وخلال الشوارع المسطحة ، والمنازل ذات الشرفات الواسعة . أما فى هذا الحى الذى كان الناس يعيشون فيه دائماً على أبواب منازلهم ، فقد أغلقت جميع الأبواب ، وارتجت مصاريع النوافذ ، دون أن يدرى أحد ما إذا كان ذلك للحماية من القيظ ، أم من الطاعون ، ومع ذلك فقد كانت الأنات تتسرب من بعض المنازل ، وكان إذا حدث ذلك من قبل ، رأينا بعض

الفضوليين وقد وقفوا فى الشارع يرهفون سمعهم ، ولكن يبدو — بعد هذه الإنذارات الطويلة — أن قلوب الناس جميعاً قد تحجرت ، فقد أخذ الجميع يسيرون ويعيشون بجانب الأنين ، وكأنه قد أصبح لغة الناس الطبيعية .

وكانت المشادات التى تقع على الأبواب تضطر رجال الأمن إلى التدخل ، وإلى استعمال السلاح، مما كان يخلق نوعاً من الاضطراب المكتوم، وكان يحدث فى هذه المعارك أن يسقط بعض الجرحى ، ولكن الناس لم يكونوا يتكلمون إلا عن موتى ، ولا غرو ، فمن الطبيعى أن يحدث ذلك فى مدينة تضخم فيها كل شىء بفعل الحرارة والخوف ، وأياً ما كان ، فإن التذمر استمر فى الازدياد ، حتى أن السلطات قد خشيت أن يتفاقم الأمر ، وبحثت جدياً فيما يجب اتخاذه من إجراءات فى حالة إذا ما اندفع هؤلاء السكان الرازحين تحت الوباء فى طريق الثورة ، ونشرت الصحف قرارات تجدد حظر الخروج ، وتهدد كل من يخالف ذلك بعقوبة السجن ، وراحت الدوريات تجوب المدينة ، وكثيراً ما كنا نرى الحراس وقد امتطوا صهوات جيادهم فى الشوارع المقفرة الملتهبة ، وأخذوا يمرون وسط صفوف من النوافذ المغلقة معلنين عن مقدمهم بوقع سنابك الخيل على بلاط الطريق ، فإذا ما اختفت الدورية ، عاد الصمت اليائس الثقيل يخيم على المدينة ، وكان يسمع على بعد صوت الطلقات النارية التى تطلقها كتائب خاصة صدرت إليها أوامر حديثة بقتل الكلاب والقطط خشية أن تكون وسيلة لنقل البراغيث ، وساعدت تلك الانفجارات الجافة على نشر جو يشبه جو الغارات الجوية فى المدينة .

ووسط القيظ والسكون كان كل شيء يبدو لقلوب مواطنينا المذعورين أكثر أهمية مما هو ، ولأول مرة أصبح الناس شديدى الحساسية بالنسبة للألوان التى تعترى السماء ، والروائح التى تنبعث من الأرض ، والتى تميز الفصول المختلفة ، وفهم كل منا والهلع يكاد يقتله أن القيظ يساعد الوباء ، كما لاحظ الجميع — فى نفس الوقت — أن الصيف ألح فى البقاء ، ولم يعد يتزحزح ، أما صيحات العصافير فى السماء مساء فوق المدينة فقد ضعفت ؛ ذلك أنها لم تعد تتناسب وغروب شهر يونية الذى يدفع الأفق فى بلدنا إلى الوراء ، ولم تعد الزهور تصل الأسواق فى شكل براعم ، بل صارت متفتحة ، ولم تكن تمضى فترة البيع الصباحية حتى ترى وريقاتها تغطى الأرصفة المغبرة ، فكان من الواضح أن الربيع قد كل بعد ما بذل من ذات نفسه فى صورة آلاف الزهور المتألقة فى كل مكان حول المدينة ، وهو الآن قد أخذ فى الكرى ، وراح يتحطم ببطء تحت ضغط الطاعون والقيظ المزدوج . ولقد كانت سماء الصيف هذه ، وتلك الشوارع التى شحب لونها بفعل الأتربة والضجر ، تحمل فى نظر مواطنينا نفس المعنى الذى يحمله الموتى المائة الذين يثقلون كاهل المدينة كل يوم ، ولم يعد فى وسع الشمس الدافقة ، ولا تلك الساعات التى تفوح بالنعاس وطعم العطلة أن تغرى الناس — كما كانت تفعل من قبل — بإقامة المهرجانات للماء والموائد الفاخرة ، بل كانت — على العكس من ذلك — ذات وقع قاس فى المدينة المغلقة الصامتة ؛ فقد فقدت ذلك البريق النحاسى الذى يميز الفصول السعيدة ؛ ذلك أن سماء الطاعون تطفىء كل لون ، وتدفع كل بهجة إلى الهرب .

وكانت هذه من أكبر الثورات التى أحدثها المرض ، فقد كانت عادة مواطنينا جميعاً من قبل أن يستقبلوا الصيف بالبهجة والمرح . كانت المدينة تفتح أبوابها حينئذ نحو البحر ، ويأخذ شبابها يتدفق على الشواطىء ، أما هذا الصيف ، فكان الأمر على العكس من ذلك . كان البحر القريب محظوراً ، ولم يعد للأجسام حق فى مباهجه . ما العمل فى مثل هذه الظروف ؟ إن تارو هو أيضاً الذى يعطينا أصدق صورة لمدينتنا فى هذا الوقت ؛ فقد كان يتتبع — بطبيعة الحال — ما يحرزه الطاعون من تقدم ، وقد لاحظ — بحق — أن المذياع قد سجل إحدى نقط التحول فى سير المرض حين لم يعد يعلن عن مئات الوفيات كل أسبوع ، ولكن عن اثنين وتسعين ، أو مائة وسبعة ، أو مائة وعشرين فى اليوم ، فقال : « إن الصحف والسلطات (تناور) الطاعون بمهارة ، فهم يظنون أنهم ينتزعون منه بعض نقط الانتصار التى سجلها ، لأن رقم مائة وثلاثين أقل ضخامة من تسعمائة وعشرة » . وقد صور كذلك مشاهد الوباء المؤثرة أو الطنانة . من ذلك : أن امرأة تقيم فى حى مقفر مغلق النوافذ فتحت نافذتها فوق رأسه فجأة وهو سائر ، وصرخت صرختين مدويتين قبل أن تعيد إغلاق النافذة على ظلام غرفتها الكثيف . ومنها ما لاحظه أيضاً من أن حبات حلوى النعناع قد اختفت ذات مرة من الصيدليات ، لأن الكثيرين كانوا يمتصونها ليحصنوا أنفسهم ضد العدوى .

واستمر تارو على هذا النحو فى مراقبة أشخاصه المحببين ، ومنه نعرف أن العجوز الضئيل الجسم صديق القطط يعيش هو الآخر فى المأساة ؛ فذات صباح دوت طلقات نارية ، وقد أدى ذلك — كما كتب

تارو — إلى موت أغلبية القطط ، وإلى إرهاب القطط الأخرى ، فهجرت الشارع ، وفى نفس اليوم خرج العجوز الضئيل إلى الشرفة فى ساعته المحددة ، وبدت عليه الدهشة ، فانحنى على حافة شرفته ، وراح يجوب الشارع ببصره من نهايته حتى نهايته ، ثم صمم على الانتظار ، وكانت يده تضرب سور الشرفة ضربات خفيفة ، وطال انتظاره ، ثم قطع بعض الورق إلى قطع صغيرة ، وبعد ذلك دخل وخرج من جديد ، ولما طال عليه الوقت ، سارع بالدخول ، وأغلق خلفه أبواب الشرفة فى غضب . وفى الأيام التالية تكررت نفس المشاهد ، ولكن كانت ملامح العجوز تنم عن حزن واضطراب نفسى آخذ فى التزايد . وبعد أسبوع انتظر تارو — دون جدوى — ظهور الرجل من جديد كما كان يحدث فى كل يوم ، ولكن النوافذ ظلت مغلقة على حزن لا يستعصى على الفهم ، ومن ثم كانت هذه هى النتيجة التى سجلها تارو فى مذكراته : « يحظر البصق على القطط فى وجود الطاعون » .

ومن جهة أخرى عندما كان تارو يعود إلى منزله مساء كل يوم وهو واثق من أنه سيلتقى بحارس الفندق الليلى يوجهه الواجم وقد جعل يذرع المكان ذهابا وجيئة ، وكان ذلك الحارس لا يفتأ يذكر لكل قادم أنه تنبأ بما حدث ، كما كان تارو يعترف له بأنه سمعه حقاً يتنبأ بوقوع مصيبة ما ، ولكنه يذكره بأن تفكيره كان يتجه إلى وقوع زلزال ، فيجيب الحارس العجوز عليه بقوله : « آه ؟ لو كانت المسألة مسألة زلزال ، إذن لحدثت هزة واحدة كبيرة ، وانتهى الأمر ، ولراحوا بعد ذلك يحصون من ماتوا ومن ظلوا على قيد الحياة ، وبذلك تنتهى الكارثة ، أما هذا

المرض اللعين ! حتى أولئك الذين لم يصابوا به ، لا ينجون من نتائجه ومخاوفه » .

أما مدير الفندق فلم يكن همه أقل من ذلك ، ففي أول الأمر كان المسافرون الذين منعوا من مغادرة المدينة يرون البقاء فى فندقه ، ولكن لما طال أمد الوباء ، أخذ الكثيرون يفضلون — بالتدريج — أن يقيموا لدى أصدقائهم ، وظلت غرف الفندق منذ ذلك الحين خاوية لنفس الأسباب التى ساعدت على شغلها فى بادىء الأمر، إذ أنه لم يعد يرد إلى المدينة مسافرون جدد، وظل تارو أحد رواد الفندق النادرين .

وكان المدير لا يدع فرصة تمر دون أن يذكره بأنه لولا رغبته فى أن يكون رقيقاً مع آخر عملائه ، لأغلق الفندق منذ وقت طويل،وكثيراً ما كان يطلب إلى تارو أن يقدر المدة التى يحتمل أن يعيشها الوباء فى المدينة ، وكان تارو يجيبه بقوله :

— « يقولون : إن البرد يضايق هذا النوع من الأمراض » . فيجن جنون المدير ، ويقول :

— ولكن لا يوجد عندنا برد بالمعنى الصحيح يا سيدى ، هذا إلى أنه لا يزال بيننا وبين هذه الفترة أمد طويل ، يا سيدى .

وكان المدير يعلم علم اليقين أن المسافرين سيظلون — حتى بعد انتهاء الوباء — يتجنبون المدينة لمدة طويلة ، فقد كان من شأن هذا الطاعون أن يؤدى إلى خراب السياحة ، أما المطعم ، فقد عاد السيد أوتون — الرجل البومة — إلى الظهور فيه بعد أن احتجب مدة طويلة ، ولكن

لم يعد يتبعه سوى كلبيه المدربين ، ودلت بعض التحريات على أن زوجته كانت قد قامت بتمريض أمها التى ماتت وتم دفنها ، وأنها الآن تقضى أيام الحجر الصحى .

وقال المدير لتارو ذات يوم :

ــ إنى لا أحب هذا ، فهذه السيدة مشتبه فى أمرها ، سواء أكانت تقضى أياماً فى الحجر الصحى أم لا ، وبالتالى يعتبرون هم أيضاً مشتبهاً فى أمرهم ، وأجابه تارو بقوله :

إذا نظرنا إلى المسألة من هذه الناحية ، كان الناس جميعاً مشتبها فى أمرهم ، ولكن المدير كان صارماً ، وكانت آراؤه حول هذه المسألة جد حاسمة ، فكان يعقب قائلا :

ــ كلا يا سيدى ، لا أنا ولا أنت مشتبه فى أمرنا ، أما هم ، فهذه حالتهم .

ولكن لم يكن السيد أوتون قد غير عاداته لاسباب تافهة كهذه ، وقد أصبح الطاعون الآن هو المسئول عن ذلك ، فكان يدخل المطعم بنفس طريقته السابقة ، ويجلس قبل أولاده ، ويوجه إليهم ملاحظاته الخاصة بواجبات اللياقة بلهجة عدائية ، ولم تتغير سوى هيئة الصبى الصغير ، فكان يرتدى ملابس الحداد كما كانت ترتديها أخته ، وأصابه شىء من الانطواء على نفسه ، فأصبح كما لو كان ظلا صغيراً لأبيه ، وكان الحارس الليلى لا يميل إلى السيد أوتون ، فقال يوماً لتارو :

ــ أما هذا فسيهلك مرتدياً ملابسه كاملة ، ولذلك لن يحتاج لتغسيل ، بل سيرحل مباشرة .

ومـــا ورد ذكره فى المذكرات خطبة پانلو الوعظية ، وقد علق عليها بقوله :

« إنى أفهم تلك الحمية المحبوبة ؛ فإن العادة كانت قد جرت على اللجوء إلى البلاغة فى بداية الأوبئة ونهايتها ، أما فيما يتعلق ببدايتها ، فلم تنته تلك العادة بعد ، كما أنها قد عادت من جديد بالنسبة لنهايتها ، والناس لا يعتادون على الحقيقة ، أى على الصمت ، إلا وقت المصيبة ، فلننتظر » .

وأخيراً كتب تارو فى مذكراته أن حديثاً طويلا قام بينه وبين الدكتور ريو ، ويكتفى بتقرير أنه كان ذا نتائج طيبة ، ولم ينس أن يلاحظ ـــ بهذه المناسبة ـــ أن عينى مدام ريو الأم من اللون البنى الفاتح ، وانتهى من ذلك إلى هذا الرأى الغريب ، وهو أن نظرة تحتوى على كل هذا القدر من الطيبة لابد أن تكون أقوى من الطاعون ، ثم خصص فقرات ـ كبيرة نوعاً ما ـ للحديث عن مريض الربو العجوز الذى كان يعالجه ريو .

ذلك أنه كان قد ذهب لزياته مع الطبيب بعد حديثهما ، وكان العجوز قد استقبله بضروب من السخرية وفرك اليدين ، وقد كان إذ ذاك على فراشه معتمداً بظهره على وسادته ، وأمامه قدرا البازلاء . وما أن رأى تارو حتى قال : أه ! هذا واحد آخر ، لقد انقلبت الآية ، وصار عدد الأطباء أكبر من عدد المرضى ، ذلك لأن الأمور تتدهور بسرعة . الواقع أن القس على حق ، إنهم يستحقون ذلك . وفى اليوم التالى عاد تارو إلى زيارته دون إنذار .

ويسجل تارو فى مذكراته أن العجوز المريض بالربو — وقد كان من تجار الخردوات — قرر وهو فى الخمسين من عمره أنه عمل ما فيه الكفاية ، ثم لزم فراشه ، ولم يغادره منذ ذلك الحين ، ومع ذلك فقد كان الوقوف أكثر فائدة للربو من الرقاد ، وقد ساعده دخل صغير يملكه على بلوغ سن الخامسة والسبعين ، وإن كان يبدو أكثر شباباً من ذلك ، وهو لا يطيق أن يرى الساعات ، ولا توجد ساعة واحدة فى منزله ، وكان يقول :

« الساعة غالية الثمن ، ولا فائدة منها » .

وكان يعرف الوقت ، ولا سيما ساعة تناول الطعام — وهى الساعة الوحيدة التى تهمه — بمساعدة قدريه اللذين يكون أحدهما مليئاً بالبازلاء عندما يستيقظ من نومه ، وكان يملأ الآخر مما فى الأول حبة حبة بحركة رتيبة متناسقة ، وبذلك وصل إلى بغيته ، وحدد له القدر أوقات يومه ، وكان يقول: « كلما ملأت القدر خمسة عشرة مرة ، كان على أن أتناول الطعام مرة واحدة ، إن الأمر غاية فى البساطة » .

وإذا صح ما تقوله عنه زوجته ، فإن بشائر هذه الموهبة قد ظهرت عليه منذ شبابه المبكر ، فالواقع أنه لم يهتم بشىء قط ، لا بالعمل ولا بالأصدقاء ، ولا بالمقهى ، ولا بالموسيقى ، ولا بالنساء ، ولا بالنزهة ، ولم يخرج قط من مدينته إلا مرة واحدة اضطر فيها أن يذهب إلى مدينة الجزائر لأمور عائلية ، ولكنه توقف فى أول محطة بعد وهران ، ولم يستطع أن يتابع المغامرة إلى أبعد من ذلك ، وعاد أدراجه إلى بيته بأول قطار .

ولما بدت على تارو الدهشة من حياة الرهبنة هذه التي يحياها ، شرح له — على وجه التقريب — أن الدين يعتبر أن النصف الأول من حياة الإنسان ضرب من الصعود ، وأن النصف الآخر ضرب من النزول ، وأن أيامه في أثناء النزول لا تكون ملكا له ، إذ من الممكن أن تنتزع منه في أية لحظة ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يفعل بها شيئاً ، بل ومن الأفضل ألا يفعل بها شيئاً ، هذا إلى أنه لم يكن يخشى التناقض ، ومعارضة وجود الله لا تخيفه ، لأنه لم يلبث أن قال لتارو : « لا شك في أن الله لا وجود له ، إذ أنه لو كان موجوداً لما كانت هناك حاجة لوجود القسس ، ولكن تارو لم يكد يسمع بعض الأفكار التي تلت ذلك حتى فهم أن هذه الفلسفة متصلة اتصالا وثيقاً بكثرة ما تقوم به كنيسة حيه من جمع التبرعات .

وقد ختم تارو الصورة التي رسمها لهذا العجوز بأمنية تبدو عميقة سمعها منه عدة مرات ، وهي أنه كان يأمل أن يموت هرماً جداً .

وتساءل تارو : « أهو قديس ؟ » وأجاب على ذلك بقوله : « نعم إذا كانت القداسة مجموعة من العادات » .

وفي نفس الوقت قام تارو بوصف دقيق — نوعاً ما — ليوم من أيام المدينة الموبوءة ، وهكذا أعطانا فكرة صحيحة عن مشاغل مواطنينا ، وحياتهم خلال هذا الصيف ، وقد قدم لذلك بقوله : « لا يضحك أحد سوى السكارى ، وهؤلاء كانوا يسرفون في الضحك » . وبعد ذلك بدأ وصفه فقال :

« فى الصباح المبكر كانت نسمات خفيفة تجوب المدينة التى لم تزل مقفرة ، وفى هذه الساعة التى تتوسط وفيات الليل واحتضارات النهار كان يبدو أن الطاعون يتوقف عن النشاط لحظة يلتقط فيها أنفاسه ، وكانت كل الحوانيت مغلقة ، وإن كان قد كتب على بعضها : « مغلق بسبب الطاعون » . ومعنى هذا أنها ليست على وشك أن تفتح أبوابها مع غيرها من الحوانيت ، وفى هذه الساعة أيضاً لا يكون بائعو الصحف قد أفاقوا تماماً من نعاسهم ، لذلك لا تراهم ينادون على الأخبار ، بل يجلسون فى أركان الشوارع وقد أسندوا ظهورهم إلى حوائطها ، ورواحوا يعرضون بضائعهم بجوار المصابيح فى حركات تشبه حركات من يمشون وهم نيام ، ولكنهم لا يلبثون أن يستيقظوا على مرور أولى عربات الترام ، فينتشرون فى جميع أرجاء المدينة ، ويمدون أذرعتهم بأوراق تتفجر منها كلمة « الطاعون » . هل سيستمر الطاعون إلى الخريف ؟ إن الأستاذ « ب » يجيب بالنفى . مائة وأربعة وعشرون ميتاً ، هذه هى حصيلة اليوم الرابع والتسعين للطاعون » .

« ورغم أزمة الورق التى تزداد حدة كل يوم ، والتى اضطرت بعض المجلات إلى الإقلال من عدد صفحاتها ، ظهرت جريدة جديدة ، « جريدة الوباء » التى أخذت على عاتقها « إخبار المواطنين بكل حياد وأمانة عن مد المرض وجزره ، وتزويدهم بأوثق الآراء عن مستقبل الوباء ، وتكريس أنهار صفحاتها لمساندة كل من يجد فى نفسه استعداداً لمكافحة الوباء من بين السكان ، سواء أكان معروفا أم مجهولا ، وحماية الروح المعنوية للسكان ، وأن تنقل إليهم توجيهات المسئولين ، وباختصار قد

أخذت على عاتقها أن تجمع كل العزائم والهمم لمكافحة الكارثة التى أصابتنا مكافحة فعالة » . والحقيقة أن هذه الجريدة لم تلبث أن قصرت نشاطها على الإعلان عن منتجات جديدة أكيدة المفعول لمنع المرض .

« وفى نحو الساعة السادسة صباحاً تبدأ كل هذه الصحف توزع أعدادها بين الصفوف التى تقف أمام أبواب المحلات قبل موعد افتتاحها بأكثر من ساعة ، ثم فى عربات الترام الغاصة بالركاب المقبلين من الأحياء الخارجية ، لقد أصبح الترام هو الوسيلة الوحيدة للنقل ، وإن كانت عرباته لا تتقدم إلا بصعوبة ، وقد تكدس الركاب فوق سلمها حتى يكاد يتصدع .

ومن الغريب حقاً — بالرغم من ذلك — أن كل الركاب يعمدون، بقدر الإمكان ، إلى أن يديروا ظهورهم بعضهم لبعض من أجل تجنب العدوى . ولا يكاد الترام يصل إلى إحدى المحطات ، ويفرغ فيها شحنته من الرجال والنساء ، حتى يسارع كل منهم فى الابتعاد عن غيره ليكون بمفرده ، وكثيراً ما تقوم المشادات بسبب اعتلال الأمزجة حتى أصبح هذا الداء مزمناً .

« وبعد مرور عربات الترام تصحو المدينة تدريجياً ، وتفتح المقاهى أبوابها على عدادات حملت بالإعلانات التى من قبيل : « لا يوجد بن » ، « أحضروا معكم السكر » الخ . ثم تفتح أبواب الحوانيت ، وتبدأ الشوارع فى الازدحام . وفى نفس الوقت يزداد الضوء ، ويبدأ القيظ يلهب سماء شهر يوليو بسياطه ، وكانت هذه هى الساعة التى يخرج

فيها من لا عمل لهم إلى الشوارع الكبيرة . ويبدو أن أغلب الناس قد حصروا همهم فى محاولة رد الطاعون على أعقابه بعرض ما لديهم من ترف ؛ فنى نحو الساعة الحادية عشرة من كل يوم تغص شوارع المدينة الرئيسية بالشبان والشابات الذين تبدو عليهم الرغبة الجامحة فى الاستمتاع ، تلك الرغبة التى تنمو وتترعرع على لبان المصائب الكبرى ؛ فإذا ازداد الوباء امتداداً ، زاد معه مفهوم الأخلاق اتساعاً ، حتى لا يبعد أن نرى مهرجانات « ميلانو » الصاخبة تقوم على حافة القبور .

« وفى ساعة الظهيرة تمتلىء المطاعم فى غمضة عين ، وسرعان ما نرى أولئك الذين لم يجدوا لهم مكاناً بداخلها يقفون على أبوابها فى مجموعات صغيرة ، وتبدأ الشمس تفقد لونها بفعل القيظ المتزايد ، ويظل طالبو الطعام ينتظرون دورهم تحت مظلات المحال على حافة الشارع الذى يكاد يتفجر من الحر ، وإذا كانت المطاعم تغص بالناس ؛ فذلك لأنها تبسط لكثيرين منهم مشكلة التموين ، وإن كانت تترك القلق من العدوى كما هو ، ولذا ترى الرواد يقضون الدقائق العديدة فى مسح أدوات المائدة بعناية ، ومنذ وقت ليس بالطويل كانت بعض المطاعم تعلق هذا الإعلان : « هنا تعقم أدوات المائدة بالغلى » ، ولكنها استغنت بالتدريج عن مثل هذه الإعلانات ، لأن العملاء كانوا مضطرين للإقبال عليها على أى حال ، فالعملاء ينفقون عن طيب خاطر ، ويتسابقون بعصبية على شراء النبيذ الجيد ، أو الذى قيل إنه جيد ، وعلى الأطباق الإضافية المرتفعة الثمن ، ويظهر أن الموقف قد انفجر بالفوضى يوماً فى أحد المطاعم بسبب الذعر الذى ساد عندما أصيب أحد الرواد

بغثيان ، وانتابه الشحوب ، فنهض من مكانه ، ومشى بخطى مضطربة مسرعاً نحو الخروج .

« وفى نحو الساعة الثانية تبدأ المدينة تخلو تدريجياً ، وهذه هى اللحظة التى يلتقى فيها الصمت بالتراب والشمس والطاعون فى المدينة ؛ فعلى طول الطريق بين المنازل الكبيرة الداكنة تتدفق الحرارة تدفقاً دون توقف ، وهذه كلها ساعات سجن طويلة تنتهى بتلك الأمسيات الملتهبة التى تزحف على هذه المدينة المزدحمة الصاخبة . وكانت الأمسيات فى أثناء الأيام للقيظ تقفر شيئاً فشيئاً دون أن يدرى أحد سبب ذلك .

أما فى الوقت الحاضر ، فقد أصبح فى وسع أول نسمة تهب أن تبعث فى المدينة شيئاً من الارتياح ، وإن كانت لا تبعث فيها الأمل ، وحينئذ ينزل الجميع إلى الشوارع ، ويستسلمون للنعاس أو الشجار ، أو يشتهى بعضهم بعضاً ، وفى ظل سماء يوليو الحمراء هذه تدلف المدينة الملأى بالصخب وأزواج العشاق نحو ليل مبهور الأنفاس ، ومن المناظر التى تحدث كل مساء أن يرى الناس رجلا ملهما يرتدى قبعة من الجوخ ، ورباط عنق كبير العقدة ، وقد راح يعبر الشوارع ويصيح فى الناس : « إن الله كبير ، أقبلوا عليه » . ولكن عبثا ، فإن الناس يفضلون الاندفاع نحو أى شىء لا يعرفونه معرفة جيدة ، أو أى شىء يبدو لهم أعظم أهمية من الله .

ذلك أن الدين كان قد ظل محتفظا بمكانته أول الأمر ، عندما كان الناس يعتقدون أن الطاعون كغيره من الأمراض ، ولكن لما رأوا أن الأمر جد خطير أداروا وجوههم نحو المتعة ، وهكذا يرى القلق

الذى يرتسم أثناء النهار على الوجوه ، وقد تحول فى المساء القائظ المغبر إلى نوع من الهياج الأهوج ، والحرية الخرقاء التى تصيب السكان جميعا بما يشبه الحمى .

« وأنا أيضا مثلهم . ولكن ماذا ! إن الموت يعتبر لا شىء بالنسبة لمن هم مثلى من الرجال . إنه حادث يبين أنهم كانوا على صواب » .

كان تارو هو الذى طلب إلى ريو تلك المقابلة التى يتحدث عنها فى مذكراته ، وفى المساء المتفق عليه جلس ريو ينتظره ، وقد راح ينظر إلى أمه التى جلست فى هدوء ووقار على مقعد فى ركن من أركان غرفة المائدة ؛ ففى هذا الركن كانت السيدة تمضى أوقاتها كلما فرغت من أعمالها المنزلية كانت تنتظر ، وقد وضعت يديها على ركبتيها ، ولكن ريو لم يكن متأكداً حتى من أنه هو الذى تنتظره ، غير أنه كان يحدث شىء من التغير فى وجه أمه كلما حضر ، كان كل ما طبعته حياتها الكادحة على وجهها من صمت يبدو وقد دبت فيه الحياة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى صمتها العميق ، وفى هذا المساء كانت تنظر من النافذة إلى الشارع الذى أصبح الآن مقفراً ، وكانت الإضاءة الليلية قد خفضت بمقدار الثلثين ، فكان هذا المصباح أو ذاك يلقى من بعيد بشعاع خافت على ظلال المدينة، وقالت مدام ريو :

— هل سيستمر تخفيض الإضاءة طيلة مدة الطاعون ؟

— يحتمل ذلك .

— أرجو ألا تستمر هذه الحال حتى الشتاء ، وإلا عمت الكآبة .

وأجاب ريو :

— نعم .

ثم رأى نظرة أمه تستقر على جبينه ، وكان يعلم أن القلق والإرهاق الذى عانته فى الأيام الأخيرة قد حفرا فى وجهها أخاديد .

وقالت مدام ريو :

— ألم تسر الأمور سيراً حسناً اليوم ؟

— آه ! كالمعتاد .

— كالمعتاد ؟ ! معنى هذا أن المصل الجديد الذى أرسلته باريس قد برهن على أنه أضعف مفعولا من الأول ، وأن الإحصائيات استمرت فى الصعود ، ولم يكن فى الإمكان استخدام الحقن بالمصل الوقائى إلا فى نطاق الأسر التى أصيبت فعلا ، إذ كان ينبغى تزويد المدينة بكميات ضخمة منه حتى يمكن تعميم استعماله ، وقد أصبحت الآن غالبية الأورام تستعصى على الانفجار ، كما لو كان موسم تجمدها قد حل ، ولذا صارت تسبب للمرضى عذاباً أليما ، كما ظهرت فى المدينة منذ الليلة حالتان للمرض فى صورة جديدة ، فقد صار الطاعون رئويا ، وقد حدث فى نفس اليوم أثناء أحد الاجتماعات أن رأى الأطباء أنفسهم فى حالة ارتياع أمام مدير قد أفلت منه الزمام ، فطلبوا اتخاذ إجراءات جديدة ؛ لكى يمكن تجنب العدوى التى تنقل من فم إلى فم فى حالة الطاعون الرئوى ، وكان لهم ما أرادوا ، وكالمعتاد ، لم يكن أحد يدرى من الأمر شيئاً .

ونظر ريو إلى أمه ، وذكرته نظرة عينيها البنيتين بسنوات مضت تنهل فيها من حنانها ، فسألها :

ـــ هل أنت خائفة يا أماه ؟

ـــ فى مثل سنى يصير الإنسان لا يخاف كثيراً .

ـــ النهار طويل ، وأنا لا أكاد أظهر فى البيت مطلقا .

ـــ لا يهمنى أن أقضى وقتى فى انتظارك ، ما دمت أعرف أنك ستعود ، وإذا لم تكن هنا ، فإنى أفكر فيما يشغلك من عمل ، هل لديك أخبار ؟

ـــ نعم كل شىء على ما يرام ، كما جاء فى آخر برقية لها ، ولكننى أعلم أنها تقول لى ذلك لتطمئننى .

ورن جرس الباب ، فابتسم الطبيب لأمه ، وذهب ليفتحه ، وعلى عتبة الباب المعتمة بدا تارو كدب كبير لف فى رداء رمادى اللون ، وأجلس ريو الزائر أمام مكتبه بينما ظل هو واقفا خلف مقعده ، ولم يكن يفصلهما سوى المصباح الوحيد المضاء فى الغرفة ، والموضوع فوق المكتب .

وقال تارو دون مقدمة :

ـــ أعلم أننى معك أستطيع أن أتكلم بصراحة .

وأومأ ريو موافقا فى صمت :

ـــ بعد خمسة عشر يوما ، أو شهر لن تعود ذا فائدة هنا ، فقد قهرتكم الأحداث .

وقال ريو :

ـــ هذا صحيح .

ـــ إن تنظيم الخدمة الصحية جد ردىء ؛ إذ ينقصكم الوقت والرجال.
واعترف ريو للمرة الثانية بأن هذه هى الحقيقة .
ـــ وقد بلغنى أن المديرية تفكر فى نوع من الخدمة المدنية ، لكى تجبر الرجال الأصحاء على المشاركة فى الإنقاذ العام .
ـــ إنك على علم بما يجرى ، ولكن الشعور بالاستياء كبير ، ولذا لا يزال المدير متردداً .
ـــ لماذا لا يطلبون متطوعين ؟
ـــ لقد فعلوا ، ولكن النتيجة كانت ضئيلة .
ـــ ذلك لأنهم فعلوا ذلك بالطريق الرسمى ، وبغير إيمان بجدواه .
إن ما ينقصهم هو الخيال ، كما أن تصرفاتهم ليست فى مستوى الأوبئة إطلاقا ، والأودية التى يتخيلونها لا تكاد تكفى لعلاج الزكام ، وإذا تركناهم يتصرفون فسيلقون حتفهم ، ونحن معهم .
ـــ هذا جد محتمل ، وينبغى أن أقول : إنهم مع ذلك قد فكروا
وأجاب ريو .
فى استخدام المسجونين فيما أسميه بالأعمال التى تتطلب مجهوداً كبيراً .
ـــ إنى أفضل الرجال الأحرار .
ـــ وأنا أيضا، ومع ذلك فلماذا ؟
ـــ إن أحكام الإعدام تروعنى .
ونظر ريو إلى تارو ، وقال :
ـــ وإذن ؟
ـــ وإذن فلدى خطة لتنظيم تشكيلات صحية من المتطوعين ، إئذنوا لى بالقيام بذلك ، ولنترك إدارة المدينة فى حالها ، هذا إلى أنها قد

أفلت منها الزمام ، أما أنا فلى أصدقاء فى كل مكان ، وسيكونون نواة هذا العمل ، وسأشترك — أنا أيضا — فيها بطبيعة الحال .

وقال ريو :

— لعلك تظن أنى سأقبل بسرور ، إن المرء فى حاجة إلى العون ، ولا سيما فى هذه المهنة ، وهأنذا أتعهد لك بالحصول على موافقة المديرية على الفكرة ، هذا إلى أنهم يصبح فى وسعنا الاختيار ، ولكن ..

وأخذ ريو يفكر ، ثم واصل كلامه قائلا :

— ولكن هذا العمل قد يعرض القائمين به للموت ، وأنت تعرف هذا جيداً ، ومهما يكن من أمر ، فإنه يجب على أن أسألك : هل فكرت فى الأمر جيداً ؟

ونظر إليه تارو بعينيه الشهباوين الهادئتين ، ثم قال :

— ما رأيك فى خطبة پانلو ، يا دكتور ؟

وقد وجه هذا السؤال بشكل طبيعى ، وكان رد ريو عليه طبيعاً كذلك حين قال :

— إن المدة الطويلة التى عملت خلالها فى المستشفيات تجعلنى لا أرحب بفكرة العقاب الجماعى ، ولكنك تعرف أن المسيحيين يقولون ذلك أحياناً دون أن يعتقدوا حقيقة فيما يقولون ، إنهم أحسن مما يبدون .

— ولكنك بلا ريب تظن — مثل پانلو — أن للطاعون حسناته ، وأنه يفتح عيون الناس ، ويدفعهم للتفكير !

وهز الدكتور رأسه كمن نفد صبره ، ثم قال :

— شأن كل أمراض هذا العالم ، كل ما يصدق على أمراض هذا

العالم جميعاً ، يصدق أيضاً على الطاعون . نعم إن ذلك قد يفيد فى أن يساعد بعض الناس على أن يصبحوا عظماء ، ومع ذلك فإننا نرى البؤس والآلام التى يجرها الطاعون ، ونستبسل له ، فلابد وأن نكون مجانين أو عميانا أو جبناء .

ولم يكن ريو قد رفع صوته إلا قليلا ، ولكن تارو أتى بحركة من يده كما لو كان يريد تهدئته ، ثم ابتسم .

وقال ريو — وهو يهز كتفيه — :

— نعم ، ولكنك لم تجب على سؤالى . هل فكرت فى الأمر ؟

واعتدل تارو فى جلسته على المقعد الوثير ، ومد رأسه إلى الضوء ، وقال :

— هل تؤمن بالله يا دكتور ؟

وهنا أيضا كان توجيه السؤال بشكل طبيعى ، ولكن ريو تردد فى هذه المرة بعض الشىء ، ثم قال :

— كلا ، ولكن ماذا تعنى بذلك ؟ إننى فى الظلام ، وأحاول أن أرى الأمور بوضوح ، وقد مضى وقت طويل ، منذ أن أقلعت عن أن أجد فى ذلك غرابة .

— أليس هذا هو الذى يفصلك عن پانلو ؟

— لا أعتقد ذلك . إن پانلو رجل دراسة ، ولم ير الموت كثيراً ، وهو لذلك لا يتكلم إلا باسم إحدى الحقائق . ولكن أقل قسس الريف شأنا — ممن يشرفون على تابعيهم — لابد أن يفكر بنفس الطريقة

التي أفكر بها ، إذا ماسمع حشرجة محتضر . لابد أن يفكر في إيجاد علاج للألم قبل أن يرغب في إظهار ما ينطوي عليه من ميزات .

ونهض ريو واقفا ، وأصبح وجهه الآن مغطى بالظل ، ثم قال :

— لندع هذا جانباً مادمت لا تريد الإجابة .

وابتسم تارو دون أن يتحرك من مقعده ، وقال :

— هل لي أن أجيب بسؤال ؟

وابتسم الطبيب بدوره ، وقال :

— إنك تحب الأحاجي والألغاز . هيا .

وقال تارو :

— هذا هو : لماذا تبذل أنت كل هذا التفاني مادمت لا تؤمن بالله ؟ إن إجابتك على هذا قد تساعدني أنا على الإجابة .

ودون أن يخرج الطبيب من الظل الذي غمر وجهه قال :

إنه أجاب فعلا على هذا السؤال ، وأنه لو كان يعتقد في إله قادر لكف عن علاج الناس تاركا له هـــذا العبء ، ولكن ليس هناك من أحد — ولا حتى بانلو الذي يعتقد أنه مؤمن — نعم ليس هناك من يؤمن بإله من هذا القبيل ، مادمنا لا نرى أحدا يترك له تصريف أمره بأكمله . وفي هذا الصدد — على الأقل — كان ريو يعتقد أنه يسير في طريق الحقيقة حين يكافح ضد الخلق في الحالة التي هو عليها .

وقال تارو :

— آه ! هذه إذن هي الفكرة التي لديك عن مهنتك ؟

وأجاب الطبيب — وقد عاد إلى الضوء من جديد — :

— تقريبا .

فصفر تارو بفمه صفيراً هادئاً ، بينما راح الطبيب ينظر إليه ، وقال الطبيب :

— نعم ، إنك تقول لنفسك : إنه لابد أن الأمر لا يخلو من الغرور ، ولكن ، صدقني ، ليس لدى من الغرور إلا القدر الضروري ، لست أدري ماذا ينتظرني ، ولا ماذا سيحدث بعد كل هذا ، أما في الوقت الحاضر ، فهناك المرضى الذين يجب علينا علاجهم ، وبعد ذلك سيكون لديهم — ولدى أنا أيضا — من الوقت ما يفكرون فيه ، ولكن علاجهم هو المسألة العاجلة التي لا تحتمل التأجيل ، إني أدافع عنهم بقدر ما أستطيع ، هذا كل ما هنالك .

— ضد من ؟

وأدار ريو وجهه نحو النافذة ، وأخذ يتخيل البحر في ذهنه من خلف الأفق الذي ازداد حلكة ، ولم يكن يشعر بغير تعبه ، وفي نفس الوقت كان يقاوم رغبة مفاجئة طائشة عرضت له في أن يفتح قلبه أكثر من ذلك لهذا الرجل الغريب الأطوار ، وإن كان يشعر نحوه بنوع من الأخوة ، ثم استأنف كلامه قائلا :

— لا أدرى شيئا يا تارو ، أقسم لك أنى لا أدرى شيئا .

فعندما دخلت هذه المهنة ، دخلتها من غير شعور ؛ لأنى كنت فى حاجة إليها ؛ لأنها عمل كغيرها من الأعمال . عمل من تلك الأعمال التى يهفو إليها الشبان ، وقد يكون ذلك أيضا لأنها مهنة عسيرة المنال جداً على شخص مثلى من أبناء العمال ، ثم كان لابد لى — بطبيعة الحال — أن أرى

الناس يموتون ، أتعرف أن هناك أناساً يرفضون أن يموتوا ؟ هل سمعت يوماً امرأة تقول : « أبداً » فى لحظة احتضارها ؟ أما أنا فنعم ، وقد لاحظت حينئذ أنه لن يمكننى اعتياد ذلك ، كنت شابا فى ذلك الحين ، وظننت أن ما شعرت به من اشمئزاز ينصب على نظام العالم نفسه، ولكنى أصبحت أكثر تواضعاً بعد ذلك ، غير أنى لم أستطع أن أعتاد رؤية الناس يموتون ، أما فيما عدا ذلك ، فلست أدرى شيئاً . وبعد ..

وهنا صمت ريو ، وجلس من جديد ، كان يشعر بجفاف حلقه ، وقال تارو بلطف :

— وبعد ؟

— وبعد ، ثم عاد إلى التردد وهو ينظر إلى تارو باهتمام ، ذلك شىء يستطيع رجل مثلك أن يفهمه ، أليس كذلك؟ ولكن لما كان نظام العالم قد أسس على الموت ، فقد يكون الأفضل بالنسبة للإله نفسه ألا يؤمن الناس به ، وأن يناضلوا ضد الموت بكل ما أوتوا من قوة ، دون أن يرفعوا أعينهم إلى هذه السماء التى تعتصم بالصمت .

وقال تارو مؤيداً :

— نعم ، أستطيع أن أفهم ذلك ، ولكن انتصاراتكم ستكون دائما مؤقتة ، هذا كل ما فى الأمر .

وأظلم وجه ريو ، وقال :

— دائما ، أعرف ذلك ، ولكن ليس هذا سببا يبرر لنا أن نكف عن الكفاح .

ـــ نعم ليس هذا سببا ، ولكنى حينئذ أتخيل ماذا يعنى هـذا الطاعون بالنسبة لكم .

وأجاب ريو :

ـــ نعم ، هزيمة على طول الخط .

وحدق تارو فى الدكتور برهة ، ثم نهض يمشى متثاقلا ناحية الباب ، وتبعه ريو ، وعندما لحق به قال له تارو ـــ وهو يتشاغل بالنظر إلى قدميه ـــ :

ـــ من علمك كل هذا يا دكتور ؟

وكان جوابه الفورى :

ـــ البؤس .

وفتح ريو باب مكتبه ، وفى الدهليز أخبر تارو أنه نازل معه لعيادة أحد مرضاه فى أحد الأحياء الخارجية ، وعرض عليه تارو أن يرافقه ، فوافق الطبيب . وفى نهاية الدهليز التقيا بمدام ريو ، وقدم لها الطبيب تارو قائلا :

ـــ أحد الأصدقاء .

وأجابت مدام ريو :

ـــ تشرفت جداً بمعرفتك .

وعندما ذهبت أدار تارو وجهه ناحيتها من جديد ، وعلى عتبة الباب حاول تارو أن يضىء نور السلم ولكن عبثا ، فظل السلم غارقا فى الظلام ، وتساءل الدكتور عما إذا كان ذلك إجراء اقتصاديا جديداً ، ولكن لم يكن أحد يدرى من الأمر شيئا ، فمنذ بعض الوقت انقلبت

جميع الأوضاع سواء فى المنازل أم فى المدينة ، وقد يكون ذلك لمجرد أن البوابين والمواطنين — على وجه العموم — لم يعودوا يأبهون لشىء ، ولكن الطبيب لم يجد الوقت الكافى لمواصلة التساؤل ؛ لأن صوت تارو رن خلفه قائلا :

— كلمة أخرى يا دكتور ، حتى ولو بدت لك مدعاة للسخرية : إن الحق كله فى جانبك .

وهز ريو كتفيه لنفسه فى الظلام ، وقال :

— لا أدرى شيئا فى الحقيقة ، ولكن ماذا تعرف أنت عن ذلك ؟

وقال الآخر — دون أى تأثر — :

— أوه ! لم يبق أمامى ما أتعلمه إلا القليل .

وتوقف الطبيب عندما انزلقت قدم تارو من خلفه على إحدى الدرجات ، واستعاد تارو توازنه معتمداً على كتف ريو .

وسأله هذا الأخير :

— أتعتقد أنك تعرف كل شىء عن الحياة ؟

وانطلقت الإجابة فى الظلام يحملها نفس الصوت الهادىء :

— نعم .

ولما خرجا إلى الشارع أدركا أن الوقت قد تأخر ، وأن الساعة ربما بلغت الحادية عشرة ، كانت المدينة صامتة لا تسمع فيها إلا بعض الهمهمات . ولم يلبثا أن سمعا عربة الإسعاف ترن أجراسها من بعيد ، وصعدا إلى السيارة ، وأدار ريو المحرك وهو يقول :

— يجب أن تحضر غداً إلى المستشفى لكى تحقن بالمصل الواقى

حتى ننتهى من ذلك ، ولكن قبل أن تدخل فى هذه المسألة ينبغى أن تقول لنفسك : إن لديك فرصة واحدة للنجاة من كل ثلاث فرص .

— كل هذه التقديرات لا معنى لها يا دكتور ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه ، ومنذ مائة عام اجتاح وباء الطاعون جميع السكان فى إحدى مدن فارس ، ولم ينج منه سوى غاسل الموتى الذى لم يكن قد توقف قط عن ممارسة مهنته .

وقال ريو — بصوت بدا فجأة أكثر احتباساً — :

— لقد احتفظ بفرصته الثالثة ، هذا كل ما فى الأمر ، ولكن الحقيقة أننا نجهل كل شىء عن هذا الموضوع .

وفى هذه اللحظة كانا قد دخلا الحى الخارجى ، وكانت كشافات السيارة ترسل ضوءها فى الشوارع المقفرة ، وما لبثا أن توقفا ، وأمام السيارة سأل ريو تارو عما إذا كان يريد أن يدخل معه،وأجاب الآخر بالإيجاب . وأضاء شعاع منبعث من السماء وجهيهما ، وفجأة انفجر ريو بضحكة ودية ، ثم قال :

— هيا يا تارو ، ما الذى يدفعك إلى أن تشغل نفسك بهذا ؟

— لا أدرى ، ربما كانت فكرتى الخلقية .

— أية فكرة خلقية ؟

— فهمى لحقيقة الأمور .

وولى تارو وجهه شطر المنزل ، ولم يعد تارو يرى وجهه إلا عندما صارا عند العجوز المريض بالربو .

ومنذ اليوم التالى بدأ تارو العمل ، لجمع أول فرقة ، ثم أتبعها بفرق أخرى كثيرة .

ولكن ليس من أغراض الراوى أن يعطى هذه التشكيلات الصحية من الأهمية أكثر مما لها . نعم، لعل كثيراً من مواطنينا كانوا يستسلمون لإغراء المبالغة فى أهمية هذا الدور لو أنهم كانوا فى مكانه ، ولكن راوينا يميل إلى الاعتقاد بأننا عندما نبالغ فى أهمية الأعمال الجميلة ننتهى بأن نوجه إلى الشر تكريما قويا بطريق غير مباشر ؛ ذلك لأننا نفترض أن ليس لهذه الأعمال تلك القيمة إلا لأنها نادرة الوقوع ، وأن أعمال البشر تقوم بالأحرى على دوافع الشر وعدم المبالاة . تلك فكرة لا يشارك الراوى فيها غيره ، فإن الشر الموجود فى العالم يرجع كله تقريباً إلى الجهل دائماً ، وإن طيبة النفس إذا لم تتوفر لها الاستنارة ، قد تؤدى إلى نفس الأضرار التى تنتج عن الشر ، والحقيقة أن الناس أميل إلى الخير منهم إلى الشر ، ولكن ليس هذا هو المطلوب ، ولكنهم يجهلون — إن قليلا وإن كثيراً — وهذا هو ما نسميه الفضيلة والرذيلة ، فأبغض الرذائل ليست إلا رذيلة الجهل الذى يجعل صاحبه يعتقد أنه يعرف كل شىء ، ويعطى لنفسه حق القتل . إن نفس القاتل عمياء ، وليس هناك طيبة نفس حقيقية ، ولا حب جميل إلا وكان مصحوباً بكل ما يمكن من استنارة .

ولذلك يجب أن نحكم على التشكيلات الصحية التى تكونت — بفضل تارو — بنوع من الرضا الموضوعى ، ولذلك لم يسرف الراوى فى استخدام بلاغته للتغنى بإرادة وشجاعة لا يعلق عليهما إلا أهمية معقولة ، ولكنه سيستمر يؤرخ لتلك القلوب ، قلوب مواطنينا التى فرقها الطاعون وأعطشها .

أما أولئك الذين تطوعوا فى المنظمات الصحية ، فلم يكن لهم فضل كبير فى هذا التفانى ، لأنهم كانوا يعلمون أنه ليس فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك ، وأن الذى لا يمكن أن يصدق حقاً هو الإحجام عن هذا العمل ، وقد ساعدت هذه المنظمات مواطنينا على الاندماج فى حالة الطاعون أكثر من ذى قبل ، وأقنعتهم بأنه مادام المرض موجوداً بيننا فإنه ينبغى عمل كل ما يمكن عمله لمكافحته . ولما كان الطاعون قد أصبح هكذا — واجب بعض الناس — فقد بدا على ما هو عليه فى الواقع ، أى على أنه مسألة تهم الناس جميعاً .

وهذا أمر طيب . ولكن ليس من المستساغ أن يهنأ المدرس على أنه يعلم تلاميذه أن « اثنين واثنين تساوى أربعة » ، ولكنه قد يهنأ لأنه اختار هذه المهنة الجميلة ، فلنقل إذن : إن تارو وزملاءه جديرون بالثناء على أنهم قد اختاروا أن يثبتوا للناس أن اثنين واثنين تساوى أربعة ، لا العكس ، ولكن لنقل أيضاً : إن هذه النية الطيبة كانت مشتركة بينهم وبين المدرس وبين كل من كان له قلب كقلب المدرس ، وأن هؤلاء كانوا أكثر عدداً مما نظن ، ذلك الأمر الذى يشرف الإنسان ، هذا على الأقل هو اعتقاد الراوى ، هذا إلى أن ذلك الراوى قد أدرك

ما يمكن أن يوجه إليه من اعتراض ، وهو : أن هؤلاء الرجال قد جازفوا بحياتهم ، ولكن هناك فى التاريخ لحظات يعاقب فيها من يجرؤ على القول بأن اثنين واثنين تساوى أربعة بالموت ، والمدرس يعرف ذلك جيداً . والمسألة ليست فى أن تعرف ما هى المكافأة ، أو ما هو العقاب الذى يستتبعه هذا التفكير ، وإنما تنحصر المسألة فى أن نعرف ما إذا كان اثنان واثنان تساوى أربعة أم لا ، فمواطنونا الذين جازفوا فى هذا الوقت بحياتهم كان عليهم أن يقرروا ما إذا كانوا فى وقت الطاعون أم لا ، وما إذا كان من الواجب عليهم أن يكافحوه أم لا .

وقد دأب كثير من الهداة الجدد فى مدينتنا يقولون : إنه لم يعد هناك جدوى من أى شىء ، وأنه ينبغى أن نجثو على أقدامنا ، وكان تارو وريو وأصدقاؤهما يجيبون على ذلك بما شاءوا ، ولكن النتيجة كانت دائماً ما قد عرفوه ، وهى : أنه يجب علينا الكفاح بطريقة أو بأخرى ، ولا ينبغى أن نجثو على أقدامنا ، المهم هو حماية أكبر عدد ممكن من الناس من أن يموتوا ، ومن أن يذوقوا الفراق الأبدى ، ولم يكن هناك سبيل إلى هذا إلا سبيل واحد ، وهو مكافحة الطاعون ، ولم تكن هذه حقيقة مرضية ولكنها منطقية .

ومن أجل ذلك كان من الطبيعى أن يبذل كاستل العجوز كل ثقته وهمته فى صنع مصل محلى من المواد التى تتفق له ، وكان هو وريو يأملان فى أن يكون مفعول المصل المصنوع من زرع الميكروب نفسه ــ الذى يلوث المدينة ــ أنجع من مفعول المصل الوارد من الخارج ، ولاسيما أن

هذا الميكروب كان يختلف اختلافا طفيفاً عن ميكروب الطاعون على نحو ما هو معروف فى الكتب المقررة .

وكان كاستل يأمل فى أن يحصـــل على أول كمية من مصله فى القريب العاجل .

ولهذا أيضاً كان من الطبيعى أن نرى جران – الذى لا يتسم بأية صفة من صفات الأبطال — يقوم بأعمال السكرتارية للمنظمات الصحية ، وقد كرست بعض الفرق التى كونها تارو نفسها لأعمال الإسعاف الوقائى فى الأحياء المزدحمة بالسكان ، وحاولوا أن يدخلوا فيها قواعد علم الصحة الضرورية ، وقاموا بحصر البدرومات والأسسطح التى لم يكن قد تم تطهيرها ، وقامت فرق أخرى بمساعدة الأطباء فى الزيارات المنزلية ، وتكفلت بنقل المصابين بل وصارت — فيما بعد — تقوم بقيادة سيارات المرضى والموتى كلما عز وجود المختصين ، ولما كان ذلك يتطلب بعض أعمال التسجيل والإحصاء ، فقد قبل جران أن يقوم بها .

ويرى الراوى — من وجهة النظر هذه — أن جران كان أكثر من ريو أو تارو تمثيلا لتلك الفضيلة التى تبعث الحياة فى المنظمات الصحية ، فقد قال نعم بكل ما لديه من عزيمة وهمة ، ودون تردد ، ولم يكن له إلا هدف واحد ، وهو أن يصبح ذا نفع فى الأعمال الصغيرة ، أما الأعمال الأخرى ، فقد كانت سنه لا تقوى عليها ، وقد استطاع أن يكرس من وقته للمنظمات بين ثمانى عشرة ساعة وعشرين ساعة يومياً ، ولما أقبل ريو يشكره بحرارة دهش لذلك ، وقال : « ليس هذا أصعب ما فى الأمر »

فهناك الطاعون ، ولا بد لنا من الدفاع عن أنفسنا ، هذا أمر واضح .
آه لو كان كل شيء في مثل هذه السهولة ! » . وكان بعد ذلك يعود إلى جملته ، وكان يحدث أحياناً في المساء — بعد أن تنتهي أعمال البطاقات — أن يجلس ريو ليتحدث مع جران ، ثم انتهيا بأن أشركا تارو معهما في الحديث ، وفتح جران قلبه لزميليه بسرور لا شك فيه ، وأخذ هذان الأخيران يتتبعان باهتمام العمل الذي استمر يثابر عليه بأناة وصبر وسط الطاعون ، وانتهيا هما أيضاً بأن وجدا فيه نوعاً من الترويح .

وكان تارو كثيراً ما يسأل جران : « كيف حال الفارسة » فيجيب جران هذه الإجابة التي لم تكن تتغير وهو يبتسم ابتسامة عسيرة : « إنها تسير ببطء ، تسير ببطء » . وذات مساء قال جران : إنه قد تخلى نهائياً عن وصف فارسته « بالأنيقة » وأنه سينعتها دائماً منذ الآن « بالرشيقة » وأضاف أن هذا أكثر تشخيصاً . ومرة أخرى قرأ على مستمعيه الجملة الأولى بعد أن أجرى عليها تعديلا فأصبحت كما يلي : « في صباح يوم جميل من أيام شهر مايو أخذت فارسة رشيقة تعبر ممرات غابة بولونيا المزهرة على صهوة فرس رائعة » .

ثم علق قائلا : « على هذا النحو تصبح أحسن من ذي قبل ، أليس كذلك ؟ وقد فضلت « في صباح يوم جميل من أيام شهر مايو » لأن شهر مايو يطول الخبب بعض الشيء » ..

ثم بدا بعد ذلك مشغول البال بالصفة « رائع » ، لأنها لم تكن معبرة في رأيه ، وأخذ يبحث عن التعبير الذي يستطيع في لقطة واحدة أن يصور الفرس الجميلة التي يتخيلها تصويراً فوتوغرافيا ، إن صفة « ممتلئة »

لا تصلح ؛ إنها حقا مشخصة ، ولكنها مبتذلة المعنى ، وقد مال حيناً للصفة « وضاءة » ، ولكنه رأى أنها لا تتسق وموسيقى الجملة ، وذات مساء أعلن بزهو المنتصرين أنه وجدها : « إنها فرس سوداء دهماء » . وذلك أن اللون الأسود يدل على الأناقة فى صورة غير صارخة ، وهذا فى رأيه بطبيعة الحال .

وقال ريو :

— هذا غير ممكن .

— ولماذا إذن ؟

— لأن « دهماء » لا تدل على السلالة ، وإنما على اللون .

— أى لون ؟

— ليس اللون الأسود على أية حال .

— وبدا على جران الارتباك ، وقال :

— شكراً ، ومن حسن الحظ أنك هنا . ولكنك ترى كم هو عسير هذا العمل .

وقال تارو :

— ما رأيك فى « جافخ » ؟ فنظر إليه جران واستغرق فى التفكير ، ثم قال :

— نعم ، نعم !

وأخذت الابتسامة ترتسم على وجهه تدريجيا .

وبعد ذلك بوقت ما ، اعترف جران بأن كلمة « مزهرة » تربكه ، وحيث أنه لم يعرف قط سوى وهران ومونتليمار ، فقد كان يطلب أحيانا

من صديقيه بعض الإيضاحات عن الصورة التى تزدهر بها ممرات الغابة ، والحقيقة أن ريوو تارو لم يستطيعا مطلقا أن يتصورا هذه الممرات مزهرة ، ولكن رسوخ تلك الفكرة فى ذهن الموظف جعلهما يتأرجحان فى رأيهما . ودهش الموظف من عدم تأكدهما ؛ إذ «أن الفنانين وحدهم هم الذين يعرفون كيف ينظرون إلى الأشياء » . ومع ذلك فقد وجده الطبيب ذات مرة فى حالة انفعال شديد ؛ ذلك أنه استبدل كلمة «مزهرة» بعبارة « مليئة بالأزهار » . وأخذ يفرك يديه ، ويقول :

« وأخيراً على هذا النحو تستطاع رؤيتها والشعور بها . ارفعوا قبعاتكم أيها السادة ! » وأخذ يقرأ الجملة بخيلاء . « فى صباح يوم جميل من أيام شهر مايو ، كانت فارسة رشيقة تجول فى ممرات غابة بولونيا المليئة بالأزهار على صهوة فرس جانحة دهماء » . ولكن عندما قرأ هذه الجملة بصوت مرتفع أحس بوقع سىء لنغمتها بسبب الإضافات الثلاث التى فى نهايتها، فتمتم قليلا ، وجلس مهموماً، ثم طلب من الطبيب الإذن بالإنصراف؛ لأنه فى حاجة إلى أن يفكر قليلا .

كانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها على جران الكثير من علامات الشرود فى المكتب ، وقد أسف رؤساؤه كثيرا لوقوع ذلك منه فى وقت كان على البلدية فيه أن تواجه التزامات مضنية بعدد مخفض من الموظفين ، وقد أبدت المصلحة التى يعمل فيها تضررها من ذلك ، ولامه عليه رئيس مكتبه ، وذكره بأنه يتناول مرتبه عن عمل لا يؤديه ، وقال له : « يبدو أنك قد تطوعت فى المنظمات الصحية إلى جانب عملك ، وهذا لا يهمنى فى شىء ؛ فكل ما يهمنى هو عملك ، وإذا أردت أن تكون نافعاً فى هذه

الظروف العصيبة ، فإن أجدى طريقة لذلك هي أن تحسن أداء عملك ، أما ماعدا ذلك فلا جدوى منه » .

وقال جران لريو :

ــ إنه على حق :

وأجابه الطبيب مؤمنا على ما يقول :

ــ نعم ، إنه على حق .

فأضاف قائلا :

ــ ولكنني شارد الذهن ، ولا أدرى كيف أصلح نهاية جملتي .

وكان قد فكر في حذف كلمة « بولونيا » باعتبار أنها تفهم ضمنا ، ولكنه لما قرأ الجملة بهذا التعديل وجد فيها أن كلمة « زهور » تضيف إلى « الغابة » ما كان ينبغي ــ في الحقيقة ــ أن تضيفه « للممرات »،ولقد فكر أيضاً في كتابة « ممرات الغابة المليئة بالأزهار » ، ولكن موقع كلمة « الغابة » بين الاسم والصفة اللذين يفصلهما بصورة تحكمية كان كوخز الإبر في جسمه ، حتى أنه كان يبدو في الحقيقة أكثر إجهاداً من ريو .

نعم ، كان هذا البحث الذى استحوذ عليه كلية يرهقه بالتعب ، ولكنه استمر مع ذلك في عمليات الجمع والإحصاء التي كانت تحتاج لها المنظمات الصحية ، فكان ــ في كل مساء ــ يجهد نفسه في توضيح غامض الجزازات ، وإرفاقها بالأقواس البيانية ، وبذل كل ما لديه من صبر في عرض الحالات على أدق وجه ممكن ، وكثيراً ما كان يذهب

ليلحق بريو فى أحد المستشفيات ، ويطلب منه منضدة فى أحد المكاتب أو المستوصفات ، ثم يجلس إليها مع أوراقه تماما ، كما كان يجلس إلى منضدته فى دار البلدية ، وفى هذا الجو المثقل برائحة المطهرات ، وبالمرض نفسه ، كنت تراه يهز أوراقه ليجفف مدادها ، وهنا كان يحاول بأمانة وإخلاص ألا يفكر فى فارسته ، وألا يعمل إلا ما ينبغى عمله .

نعم ، لو كان حقيقيا أن الناس يحبون أن يتخذوا لأنفسهم أسوات وقدوات فيمن يسمونهم أبطالا ، وإذا كان من الضرورى أن يكون هناك بطل فى هذه القصة ، فإن الراوى يقترح هذا البطل بالذات ، هذا البطل التافه المغمور الذى لا يمتاز إلا بشىء من طيبة القلب ، ويمثل أعلى يدعو للسخرية على ما كان يبدو ، فهذا من شأنه أن يعطى ما للحقيقة للحقيقة وما لجمع اثنين واثنين حاصل جمعهما وهو أربعة ، كما يعطى للبطولة ذلك المكان الثانوى الذى لا تستحق غيره ، أى خلف المطالب السخية التى تتطلبها السعادة ، لا أمامها . وهذا من شأنه أيضاً أن يضفى على هذه القصة طابعها الحقيق ، طابع العلاقات القائمة على المشاعر الطيبة ، أى المشاعر التى لا تقسم بالسوء الصارخ ، ولا بالحماس الذى لا يوجد إلا فى المسرحيات المبتذلة .

كان هذا على الأقل هو رأى الدكتور ريو عندما كان يقرأ فى الجرائد ، أو يسمع فى المذياع النداءات والتشجيعات التى يرسلها العالم الخارجى إلى المدينة التى أصبحت منكوبة بالطاعون ؛ فقد كانت المعونات ترسل كل مساء جوا وبرا إلى المدينة المنعزلة ، وفى نفس الوقت كانت تتقاطر عليها عبارات الرثاء أو الإعجاب على أمواج الأثير ، أو على صفحات

الجرائد ، وفى كل مرة كان جو الملاحم أو الخطب يثير ضجر الطبيب . نعم ، إنه كان واثقا من أن هذا التأييد غير مصطنع ، ولكن لم يكن التعبير عنه إلا باللغة التى اصطلح الناس عليها عندما يحاولون التعبير عما يربطهم بغيرهم من بنى البشر ، ولم تكن هذه اللغة لتنطبق على المجهودات الصغيرة اليومية التى كان يقوم بها جران ، مثلا ، لأنه لم يكن فى وسعها أن تدلنا على المعنى الذى يدل عليه وجود جران وسط الطاعون .

وفى منتصف الليل ، ووسط السكون المطبق الذى كان يسود المدينة المهجورة ، فى ذلك الوقت الذى كان الطبيب يذهب فيه إلى فراشه ليحصل على قدر قصير جداً من النوم ، كان يعمد أحيانا إلى إدارة مفتاح المذياع ، وكانت هناك أصوات مجهولة — ولكنها ضعيفة — تنبعث من أبعد بقاع العالم ، وعبر آلاف من الكيلومترات ، وتحاول — فى غير لباقة — أن تعبر عن مشاركتها للمدينة المنكوبة فى آلامها ، ولكنها إذ كانت تعبر عن هذه المشاركة ، فإنها كانت فى نفس الوقت تدلل على العجز المروع الذى يعانيه كل إنسان حينما يريد أن يقاسم الناس ألما لا يستطيع أن يراه : « وهران ! وهران ! » كان هذا النداء يعبر البحار ، ولكن عبثاً ، كما كان من العبث أيضاً أن يجلس ريو فى حالة طوارىء ، فسرعان ما كانت تدخل البلاغة فى الموضوع ، ويظهر الفارق الجوهرى الذى يفصل بين جران وهذا الخطيب واضحاً جلياً ، نعم وهران ! وهران ! » ولكن الطبيب كان يطيل التفكير ، ويقول فى نفسه : « كلا ، إما أن نحب معاً أو أن نموت معاً ، وليس هناك حل آخر . إنهم جد بعيدين » .

أما ما بقى علينا ذكره قبل أن نصل إلى قمة الطاعون ، أعنى فى ذلك الوقت الذى أخذ الوباء فيه يستجمع كل قواه لكى ينقض على المدينة ، ويستولى عليها نهائياً ، فهى تلك المجهودات الطويلة اليائسة الرتيبة التى كانت تقوم بها البقية الباقية من الناس — مثل رامبير — لاستعادة سعادتهم ، ولكى ينتزعوا من الطاعون هذا الجزء من أنفسهم الذى يدافعون عنه ضد أية إصابة ، تلك كانت طريقتهم فى رفض العبودية التى تهددهم ، ورغم أن هذا النوع من الرفض لم يكن فى الظاهر ذا مفعول كبير كغيره ، فإن الراوى يرى أنه مع ذلك كان له مغزاه ، وأنه يشهد — مع ما فيه من تفاهة ، بل وما ينطوى عليه من تناقض — بما كان لدى كل شخص منا فى ذلك الحين من عزة .

كان رامبير يكافح لكى يمنع الطاعون من أن يطويه تحت جناحه ، فلما بينت له الأدلة أنه لن يستطيع الخروج من المدينة بالطرق المشروعة ، قرر — كما قال لريو — أن يلجأ إلى الوسائل الأخرى ، وقد بدأ الصحفى بخدم المقاهى ؛ لأن خادم المقهى على علم دائماً بكل شىء ، ولكن أول خادم لجأ إليه كان على علم — بوجه خاص — بالعقوبات الشديدة التى يجرها هذا النوع من المحاولات ، بل لقد حدث له فى إحدى هذه المرات أن ظنه الناس محرضاً ، ولم يستطع التقدم من هدفه بعض الشىء إلا بعد

أن التقى بكوتار ، ففى هـذا اليوم كان قد تكلم هو وريو مرة ثانية عن المحاولات غير المجدية التى بذلها هذا الصحفى فى الإدارات ، وبعد ذلك بأيام قلائل تقابل كوتار مع رامبير فى الشارع ، فاستقبله بالصراحة التى أخذ الآن يتبعها فى كل علاقاته ، وقال له :

ــ لاشىء كالمعتاد ؟

ــ كلا ، لا شىء .

ــ لا يمكن الاعتماد على المكاتب ، فهى لم تخلق لتتفهم .

ــ هذا صحيح ، ولكننى أحاول طريقة أخرى ، وهذا أمر عسير .

فقال كوتار :

ــ آه ! أرى ذلك .

إنه يعرف إحدى هذه الخطط ، ولما دهش رامبير لذلك شرح له كيف أنه منذ بعض الوقت يختلط بمقاهى وهران ، وكيف أن له أصدقاء ، وأن لديه معلومات عن وجود منظمة تشتغل بهذا النوع من العمليات ، والحقيقة أن كوتار ــ الذى كانت مصروفاته قد أخذت تتجاوز دخله ــ قد بدأ يشتغل فى تهريب المواد المسعرة ، فكان يبيع السجاير والمشروبات الرديئة التى كانت أسعارها فى صعود مستمر ، والتى أوشكت أن تدر عليه ثروة لا بأس بها .

وسأل رامبير :

ــ هل أنت واثق من ذلك ؟

وأجاب كوتار :

ـــ نعم ، حيث أنهم قد عرضوا على هذه الخطة .

ـــ ولم تستفد منها ؟

فقال كوتار بلهجة الرجل الطيب :

ـــ لاتسيء الظن ، فأنا لم أستفد منها ، لأنى لا أرغب فى الرحيل ، وعندى أسباب لذلك .

وبعد فترة صمت وجيزة أضاف قائلا :

ـــ الا تسألنى ماهى هذه الأسباب ؟

إنى أفترض أن ذلك لايعنينى .

ـــ فى الواقع أن هذا لايعنيك من ناحيه ما ، ولكن من ناحية أخرى . . .

على كل حال من المؤكد أن أحوالى قد تحسنت منذ أن حل الطاعون بيننـا .

واستمع الآخر إلى كلامه ، ثم قال :

ـــ ما الوسيلة للاتصال بهذه المنظمة ؟

وأجاب كوتار :

ـــ آه ، إن الأمر ليس سهلا ، تعال معى .

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر ، وكان الجو قد أخذ يعمل عمله فى المدينة تحت سماء ثقيلة ، وأغلقت أبواب المحال التجارية ، وخلت

الشوارع من المارة ، واضطر كوتار ورامبير أن يسلكا الشوارع ذات الجوانب المغطاة ، وظلا يسيران دون أن يتكلما . كانت هذه إحدى الساعات التى يبدو فيها الطاعون وكأنه محتجب ، وكان من الممكن أن يكون هذا الصمت — هذا الموت الذى يدرك الألوان والحركات — ناشئاً من فعل الصيف ، أو من فعل الوباء ؛ فلم يكن يدرى أحد ما إذا كان الهواء ثقيلا من جراء ما يحمل من أخطار ، أم من الغبار والقيظ المحرق ، ذلك أنه كان يتحتم على الناس أن يلاحظوا ويفكروا لكى يتتبعوا الطاعون ؛ لأنه لا يكشف عن نفسه إلا بعلامات سلبية ، وكان لكوتار ملاحظات دقيقة صحيحة بخصوص الطاعون ، فلفت مثلا نظر رامبير إلى أن الكلاب لا وجود لها فى حين أنها فى الأوقات العادية ترى راقدة على جوانبها على أبواب الممرات ، وهى تلهث ، وتبحث عبثاً عن نسمة رطبة لا وجود لها .

وسلك الرجلان « طريق النخيل » وعبرا ميدان السلام ، وهبطا نحو حى البحرية ، وكان على يسارهما مقهى طلى باللون الأخضر ، واحتمى من الحر بستار مائل من النسيج الأصفر السميك ، فدخله كوتار ورامبير وهما يجففان جبينيهما ، واتخذا مكانيهما على مقعدين من مقاعد الحدائق التى تطوى وتفرد ، أمام مائدة خضراء من الصلب الرقيق . كانت القاعة خاوية تماماً ، وكان طنين الذباب يسمع فى الهواء ، وكان أمامهما على عداد البيع ذى السيقان الملتوية قفص أصفر به ببغاء نفشت ريشها بأجمعه ، وجثمت متهالكة على عشها ، وكانت هناك لوحات تمثل مشاهد حربية معلقة على الجدران . وقد غطتها الأقذار ، ونسجت فوقها

العنكبوت خيوطا سميكة ، وكانت الموائد — بما فيها مائدة رامبير — مغطاة ببعض ذرق الدجاج ، وقد حار رامبير — أول الأمر فى تفسير مصدر هذا الذراق ، حتى رأى ديكا جميلا يخرج بعد قليل من ركن معتم ، ويقفز قفزات صغيرة .

وفى هذه اللحظة كان الحر لا يزال مستمراً فى الارتفاع ، فخلع كوتار سترته ، وضرب بيده على المائدة ، فخرج إليه من أقصى المكان رجل ضئيل الجسم غارق فى « مريلته » الزرقاء ، وما أن رأى كوتار حتى حياه على بعد ، ثم أخذ يتقدم نحوه وهو يزيح الديك من طريقه بضربة قوية من قدمه ، وسأل وسط صياح الديك عما يمكن أن يقدم لهما ، وطلب كوتار نبيذا أبيض ، ثم سأل عن المدعو جارسيا ، وأجاب الرجل الضئيل الجسم : أنه لم ير فى المقهى منذ عدة أيام .

— أتظن أنه سوف يأتى هذا المساء ؟

وقال الآخر :

— آه ! إننى لست صاحب أمره ، ولكن ألست تعرف موعده ؟

— بلى ، ولكن هـــذا لا يهم كثيراً ، إن لدى صديقا أريد تقديمه إليه .

ومسح الخادم يديه المبتلتين فى الجزء الأمامى من « مريلته » ، ثم قال :

— آه ! هذا السيد يهتم هو الآخر بالأعمال ؟

وأجاب كوتار :

— نعم .

وأخذ الرجل الصغير نفساً طويلا من أنفه ثم قال :

— إذن عودا هذا المساء ، فسوف أرسل إليه الصبي

ولما خرجا ، سأل رامبير زميله عن أى أعمال يتحدث ، وأجاب كوتار قائلا :

— إنها أعمال التهريب طبعا ، فإنهم يدخلون البضائع من أبواب المدينة ، ويبيعونها بأسعار مرتفعة .

وقال رامبير :

— حسن ، وهل لهم شركاء ؟

— بالطبع .

وفى المساء كانت مظلة المقهى قد رفعت ، وراحت الببغاء تثرثر فى قفصها ، وكانت موائد الحديد محاطة بالناس الذين لا يلبسون غير الأقمصة ، وما أن دخل كوتار حتى هب أحدهم واقفاً ، وكان يرتدى قبعة من القش على مؤخرة رأسه ، وقميصا أبيض يكشف عن صدر فى لون الطين المحروق ، كان وجهه منتظم الملامح قد دبغته الشمس ، وتتوسطه عينان صغيرتان سوداوان ، وأسنانه بيضاء ، وقد وضع فى أصابعه خاتمين أو ثلاثة ، كان يبدو فى الثلاثين من عمره تقريبا ، وبادرهما الرجل قائلا :

— سلام عليكما ؛ لنشرب عند العداد .

وشربوا ثلاث مرات دون أن يتكلموا ، ثم قال جارسيا :

— ماذا لو خرجنا ؟

وهبطوا تجاه الميناء ، وهناك سأل جارسيا : ما يبغيان منه ، وقال له كوتار : إنه يريد أن يقدم له رامبير، لا من أجل الأعمال ، ولكن من أجل ما يسمونه « بإحدى الخرجات » . وكان جارسيا يمشى أمامه رأسا وهو يدخن ، ثم ما لبث أن وجه إليه بعض الأسئلة مستعملا الضمير « هو » كلما تكلم عن رامبير كما لو لم يكن قد لاحظ وجوده ، ثم قال :

ــ ولماذا ؟

ــ إن زوجته فى فرنسا .

ــ آه .

ثم أضاف قائلا بعد لحظة :

ــ ما مهنته ؟

ــ صحفى .

ــ إنها مهنة يثرثرون فيها كثيراً .

وظل رامبير لائذاً بالصمت ، وأجاب كوتار بقوله :

ــ إنه صديق .

وتقدموا فى صمت . وكانوا قد وصلوا إلى الأرصفة حيث تقوم أسوار عالية تحول دون دخولها ، ولكنهم اتجهوا إلى مشرب صغير يباع فيه السردين المقلى الذى تصاعدت رائحته ، وراحت تداعب أنوفهم ، وأنهى جارسيا كلامه قائلا :

ــ على كل حال ليس هذا من اختصاصى ، بل من اختصاص راءول ، ينبغى أن أعثر عليه ، ولن يكون هذا الأمر سهلا .

وسأله كوتار باهتمام .

ـــ آه ! هل هو مختبىء ؟

ولم يجب جارسيا بشىء ، ثم توقفوا بجوار المشرب الصغير ، والتفت جارسيا إلى رامبير للمرة الأولى ، وقال :

ـــ بعد غد فى الساعة الحادية عشر على ناصية شارع ثكنات الجرك ، فى أعلى المدينة .

واستعد للذهاب ، ولكنه استدار تجاه الرجلين وقال :

ـــ إن الأمر يتطلب بعض المصاريف .

وكان ذلك بمثابة إقرار واقع .

وأيد رامبير ذلك قائلا :

ـــ بكل تأكيد .

وبعد قليل شكر الصحفى كوتار ، وأجابه هذا الأخير فى لهجة مرحة :

ـــ كلا ! يسعدنى أن أؤدى لك خدمة ، ثم إنك صحفى ، وسترد لى ذلك يوماً ما .

ومر يوم ، وفى اليوم الذى يليه عبر رامبير وكوتار الشوارع الكبيرة العارية من الظل ، والتى تؤدى إلى أعلى المدينة ، وكان جزء من ثكنات الجرك قد تحول إلى مستوصف ، وقد تجمهر أمام بابه الكبير بعض الناس الذين أتوا على أمل زيارة لا يمكن التصريح بها ، أو لطلب معلومات تصبح ما بين ساعة وأخرى قديمة لا فائدة منها ، وأيا ما كان

فقد كان هذا التجمهر يسمح بكثير من حركات الذهاب والجيئة . وقد يكون من الممكن افتراض أن هذه الحقيقة ليست مقطوعة الصلة بالطريقة التي تم بها تحديد الموعد بين جارسيا ورامبير .

وقال كوتار :

— أمر غريب ذلك التصميم على الرحيل، على أية حال كل ما يجرى الآن يثير الاهتمام .

وأجاب رامبير :

— ليس بالنسبة لى .

— أوه ! بكل تأكيد ، فهناك بعض المخاطرة، ولكن الناس جميعا كانوا يتعرضون لنفس القدر من المخاطرة — قبل الطاعون — عندما كانوا يعبرون ميدانا مزدحما .

وفى هذه اللحظة وقفت سيارة ريو بحذائهما ، وكان تارو هو الذى يقودها ، أما ريو فقد بدا كمن كان فى سنة ثم استيقظ لتوه كى يتولى مهمة التعريف .

وقال تارو :

— إننا متعارفون يعرف بعضنا البعض ، فنحن نسكن نفس الفندق ، ثم عرض على رامبير أن يوصله إلى المدينة فأجاب :

— كلا فإننا على موعد هنا .

ونظر ريو إلى رامبير ثم قال :

— نعم .

فتساءل كوتار بدهشة :

— آه ! هل الدكتور على علم ؟

ثم صاح تارو ، وهو يلفت نظر كوتار :

— هذا هو قاضى التحقيق .

وهنا تغير تعبير وجه كوتار .

كان السيد أوتون يهبط فعلا الشارع ، ويتقدم نحوهم بخطى قوية ولكن متزنة ، وما أن مر أمام هـــذه المجموعة الصغيرة حتى رفع قبعته بالتحية .

وقال تارو :

— صباح الخير يا سيدى القاضى .

ورد القاضى بالتحية لمن فى السيارة ، ثم نظر إلى كوتار ورامبير اللذين ظلا إلى الخلف ، وحياهما برأسه فى وقار ، وتولى تارو تقديم صاحب الأعمال الصغير والصحفى .

ونظر قاضى التحقيق إلى السماء لحظة ، ثم تنهد وهو يقول : إنها فترة جد عصيبة ، وراح يتساءل :

— قال لى بعض الناس ، يا سيد تارو ، إنك تعمـــل فى تطبيق الإجراءات الوقائية ، وأنا من ناحيتى لا أستطيع أن أؤيدك بكل قوة ، أتظن يا دكتور أن المرض سيزيد انتشاراً ؟

وأجاب ريو : ينبغى أن نأمل غير ذلك ، وقال القاضى مردداً : إنه ينبغى دائماً أن نأمل ، إذ أنه لا يمكن لأحد أن يتكهن بما خبأته

الأقدار ، وسأله تارو عما إذا كانت أعماله قد ازدادت من جراء تلك الحوادث ، فقال :

ـــ بالعكس ، فشا كل ما نسميه بالقانون العام قد نقص عددها ، ولم يبق أمامي إلا أن أفصل في القضايا المترتبة على التقصير في تطبيق الأوضاع الجديدة ، أما القوانين القديمة فلم تكن تراعى في يوم من الأيام بقدر ما تراعى الآن .

فقال تارو .

ـــ معنى هذا أن تلك القوانين تبدو ـ لدى المقارنة ـ خيراً من الجديدة بما لا يدع مجالا للشك .

وتخلى القاضي عن هيئته الحالمة ـ التي كان يتخذها حين راح ينظر إلى السماء كما لو كانت عينه معلقة بها ـ وتفحص تارو بهدوء وقال :

ـــ وما أهمية ذلك ؟ فليس القانون هو المهم ، وإنما الحكم بالإدانة ولكننا لا نملك من الأمر شيئا .

ولما انصرف القاضي قال كوتار :

ـــ أما هذا فهو العدو رقم واحد .

ورحلت السيارة .

وبعد قليل شاهد رامبير وكوتار جارسيا قادماً نحوهما . كان يسير في اتجاههما دون أن يصدر إليهما أية إشارة ، وبدلا من أن يهديهما تحية الصباح قال :

« يجب الانتظار » .

وكان جمع من حولهم ـ وجلهم من النساء ـ ينتظرون فى صمت مطبق ، وكانت أغلبية النساء يحملن سلالا يحدوهن أمل كاذب فى إمكان إيصالها إلى أقاربهن المرضى ، وهذا الأمل كان مصحوباً بفكرة لا تقل عنه جنونا ، هى أن هؤلاء المرضى قادرون على تناول مابها من طعام ، وكان يقوم بحراسة الباب بعض الموظفين المسلحين ، وبين الفينة والفينة كانت تصدر صرخة غريبة تعبر الفناء الذى يفصل الثكنات عن الباب. وحينئذ كانت وجوه الحاضرين القلقة تستدير ناحية المستوصف .

وكان الرجال الثلاثة يتأملون هذا المشهد عندما سمعوا من خلفهم كلمة «صباح الخير» تلقى بصوت واضح رزين ، فالتفتوا وراءهم ، ورغم شدة الحر كان راءول مرتديا ملابسه كاملة دون أى إهمال ، كان طويلا ممتلىء الجسم يرتدى حلة ذات لون قاتم ، وقبعة ملتوية الحافة ، وكان شاحب الوجه بعض الشيء ، أما عيناه فكانتا عسليتين وكان فمه منقبضا ، وكان يتكلم بطريقة سريعة دقيقة ، فقال :

ــ إهبطا ناحية المدينة ، أما أنت يا جارسيا فيمكنك أن تتركنا .

وأشعل جارسيا سيجارته ، وتركهم يبتعدون ، فساروا بخطى سريعة وقد ضبط الآخران مشيتهما على مشية راءول الذى توسطهما ، وقال :

ــ لقد شرح لى جارسيا الأمر ، إنه ممكن التنفيذ ، وهذا على كل حال سيكلفك عشرة آلاف فرنك .

وأجاب رامبير بالقبول ، وقال جارسيا :

ــ تناولا غداء كما معي ـ غداً ـ في مطعم البحرية الأسباني .

ووافق رامبير على ذلك ، وشد راءول على يده وهو يبتسم للمرة الأولى ، وبعد رحيله استأذن كوتار في الانصراف ؛ لأنه كان مشغولا في الغد ، وفضلا عن ذلك فإن رامبير لم يعد في حاجة إليه .

وفي اليوم التالي عندما دخل الصحفي المطعم الأسباني استدارت جميع الرءوس التي في طريقه ناحيته ؛ ذلك أن هذا القبو الظليل الواقع في أسفل أحد الشوارع الصغيرة التي ألهبتها الشمس بسياطها لا يزوره من الرواد سوى أناس أكثرهم ذوي سحنة أسبانية،وكان راءول يجلس إلى إحدى الموائد ، فما أن أبدى إشارة إلى رامبير حتى اتجه ناحيته ، وبذلك زال العجب من على الوجوه ، وعادت إلى ما كان أمامها من صحاف .

وكان يرافق راءول على المائدة رجل طويل نحيل ، قد أهمل حلاقة لحيته ، وكان ذا كتفين عريضتين بشكل غير عادي ، ووجهه يشبه وجه الحصان ، وشعره خفيف متناثر ، وقد شمر عن ساعديه ، فبدا ذراعاه المغطاتان بالشعر،وعندما قام راءول بتقديم رامبير هز رأسه ثلاث مرات، ولم ينطق راءول باسم الرجل ، وإنما كان يشير إليه أثناء الحديث بقوله « صديقنا » . وبدأ يقول :

ــ صديقنا يعتقد أن في إمكانه مساعدتك ، وهو سوف . .

ثم توقف راءول قليلا ؛ لأن الخادم حضرت تستفسر عما يطلبه رامبير ، ثم واصل كلامه قائلا : إنه سوف يصلك باثنين من أصدقائنا ، وهؤلاء سوف يعرفانك بالحراس الذين في صفنا ، ولكن الأمر لن

ينتهى عند هذا الحد ، فينبغى أن يختار الحراس أنفسهم اللحظة المناسبة وأسهل الطرق هى أن تبيت بعض الليالى عند أحدهم ، وهو يسكن قرب أبواب المدينة ، ولكن قبل ذلك سيقوم صديقنا بعمل العقود الضرورية ، وهو الذى ستصفى معه الحساب عندما يتم كل شىء .

وهنا هز الصديق رأسه الذى يشبه رأس الحصان مرة أخرى دون أن يتوقف عن مضغ سلاطة الطماطم والفلفل الأخضر التى كان قد بدأ يلتهمها بشراهة ، ثم تكلم بلهجة أسبانية خفيفة ، فعرض على رامبير أن يتقابلا بعد غد فى الساعة الثامنة صباحاً تحت قبوة باب الكاتدرائية .

وعلق رامبير بقوله :

ـــ ما زال أمامى يومان !

فأجاب راءول :

ـــ ذلك لأن الأمر ليس سهلا ؛ إذ يجب العثور على الرجال ، وأومأ الحصان برأسه مرة أخرى ، ووافق رامبير دون تحمس ، وانقضى ما تبقى من وقت الغداء فى البحث عن موضوع للحديث ، ثم عثروا عليه بغاية السهولة عندما اكتشف رامبير أن الحصان من لاعبى كرة القدم . تلك اللعبة التى مارسها هو نفسه زمنا ، وحينئذ أخذوا يتحدثون عن بطولة فرنسا ، وعن قيمة الفرق الإنجليزية المحترفة ، وعن خطة ترتيب اللاعبين فى شكل W . ولما انتهى الغداء كان الحصان قد بلغ من التحمس أشده ، ورفع الكلفة بينه وبين رامبير ، وراح يبذل جهده فى إقناعه بأن أجمل مكان فى الفريق هو مكان متوسط الدفاع ، وقال له : « أنت تعرف من هو

متوسط الدفاع ، إنه هو الذى يوزع اللعب ، وتوزيع اللعب هذا هو كل كرة القدم ، .وكان هذا أيضاً رأى رامبير ، ولو أنه لم يلعب إلا فى مركز متوسط الهجوم، ولم تتوقف المناقشة إلا عندما انتهى جهاز الراديو من الأغانى العاطفية التى كان يذيعها بصوت يصم الآذان ؛ لكى يعلن أن الطاعون قد قتل فى الليلة الماضية مائة وسبعة وثلاثين ضحية ، ولم يحدث هذا النبأ أى رد فعل فى الحاضرين ، وحينئذ هز الرجل الحصان كتفيه، ونهض ، وتبعه راءول ورامبير .

وشد متوسط الدفاع على يد رامبير بقوة ، وقال :

ــ إسمى جوانزاليس .

وبدا لرامبير أن هذين اليومين لا نهاية لهما ، وقد ذهب إلى ريو ، وقص عليه مساعيه بالتفصيل ، ثم صحبه فى إحدى زياراته ، وودعه أمام باب المنزل الذى كان ينتظره فيه مريض مشتبه فى مرضه ، وحينئذ سمع فى الممر وقع خطوات، وضوضاء أصوات تخطر الأسرة بحضور الطبيب، وتمتم ريو ــ الذى كان يبدو عليه التعب ــ قائلا :

ــ عسى ألا يتأخر تارو .

وسأله رامبير بقوله :

ــ هل زاد انتشار الوباء سرعة ؟

وأجاب ريو قائلا : الواقع ليست هذه هى المشكلة ، بل إن الخط البيانى يرتفع بسرعة أقل من ذى قبل ، وكل ما فى الأمر أن وسائل مكافحة الطاعون ليست كثيرة ، ثم قال :

— إننا تنقصنا المعدات، ومن عادة كل الجيوش فى العالم أن تستعيض بالرجال عن نقص المعدات، ولكننا نحن ينقصنا الرجال أيضاً .

فقال رامبير : لقد جاءنا أطباء من الخارج ، وكذلك بعض الموظفين الصحيين .

وأجاب ريو :

— نعم ، عشرة أطباء، ومائة رجل ، وهذا يبدو كثيراً فى الظاهر ، ولكنه لا يكاد يكفى بالنسبة لحالة المرض الراهنة ، وإذا ازداد انتشار المرض فلن يعود هذا العدد كافيا .

ثم أصغى للضوضاء المنبعثة من الداخل ، وابتسم لرامبير ، وقال :

— نعم ينبغى أن تسرع فى إنجاح خطتك .

وغشيت سحابة قاتمة وجه رامبير ، وقال بصوت مكتوم :

— إنك تعرف أنه ليس هذا هو ما يحملنى على الرحيل .

وأجاب ريو : أنه يعرف ذلك ، ولكن رامبير أردف قائلا :

— أعتقد أننى لست جباناً ، على الأقل فى أغلب الأحيان .

وقد سنحت لى الفرصة لإثبات ذلك ، ولكن هناك أفكاراً لا يمكننى احتمالها .

وحدق الطبيب فى وجهه ، وقال :

— سوف تجدها .

— ربما ، ولكنى لا أستطيع أن أتحمل فكرة أن هذا الموقف قد يدوم ، وأن الهرم سيدركها ، قبل أن نلتقى ، فالمرء يبدأ فى الهرم فى

الثلاثين ، وينبغى للإنسان أن يستفيد من كل شىء ، لست أدرى إذا كنت تستطيع أن تفهمنى .

وغمغم ريو قائلا : إنه يستطيع أن يفهمه ، وفى هذا الوقت قدم تارو ، وكان يبدو عليه الاهتمام ، وقال :

ـ لقد طلبت توا من پانلو أن ينضم إلينا .

وسأله الطبيب :

ـ وبعد ؟ فأجاب :

ـ لقد فكر ، ثم قال : نعم .

وقال الطبيب :

ـ هذا يسرنى ، ويسعدنى أن أعرف أنه خير من وعظه .

وقال تارو :

ـ كل الناس على هذه الحال ، كل ما يجب عمله هو إعطاؤهم الفرصة ، ثم ابتسم ، وغمز بعينيه ناحية ريو الذى قال :

ـ إن مهمتى فى الحياة هى خلق الفرص .

وقال رامبير :

ـ إسمحا لى ، فينبغى أن أرحل .

وفى يوم الخميس المحدد للقاء ، ذهب رامبير تحت بوابة الكاتدرائية قبل الساعة الثامنة بخمس دقائق ، وكان الجو ما زال رطبا ، وقد تناثرت فى السماء بعض غمامات صغيرة بيضاء مستديرة ، لا شك أن حرارة النهار لن تلبث أن تبددها .

وكانت رائحة الرطوبة الخفيفة تتصاعد من الحشائش رغم جفافها ، أما الشمس المختفية خلف منازل الجهة الشرقية ، فلم تكن تدفىء إلا قبعة تمثال «چان دارك» المطلى كله بالذهب ، والذى يزين الميدان ، ودقت الساعة ثمانى دقات فخطا رامبير بضع خطوات تحت البوابة المقفرة ، وداعب سمعه من الداخل بعض الترانيم الدينية الغامضة مصحوبة بروائح عتيقة من روائح القبو والبخور ، وفجأة توقفت الترانيم ، وخرج من الكنيسة نحو عشرة هياكل بشرية صغيرة سوداء ، وأخذت تركض بخطاها الصغيرة ناحية المدينة ، وبدأ رامبير يفقد صبره ، وأتت هياكل أخرى صغيرة ، وأخذت تصعد السلم متجهة نحو البوابة ، وأشعل رامبير سيجارة ، ثم تنبه إلى أن المكان قد لا يكون من الأماكن المصرح فيها بذلك .

وفى الثامنة والربع بدأت أراغن الكنيسة تعزف بصوت مرتفع ، ودخل رامبير تحت القبة المعتمة ، وبعد لحظة استطاع أن يلمح فى قاعة الكنيسة الهياكل الصغيرة التى مرت أمامه ، كانت كلها متجمعة فى ركن واحد أمام شىء يشبه المذبح ، قد أنشىء بصورة ارتجالية ، ووضع عليه تمثال للقديس « روش » تم صنعه بسرعة فى أحد مصانع المدينة ، وكانت هذه الهياكل — وهى جاثية على ركبها — تبدو كما لو كانت قطعا من الجلد الجاف قد تاهت فى لوحات بارزة كابية اللون ، أو قطعاً من الظل قد تجمدت ، وأصبحت وهى تتناثر هنا وهناك لا تزيد سمكا عن الضباب الذى تطفو عليه ، ومن فوق رءوسها كانت الأراغن تعزف تقسيمات لا نهاية لها .

وعندما خرج رامبير كان « جونزاليس » يهبط الدرج ، ويتجه ناحية المدينة ، وقال للصحفى :

— لقد ظننت أنك عدت أدراجك ، وهذا أمر طبيعى .

وشرح له كيف أنه انتظر أصدقاءه الذين كان معهم على موعد آخر حدده لهم فى مكان لا يبعد كثيراً عن هنا فى الساعة الثامنة إلا عشر دقائق ، ولكنه انتظرهم عشرين دقيقة ودون جدوى ، ثم علق بقوله :

— من المؤكد أن هناك عائقاً عاقهم ، فالمرء ليس دائما على راحته فى مثل هذا العمل الذى نقوم به .

ثم عرض على رامبير موعداً آخر فى اليوم التالى ، وفى نفس الساعة أمام النصب التذكارى للموتى ، وتنهد رامبير وهو يزيح قبعته إلى الخلف ، وأنهى جونزاليس كلامه وهو يضحك قائلا :

— لا عليك . فكر قليلا فى كل حيل اللعب من هبوط وتمرير ، وكل ما ينبغى القيام به قبل أن نصيب الهدف .

وأجاب رامبير :

— بكل تأكيد ، ولكن اللعب لا يستغرق إلا ساعة ونصف ساعة .

والنصب التذكارى للموتى فى وهران يقع فى المكان الوحيد الذى تمكن منه رؤية البحر على بعد ، ويعتبر هذا الموقع نوعاً من النزهة تمتد على مسافة قصيرة بطول الأراضى الضحلة التى تحيط بالميناء ، وكان رامبير أول من وصل إلى المكان المحدد ، فجعل يقرأ — باهتمام — قائمة أسماء الذين ماتوا فى ساحة الشرف ، وبعد بضع دقائق اقترب منه رجلان ، ونظرا

إليه بغير اكتراث ، ثم ذهبا ، واستندا بمرفقيهما على السور ، وبديا كما لو كانا قد استغرقا فى تأمل الأرصفة الخاوية المقفرة ، كانا متشابهين فى الطول ، ويلبس كل منهما سروالا أزرق اللون ، ومن فوقه قميص من نسيج التريكو قصير الكمين ، وفى لون زرقة البحر ، وابتعد الصحفى قليلا ثم جلس على مقعد يستطيع منه أن يتأملهما على رسله ، ولاحظ حينئذ أن عمر كل منهما لا يزيد على عشرين عاما ، وفى هذه اللحظة رأى جونزاليس يتقدم ناحيته ، وهو يعتذر عن تأخره ، وقال له :

— هؤلاء هم أصدقاؤنا ، ثم صحبه ناحية الشابين ، وقدمهما إليه باسمى : « مارسل ، ولويس » . كانا متشابهى الوجه ، ولذا رجح رامبير أن يكونا أخوين ، وقال جونزاليس :

— أما وقد تم التعارف ، فينبغى تدبير المسألة ذاتها .

وحينئذ قال مارسيل — أو لويس — أن دورهما فى الحراسة يبدأ بعد يومين ، ويستمر أسبوعا ، وأنه ينبغى اختيار أنسب الأيام ، وقد كان هناك أربعة حراس مكلفون بحراسة الباب الغربى للمدينة ، أما الحارسان الآخران فكانا جنديين نظاميين ، واستبعدت فكرة ضم هذين الأخيرين إلى العملية ؛ لأنهما من ناحية غير موثوق فيهما ، ومن ناحية أخرى ؛ لأن ذلك يزيد التكاليف ، وكان يحدث فى بعض الأمسيات أن يذهب هذان الحارسان لقضاء طرف من الليل فى القاعة الخلفية لمشرب يعرفانه ، ولذلك عرض مارسيل — أو لويس — على رامبير أن يحضر للإقامة عندهما قريباً من أبواب المدينة ، وأن ينتظر حتى يحضر من يصحبه ، فى هذا الحين يصبح العبور غاية فى السهولة ، ولكنهما أخبراه أنه ينبغى الإسراع

فى التنفيذ ، لأن الحديث كان يدور منذ قليل عن مضاعفة الحراسة خارج المدينة .

ووافق رامبير ، وقدم لهم بعض ما تبقى لديه من سجاير ، وهنا سأل أحد الشابين — الذى لم يكن قد تكلم حتى الآن — جونزاليس عما إذا كانت مسألة النفقات قد اتفق عليها ، وما إذا كان من الممكن دفع بعض المبلغ مقدما .

وقال جونزاليس :

— كلا ، ليس هناك ما يدعو لذلك ؛ فهو من رفاقنا ، وستدفع النفقات وقت الرحيل .

ثم اتفقوا على موعد جديد ، واقترح جونزاليس أن يتناولوا العشاء فى المطعم الأسبانى بعد غد ، ومن هناك يستطيعون التوجه إلى منزل الحارسين ، فقال لرامبير :

— أما عن الليلة الأولى ، فسأقضيها معك .

وفى اليوم التالى كان رامبير يصعد إلى غرفته ، فالتقى بتارو الذى قال له :

— إنى ذاهب للحاق بريو ، أتريد الذهاب معنا ؟

وأجاب رامبير - بعد قليل من التردد - :

— أخشى أن يكون فى ذلك ما يضايقه ، فقال تارو :

— لا أظن ذلك ، فقد كلمنى عنك كثيراً .

وأخذ الصحفى يفكر ، ثم قال :

ـــ إصغ إلىّ . إذا كان لديكما شيء من الوقت بعد العشاء ـ حتى ولو كان الوقت متأخراً ـ فاحضرا إلى مشرب الفندق أنتما الاثنان .

وقال تارو :

ـــ هذا يتوقف عليه وعلى الطاعون .

ومع ذلك ، ففى الحادية عشرة مساء دخل ريو وتارو المشرب الضيق الصغير ، وكان فى المشرب نحو ثلاثين رجلا يجلسون جنباً إلى جنب ، ويتكلمون بصوت مرتفع ، ولما كان ريو وتارو قادمين لتوهما من المدينة الصامتة الموبوءة ، فقد شعرا ببعض الارتباك فتوقفا ، ثم لم يلبثا أن فهما سبب هذا الصخب عندما عرفا أن الفندق مازال يقدم المشروبات الروحية ، وكان رامبير يجلس أمام أحد طرفى العداد ، فأشار إليهما من أعلى مقعده ، فجلسا من حوله بعد أن أزاح لهما جاراً كثير الصخب ، وسألاه :

ـــ ألا يفزعك الشراب ؟

وأجاب رامبير :

ـــ كلا ، على العكس من ذلك .

واستنشق ريو من كأسه رائحة أعشاب مرة ، وكان من الصعب التحدث فى مثل هذه الضوضاء ، ولكن كان يبدو أن كل ما يشغل رامبير هو الشراب فى هذه اللحظة ، ولم يكن فى مقدور الطبيب بعد أن يحكم عما إذا كان رامبير قد ثمل أم لا . أما المائدتان اللتان كانتا تملآن ما تبقى من المكان ، فقد جلس على إحداهما أحد ضباط البحرية ، وقد تعلقت بكل

ذراع من ذراعيه امرأة ، وكان الضابط يقص على جار له — ضخم الجسم محتقن الوجه — أنباء وباء للتيفوس فى القاهرة ، وكان يقول : «معسكرات، لقد أنشئوا معسكرات للأهالى بها خيام المرضى ، وحول المعسكرات أقيم نطاق من الحراسة يطلق النار على كل أسرة تحاول أن تحضر سراً بعض الأدوية البلدية ، إنه حكم قاس ، ولكنه عادل » .

أما المائدة الأخرى ، فكان يشغلها شبان أنيقو الملبس ، لم يكن من الممكن تبين حديثهم الذى كان يضيع وسط ضجيج أغنية « مستوصف سان جيمس » التى كانت تنطلق من جهـــاز « بيك آب » وضع فى مكان مرتفع .

وقال ريو — وهو يرفع صوته — :

— هل أنت راض ؟

وأجاب رامبير :

— المسألة تقترب ، وقد تكون خلال هذا الأسبوع .

وصاح تارو :

— يا للأسف .

— ولماذا ؟

ونظر تارو إلى ريو الذى قال :

— أوه! إن تارو يقول ذلك : لأنه كان يظن أنه فى إمكانك مساعدتنا هنا ، ولكنى أفهم جيداً رغبتك الشديدة فى الرحيل .

وهنا عرض تارو على ريو أن يقوما بجولة أخرى ، وهبط رامبير من مقعده ، وحدق فى وجهه للمرة الأولى ، ثم قال :

فى أى شىء يمكننى أن أكون ذا فائدة ؟

وأجاب تارو ـ وهو يمد يده إلى كأسه فى تباطؤ ـ :

ــ فى منظماتنا الصحية .

وعادت إلى رامبير سيما التفكير التى عرف بها ، ثم صعد مرة أخرى إلى مقعده .

وما أن أتى تارو على ما فى كأسه ، حتى أخذ ينظر إلى رامبير باهتمام ، وقال :

ــ ألا ترى أن هذه المنظمات ذات نفع ؟

وأجاب الصحفى :

ــ إنها شديدة النفع .

ثم شرب ما كان قد تبقى فى كأسه ، ولاحظ ريو أن يده ترتعش ، فرجح أن يكون قد وصل إلى حالة الثمل التام .

وفى اليوم التالى ، عندما دخل رامبير المطعم الأسبانى للمرة الثانية ، ووسط جماعة صغيرة من الرجال كانوا قد وضعوا مقاعدهم أمام المدخل ليستمتعوا بأمسية ذهبية . بدأت فيها الحرارة فى الهبوط ، وكانوا يدخنون تبغاً ذا رائحة نفاذة .

أما فى الداخل ، فكان المطعم شبه مقفر ، وذهب رامبير للجلوس حول

مائدة فى أقصى القاعة كان قد قابل عليها جونزاليس فى المرة الأولى ، وقال للخادمة : إنه ينتظر بعض الأشخاص ، وكانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف ، وقد أخذ الناس بالتدريج يدخلون قاعة الطعام ، ويتخذون فيها أماكنهم ، وبدأ الخدم فى تقديم طلبات الرواد ، وامتلأت القبة المنخفضة بعجيج أدوات المائدة المختلط بأصوات المحادثات المكتومة .

وفى الساعة الثامنة كان رامبير لايزال ينتظر ، ثم أوقدت المصابيح وحضر رواد جدد ، واتخذوا أماكنهم على مائدته ، وهنا طلب رامبير عشاءه ، وعندما بلغت الساعة الثامنة والنصف كان قد انتهى من عشائه دون أن يرى جونزاليس أو الشابين ، فأخذ يدخن لفائفه ، وأخذت القاعة تخلو رويداً رويداً ، وخيم الليل — بسرعة — فى الخارج ، وهبت نسمة دافئة من البحر فداعبت ستائر النوافذ برقة ، ولما بلغت الساعة التاسعة لاحظ رامبير أن المطعم قد خلا تماماً ، وأن الخادمة تنظر إليه فى دهشة ، فدفع حسابه وانصرف ، ولدى خروجه من المطعم وجد فى مقابلته مقهى مفتوح الأبواب ، فاتخذ مكانا فيه على العداد ، لكى يراقب مدخل المطعم ، ولم تدق الساعة التاسعة والنصف حتى كان قد اتجه نحو فندقه ، وهو يفكر عبثاً فى وسيلة للاتصال بجونزاليس الذى لم يكن يعرف عنوانه ، كما أن فكرة استئناف المحاولات من جديد كانت تبدو له فكرة شنيعة .

فى هذه اللحظة ، وفى هذا الليل الذى لا تغمره إلا عربات الإسعاف المسرعة تنبه رامبير — كما قال هو نفسه للدكتور ريو بعد ذلك — إلى أنه كان قد نسى زوجته تقريباً طوال هذه المدة التى وجه فيها كل اهتمامه

للبحث عن فتحة فى الجدار الذى يفصله عنها ، ولكن كانت هذه أيضا هى اللحظة التى رأى فيها جميع السبل وقد سدت أمامه من جديد ، فرآها تعود ثانية إلى احتلال بؤرة رغباته مع نوع من الشعور بالألم جعله يعدو نحو فندقه عدواً لكى يفر من تلك الحروق القاسية التى لم تكف مع ذلك عن إلهاب صدغيه .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ذهب إلى ريو ليسأله عن طريقه للعثور على كوتار . وقال له :

— لم يبق أمامى إلا أن أتتبع الخيط من جديد .

وأجابه ريو قائلا:

— تعال غداً مساء ، فقد طلب إلى تارو أن أدعو كوتار، لست أدرى لماذا ، وسوف يحضر فى الساعة العاشرة ، فلتحضر أنت فى العاشرة والنصف .

وعندما حضر كوتار لدى الطبيب فى اليوم التالى كان تارو وريو يتكلمان عن حالة شفاء غير متوقع حدثت فى قطاع خدمة هذا الأخير الذى أخذ يعلق بقوله :

— حالة من عشر ، إنه لسعيد الحظ .

وقال كوتار :

— آه ! إذن لم تكن هذه حالة طاعون .

وأكدا له أنها كانت حالة طاعون ، ولكنه استمر فى إنكاره ، وقال :

ـــ هذا مستحيل مادام المريض قد شفى ، أنتما تعرفان ــــ كما أعرف تماماً ــــ أن الطاعون لا يعرف الصفح .

وأجاب ريو بقوله :

ـــ هذا على وجه العموم ، ولكننا مع التذرع بشيء من العناد نصادف بعض المفاجآت .

فانفجر كوتار ضاحكا ثم قال :

ـــ إن ظواهر الأمور لا تدل على ذلك . هل سمعت الأرقام هذا المساء ؟

وقال تارو ــــ وهو ينظر إلى هذا الرجل ذى الدخل الثابت بكثير من حسن النية ــــ : إنه يعرف الأرقام ، ويعرف أن الموقف جد خطير ، ولكن علام يدل ذلك ؟ إنه يدل على وجوب اتخاذ إجراءات خاصة أشد من ذى قبل .

ورد عليه كوتار قائلا :

ـــ لقد اتخذتم فعلا هذه الإجراءات .

وأجاب ريو :

ـــ نعم ولكن ينبغى أن يتمسك بها كل شخص من ناحيته .

ونظر كوتار إلى تارو دون أن يفهم ما يريد ، فقال هذا الأخير إنه هناك رجالا كثيرين لا يزالون سلبيين ، وأن الوباء مسألة كل فرد ، فعلى كل فرد إذن أن يؤدى واجبه ، والمنظمات الصحية مفتوحة الأبواب للجميع .

وقال كوتار :

— هذه فكرة ، ولكنها لن تؤدى إلى نتيجة ، فالطاعون قوة هائلة ،
فرد تارو قائلا فى سعة صدر :

— لن نعرف ذلك إلا بعد أن نكون قد قمنا بجميع ما فى وسعنا .

وفى هذه الأثناء كان ريو يجلس إلى مكتبه يعيد نقل بعض الجزازات .
أما تارو ، فكان لا يزال ينظر إلى ذى الدخل الذى كان يتململ على مقعده ،
وفجأة وجه اليه الخطاب قائلا :

— لماذا لا تنضم إلينا ياسيد كوتار ؟

وهب الآخر واقفاً فى شىء من الحنق ، وأمسك بقبعته المستديرة فى
يده ، ثم قال :

— هذه ليست مهنتى .

ثم أضاف قائلا بلهجة تحد :

— هذا إلى أن أحوالى قد تحسنت مع الطاعون ، ولا أدرى لماذا
أشغل نفسى بمحاولة إيقافه .

وضرب تارو بيده على جبينه - كما لو كانت قد برقت فى خاطره
إحدى الحقائق فجأة ، وقال :

— هذا صحيح ، لقد نسيت ، فلولا ذلك لقبض عليك .

وارتعد كوتار من رأسه إلى قدمه ، وأمسك بمقعده كما لو كان
يحاول منع نفسه من السقوط ، وكان ريو قد كف عن الكتابة ، فنظر
إليه بجد واهتمام ، وصاح صاحب الدخل قائلا :

— من قال لك هذا ؟

فبدت الدهشة على تارو ، وقال :

ــ أنت نفسك أو على الأقل هذا هو ما فهمناه أنا والدكتور .

وهنا أخذ كوتار يتمتم بكلام غير مفهوم ، وقد اجتاحته نوبة غضب حاد مفاجىء ، فقال له تارو :

ــ هدىء من ثورتك ، فلن أكون أنا والدكتور ممن يبلغون عنك ، فسألتك لا تهمنا ، فضلا عن أننا لم نكن من محبي الشرطة فى يوم من الأيام . هيا ، إجلس .

ونظر ذو الدخل إلى مقعده ، ثم جلس بعد شىء من التردد ، وبعد لحظة تنهد ، وانبرى يعترف قائلا :

ــ إنها قصة قديمة بعثوها بعد أن ظننت أنها قد ذهبت فى طى النسيان ، ولكن شخصا ما ، عاد فتكلم عنها ، وإذا بهم يستدعوننى ، ويطلبون منى أن أظل تحت تصرفهم حتى نهاية التحقيق ، وفهمت أنهم سوف ينتهون بالقبض على .

وسأل تارو :

ــ هل الأمر خطير .

فقال : هذا يتوقف على ما تقصده بذلك ، إنها ليست جريمة قتل على أية حال .

فسأله من جديد ؟

ــ أهو السجن ، أم الأشغال الشاقة ؟

وبدا كوتار فى شدة الانهيار ، وهو يقول .

ــ السجن لو كان لى حظ :

ولكنه بعد لحظة أردف قائلا بحدة :

ـــ إنها غلطة وقعت فيها ، وكل الناس يخطئون ، ولا أستطيع أن أتحمل فكرة القبض على من أجل هذا، أو إبعادى عن بيتى، وعن عاداتى وكل من أعرفهم .

وسأله تارو :

ـــ آه ! أمن أجل هذا اخترعت فكرة شنق نفسك ؟

ـــ نعم ، وكانت سخافة بكل تأكيد .

وتكلم ريو للمرة الأولى ، وقال لكوتار : إنه يفهم مايعتريه من قلق ، ولكن الأمور قد تعود فتسير سيراً حسنا .

فقال :

ـــ أوه ! أما فى الوقت الحاضر ، فإنى أعرف تماماً أن ليس هناك ما أخشاه .

وأجاب تارو :

ـــ أرى ذلك ، ولهذا فأنت لاتنضم إلى منظماتنا .

وكان كوتار فى هذه الأثناء يدير قبعته بين يديه ، فنظر إلى تارو نظرة حائرة ، وقال :

ـــ لا ينبغى أن تلومونى على ذلك .

ورد تارو وهو يبتسم :

ـــ بكل تأكيد لا ، ولكن حاول على الأقل ألا تساعد فى نشر الميكروب عامداً .

واعترض كوتار بأنه لم يكن هو الذى جاء بالطاعون ، وأن هذا الوباء

قد أتى من تلقاء نفسه ، وأنه إذا كان الطاعون قد ساعد فى تحسن أحواله فى الوقت الحاضر، فليس ذلك مما يحسب عليه، وعندئذ دخل رامبير، بينما كان كوتار يضيف قائلا فى قوة :

— ومهما يكن من شيء ، ففى رأيى أنكم لن تصلوا إلى شيء .

وعلم رامبير أن كوتار يجهل عنوان جونزاليس ، وإن كان فى الإمكان أن يعودا معاً إلى المقهى الصغير ، وحددا موعداً لذلك فى اليوم التالى ، ولما أبدى ريو رغبته فى أن يكون على علم بما يتم ، دعاه رامبير إلى أن يزوره مع تارو فى غرفته فى نهـــاية الأسبوع ، وفى أية ساعة من ساعات الليل .

وفى الصباح ذهب كوتار ورامبير إلى المقهى الصغير، وحددا لجارسيا موعداً فى المساء، أو فى اليوم التالى — إذا كان هناك ما يعوقه هذا المساء — وفى المساء انتظراه دون جدوى . أما فى اليوم التالى ، فقد حضر جارسيا واستمع فى صمت إلى حكاية رامبير ، ولم يكن قد درى شيئاً مما جرى ، ولكنه كان يعرف أنهم حاصروا أحياء بأكملها مدة أربع وعشرين ساعة من أجل التحقق من مسألة السكن ، ومن الجائز أن يكون جونزاليس والشابان لم يتمكنا من عبور الحواجز ، وقرر أن كل ما يستطيع عمله هو أن يصلهما مرة ثانية براءول ، وأن هذا لن يكون قبل يومين ، بطبيعة الحال .

وقال رامبير :

— ينبغى البدء من جديد ، هذا ما ظننته .

وصح ما افترضه جارسيا ، فقد التقى بهما راءول غداة اليوم التالى فى ركن من أركان أحد الشوارع ، وأخبرهما بأنه قد تم تفتيش الأحياء المتباعدة ، ولابد من إعادة الاتصال بجونزاليس ، وبعد ذلك بيومين كان رامبير يتناول غداءه مع لاعب كرة القدم الذى قال له :

ــ هذا غباء منا ، فقد كان ينبغى أن نتفق على طريقة للقاء .

وكان هذا هو أيضاً رأى رامبير ،وواصل لاعب الكرة كلامه قائلا:

ــ غداً صباحاً سنذهب إلى الشابين ، وسنحاول تدبير كل شىء .

وفى اليوم التالى لم يكن الشابان فى منزلهما ، فضربا لهما موعداً لليوم التالى ظهراً فى ميدان « المدرسة » ، وعاد رامبير إلى فندقه وقد بدا على وجهه نوع من اليأس ارتاع له تارو عندما قابله بعد الظهر ، فسأله قائلا:

ــ ألا تسير الأمور سيراً حسناً ؟

وأجاب رامبير :

ــ وذلك بسبب العودة من البداية دائماً .

ثم جدد له دعوته ، وقال :

ــ احضر هذا المساء.

وعندما دخل الرجلان غرفة رامبير فى المساء وجداه مستلقيا على فراشه ، فنهض وملأ الكئوس التى كان قد أعدها ، وسأله ريو ــ وهو يتناول كأسه ــ عما إذا كانت الأمور تسير فى الطريق السليم ، وأجاب الصحفى بأنه أعاد الجولة كلها مرة ثانية ، وأنه وصل إلى نفس النقطة التى

كان قد انتهى إليها فى المرة الأولى ، وأنه سوف يذهب قريباً للوعد الأخير ، ثم تناول جرعة من كأسه ، وأضاف :

ـــ وطبعاً ان يحضروا .

فقال له تارو :

ـــ لا يجب أن نجعل من ذلك مبدءاً .

وأجاب رامبير ـ وهو يهز كتفيه ـ :

ـــ إنك لم تفهم بعد .

ـــ ماذا إذن ؟

ـــ الطاعون .

وقال ريو :

ـــ آه !

ـــ نعم لم تفهما أن أمره يتوقف على البدء من جديد .

قال ذلك ، ثم ذهب إلى ركن من غرفته ، وأدار جهاز « فونوغراف » صغير ، وسأله تارو :

ـــ أى أسطوانة هذه ؟ يخيل لى أنى أعرفها .

وأجاب رامبير : إنها « مستوصف سان جيمس » .

وفى منتصف الاسطوانة سمعوا على بعد صوت طلقين ناريين ، فقال تارو :

ـــ لابد أن يكون الأمر يتعلق بكلب ، أو شخص يحاول الهرب .

وبعد لحظة انتهت الأسطوانة ، وسمع بوضوح صوت عربة الإسعاف يقترب ويمر تحت نوافذ غرفة الفندق ، ثم يخبو حتى يتلاشى فى النهاية ، وقال رامبير :

ـــ هذه هى المرة العاشرة التى أسمع فيها تلك الاسطوانة اليوم ، وإن لم تكن من الأسطوانات المسلية .

فسأله تارو :

ـــ أتحبها إلى هذه الدرجة ؟

وأجاب :

ـــ كلا ، ولكن ليس لدى سواها .

ثم قال بعد لحظة :

ـــ قلت لكما : إن المسألة تتوقف على البدء من جديد .

وسأل ريو عن الطريقة التى تسير بها المنظمات ، وكانت هناك خمس فرق تعمل ، ويأملون فى تكوين غيرها ، وكان الصحفى يجلس على سريره ، ويبدو عليه الاشتغال بالعبث بأظافره ، وأخذ ريو يتأمل هيكله القصير القوى وقد تجمع على حافة السرير ، ولاحظ فجأة أن رامبير ينظر إليه ، ويقول له :

ـــ أنت تعرف يا دكتور أنى فكرت كثيراً فى منظمتك ، وإذا لم أكن قد انضممت إليكم ، فذلك لأن لدى أسبابى الخاصة . أما فيما عدا ذلك ، فأعتقد أن فى إمكانى أن أبذل شيئاً من ذات نفسى ، ولا سيما أنى قد اشتركت فى حرب أسبانيا .

وسأله تارو :

ــ فى صف من ؟

فأجاب :

ــ فى صف المهزومين ، ولكنى قد فكرت كثيراً منذ ذلك الحين.

وقال تارو :

ــ فى ماذا ؟

ــ فى الشجاعة . لقد عرفت الآن أن الإنسان أهل للجليل من الأعمال ، ولكنه إذا لم يكن أهلا لعاطفة كبيرة ، فإنه لا يهمنى .

وقال تارو :

ــ يبدو لى أنه أهل لكل شىء .

ــ كلا ، لأنه لا يستطيع تحمل الألم أو السعادة لمدة طويلة ؛ فهو إذن غير أهل لشىء يستحق الذكر .

ثم نظر إليهما ، وقال :

ــ هيا يا تارو ، هل أنت أهل لأن تموت فى سبيل الحب ؟

فأجاب :

ــ لا أدرى ، ولكن يبدو لى أنى غير أهل لذلك الآن .

ــ أرأيت ؟ ولكنك أهل لأن تموت من أجل فكرة ، هذا واضح للعين المجردة . حسن ، أما أنا ، فقد احتملت ما فيه الكفاية من الناس الذين يموتون من أجل فكرة ، فأنا لا أومن بالبطولة ، وأعرف أنها

سهلة ، وتعلمت أنها تقتل ، وكل ما يهمني هو أن يحيا المرء ويموت من أجل ما يحب .

وكان ريو يستمع إلى الصحفي بانتباه ، وحينئذ قال له — دون أن يكف عن النظر إليه — :

— إن الإنسان ليس فكرة يا رامبير .

فقفز رامبير من فراشه ، ثم قال — وقد احتقن وجهه من الانفعال — :

— إنه فكرة ، وفكرة قصيرة الأمد منذ اللحظة التي يتحول فيها عن الحب ، والواقع أننا أصبحنا فعلا غير أهل للحب ؛ فلنستسلم صاغرين يا دكتور ، ولنحاول أن نكون كذلك ، فإذا استحال علينا ذلك ، فلننتظر الخلاص العام دون أن نلعب لعبة البطولة . أما من جهتي أنا ، فلن أذهب إلى أبعد من ذلك .

ونهض ريو ، وقد بدا عليه تعب مفاجيء وقال :

— إنك على حق يا رامبير ، وليس هناك ما يدفعني إلى محاولة تثبيطك عما تنوي عمله . إنه يبدو لي حسنا وحقا. لكن ينبغي لي مع ذلك أن أقول لك : « إن الأمانة هي الطريقة الوحيدة لمكافحة الطاعون. هذه هي فكرتي ، وقد تكون فكرة مضحكة .

فأجاب رامبير بلهجة سريعة جادة :

— وما هي الأمانة ؟

— لست أدري ما هي على وجه العموم ، ولكني أعرف أنها في حالتي تلك تنحصر في مباشرة مهنتي .

ورد رامبير بشيء من الغيظ :

— آه ! لست أدرى ما هى مهنتى على وجه التحديد ، وربما كنت مخطئاً لأننى اخترت الحب .

وواجهه ريو ، وهو يقول بقوة :

— كلا لست مخطئاً .

ونظر إليه رامبير ، ثم قال — وعليه سيما التفكير — :

— لا أظن أن لديكما — أنتما الاثنان — ما تفقدان فى كل هذا ، ولذلك فمن السهل عليكما أن تكونا فى جانب الصواب .

وأفرغ ريو كأسه ، وقال :

— هيا ، فلدينا بعض الأعمال .

وخرج وتبعه تارو الذى بدا عليه كما لو كان قد قرر فى نفسه أمرا فى نفس لحظة خروجه ، فالتفت ناحية الصحفى ، وقال :

— هل تعرف أن زوجة ريو تقيم فى إحدى المصحات التى تبعد عن هنا بمئات من الكيلو مترات ؟

وبدرت من رامبير حركة تنم عن أنه فوجىء بهذا الخبر ، ولكن تارو كان قد انصرف.

وفى الساعة الأولى من صباح اليوم التالى تحدث رامبير تليفونيا إلى الطبيب ، وسأله :

— هل تقبل أن أعمل معكم إلى أن أعثر على طريقة لمغادرة المدينة ؟

ومرت فترة صمت فى نهاية الخط ، ثم انطلق صوت ريو يقول :

— نعم يا رامبير ، وأشكرك .

هكذا مرت الأسابيع وسجناء الطاعون يصطرعون بقدر ما يستطيعون ، حتى وصل الحال ببعضهم — مثل رامبير — أن يتوهموا، كما شاهدنا ، أنهم يتصرفون تصرف الأحرار ، وأنه لايزال فى وسعهم الاختيار ، والواقع أن فى وسعنا أن نقرر أن الطاعون كان فى هذه اللحظة — منتصف شهر أغسطس — قد عم كل شىء ، ولم تعد هناك مصائر فردية ، بل قصة جماعية واحدة هى الطاعون ، ثم مشاعر يشترك فيها الناس جميعاً ، وكان أعظم هذه المشاعر ينحصر فى الفراق ، والنفى بكل ما يحويانه من خوف وثورة ، لهذا يعتقد الراوى أنه من المناسب ، — فى هذا الوقت بلغت فيه حدة القيظ والمرض أعلى درجاتها — أن يقدم لنا وصفاً عاماً لأعمال العنف التى كان يلجأ إليها مواطنونا الأحياء ، ولجنائز دفن الموتى ، وآلام العشاق المتباعدين باعتبار كل ذلك الأمثلة المميزة لتلك الفترة .

لقد حدث فى أواسط هذا العام أن ثارت الريح ، واستمرت تهب أياما متتالية على المدينة الموبوءة ، وسكان وهران يخافون الريح بصفة خاصة ، لأنها لا تقابل أى عائق طبيعى على الهضبة التى بنيت فوقها هذه المدينة ، ولذا تجتاح الشوارع بكل ما فيها من عنف ، وبعد كل هذه الأشهر الطويلة التى لم تسقط خلالها قطرة مطر واحدة على المدينة فتنعشها ، كانت

قد اكتست بطلاء أشهب اللون أخذ يتشقق قشوراً تحت هبات الريح ، وكانت هذه الريح تثير موجات من الأتربة والأوراق صارت تضرب سيقان المـــارة الذين أصبحوا نادرى العدد ، فكانوا يرون وهم يسرعون الخطا فى الشوارع وقد انحنوا إلى الأمام ، ووضعوا مناديلهم أو أيديهم على أفواههم . أما فى المساء ، فلم يعد أحد يرى التجمعات التى كانوا يحاولون بها أن يطيلوا — ما استطاعوا — من أمد هذه الأيام التى قد يكون كل يوم منها آخر أيامهم ، ولم يعد يرى المرء إلا مجموعات صغيرة من الأشخاص الذين يسيرون على عجل ليعودوا إلى منازلهم ، أو لكى يدخلوا مقاهيهم . ولذلك لم يكن يقبل الغروب — الذى صار أكثر تبكيراً فى هذه الأيام — حتى ترى الشوارع مقفرة إلا من الريح التى كانت ترسل أناتها بلا توقف .

وكانت رائحة النباتات البحرية والملح تصل إلى الناس من البحر الهائج المحجوب عن أبصارهم . وهكذا أصبحت هذه المدينة المقفرة المغبرة ، المتشبعة بروائح البحر، الغاصة بصرخات الريح ، تئن أنين جزيرة تعسة .

وحتى الآن كان ضحايا الطاعون فى الأحياء الخارجية المزدحمة غير المريحة أكثر منهم فى وسط المدينة ، ثم بدا فجأة أن الطاعون قد اقترب واستقر أيضاً فى أحياء المصالح الحكومية ، واتهم السكان الريح بأنها هى التى نقلت بذور العدوى ، حتى قال فى ذلك مدير الفندق : « إنها تخلط أوراق اللعب بعضها ببعض » . وعلى كل حال لقد عرفت الأحياء

الوسطى فى المدينة أن دورها قد حان عندما أخذ رنين عربات الإسعاف المتكاثر يقرع أسماع سكانها أثناء الليل مردداً تحت النوافذ دعاء الطاعون الرتيب الكئيب .

وقد خطر لأولى الأمر أن يقوموا فى داخل المدينة نفسها بعزل بعض الأحياء التى استفحل فيها الوباء بصفة خاصة، وعدم التصريح بالخروج منها إلا لمن لا غنى عن خدماتهم من الرجال ، وكان الذين يسكنونها — حتى ذلك اليوم — لا يستطيعون منع أنفسهم من الاعتقاد بأن ذلك لم يكن إلا إجراء استفزازيا خاصاً موجها إليهم ، وكانوا إذا قارنوا أنفسهم بسكان الأحياء الأخرى اعتبروهم من الأحرار ، وكان هؤلاء بدورهم يعزون أنفسهم فى اللحظات العصيبة التى يمرون بها بفكرة أن هناك آخرين غيرهم أقل منهم حرية ، فكان كل ما تيسر لهم من أمل يتلخص فى قولهم : « هناك من هو أشد سجنا منا » .

وحول هذه الفترة حدث أيضاً أن ازداد عدد الحرائق ، ولاسيما فى أحياء الملاهى المتاخمة للأبواب الغربية للمدينة ، ودلت التحريات على أن مرتكبى هذه الحرائق كانوا من الذين عادوا من الحجر الصحى وقد أطاشت الأحزان والحداد عقولهم ، فأشعلوا النار فى منازلهم ظنا منهم أنهم بذلك يقضون على الطاعون الرابض فيها ، وقد وجد المسئولون عنتا كبيراً فى حملهم على الإقلاع عن هذه الأعمال التى كان تكرارها يعرض أحياء برمتها لخطر دائم بسبب شدة الريح ، وحاولوا بكل جهدهم أن يبينوا لهم أن إجراءات التطهير التى قامت بها السلطات كانت كافية لإبعاد كل

خطر للعدوى ، ولكن دون جدوى ، فكان من الضرورى فرض عقوبات قاسية ضد هؤلاء السذج الذين يشعلون الحرائق ، ولا شك أن فكرة السجن لم تكن هى التى حملت هؤلاء على التراجع . بل التأكد من عقوبة السجن التى كانت حينئذ تعادل عقوبة الاعدام نظراً لزيادة عدد الوفيات زياده كبيرة فى سجن البلدية ، وبطبيعة الحال لم تكن هذه العقيدة تقوم على مجرد الوهم ؛ فهناك أسباب أكيدة تدعو للإعتقاد بأن الطاعون يزداد ضراوة بين من يعيشون فى جماعات سواء أكانوا جنوداً أم رجال دين أم سجناء ؛ وذلك لأن السجن مكان عام بالرغم من عزل بعض السجناء ، ومما يثبت ذلك أن حراس سجن البلدية فى مدينتنا كانوا يدفعون ضريبتهم للمرض بنفس القدر الذى كان يدفعه السجناء ، والواقع أن الجميع كانوا — من وجهة النظر العليا للطاعون — محكوما عليهم ابتداء من المأمور حتى آخر سجين من سجنائه ، وقد تكون هذه هى المرة الأولى التى سادت فيها العدالة المطلقة فى السجن .

وقد حاولت السلطات تطبيق سلم الطبقات على هذا المستوى الموحد ، ففكرت فى منح النياشين لحراس السجن الذين يموتون أثناء تأدية خدمتهم . ولكنها لم تنجح فى ذلك ؛ فالواقع أنه كانت هناك حالة حصار ، ولذلك كان من الممكن ، من وجهة نظر ما ، أن يعتبر هؤلاء الحراس جنوداً فى حالة تعبئة ، ومن ثم فقد منحوا الميداليه العسكرية بعد وفاتهم ، ولكن إذا كان المسجونون أنفسهم قد سلموا بذلك فإن الأوساط العسكرية لم تنظر إليه بعين الارتياح ، وقد كانت على حق عندما قالت : إنه خلط للأوضاع يدعو للأسف - قد يحدث فى أذهان الشعب . وأقرت السلطات هذا الطلب

ورأت أنه من الأيسر منح الحراس الذين يموتون ميدالية الوباء ، أما فيما يختص بالذين سبق منحهم الميدالية العسكرية ، فقد كان الخطأ قد وقع بالنسبة لهم ولم يعد فى الاستطاعة التفكير فى سحب النياشين منهم ، وإن كانت الأوساط العسكرية قد استمرت تدافع عن وجهة نظرها . هذا إلى أن ميدالية الأوبئة لم يكن لها أثر الميدالية العسكرية فى رفع الروح المعنوية ، لأن الحصول عليها فى وقت سادت فيه الأوبئة كان أمراً عادياً .

وهكذا عم الاستياء الجميع .

وفوق ذلك لم يكن فى مقدور مصلحة السجون أن تسير على النهج الذى سارت عليه السلطات الدينية ، أو ذلك الذى سارت عليه السلطات العسكرية إلى حد ما . ذلك أن رهبان الديرين الوحيدين فى المدينة كانوا قد تفرقوا ليقيموا بصفة مؤقتة لدى الأسر المتدينة . كما أن بعض جنود الثكنات كانوا قد قسموا مجموعات صغيرة تم إسكانها فى المدارس أو العمارات العامة . وهكذا نرى أن المرض الذى أرغم الأهالى ظاهريا على هذا النوع من التضامن الذى يقع عادة بين من هم فى حالة حصار قد عمل فى نفس الوقت على تفكيك الجماعات التقليدية ، وعاد بالأفراد إلى وحدتهم : ولقد كان لهذه أثره فى إحداث الكثير من الحيرة والهرج .

ومن اليسير أن نرى كيف تضافرت هذه الظروف — مضافاً إليها الريح — على إشعال الحرائق فى الأذهان أيضاً . فقد هوجمت أبواب المدينة من جديد أثناء الليل مرات عديدة ، ولكن الهجوم فى هذه المرة قد وقع من مجموعات صغيرة مسلحة ، وتبودل فيه إطلاق النار ، وسقط بعض

الجرحى ، وحدثت بعض حالات الهرب . وأدى ذلك إلى دعم مراكز الحراسة ، فلم تلبث هذه المحاولات أن توقفت . ولكنها — مع ذلك — كانت كافية لأن تبعث فى المدينة روحا ثورية تسببت فى بعض مشاهد العنف ، فنهبت بعض المنازل التى كانت قد أحرقت أو أغلقت لأسباب صحية .

ولا شك أنه من الصعب افتراض أن هذه الأحداث كانت مدبرة . ففى كثير من الأحيان كان يقع ظرف مفاجىء فيدفع من كانوا يعتبرون حتى هذه اللحظة من ذوى السمعة الحسنة إلى إتيان أعمال تستحق اللوم. وسرعان ما كان يندفع غيرهم إلى تقليدهم ، وحدث ذات مرة أن خرج بعض الحمق عن طورهم واقتحموا منزلا لا زالت النيران مشتعلة فيه ، وكان ذلك فى حضور صاحبه الذى أذهلته آلامه المفاجأة عن نفسه ، وإزاء ما بدا من هذا الأخير من عدم الاكتراث سارع الكثيرون من المشاهدين إلى تقليد الأولين ، فكنت فى هذا الشارع المعتم وعلى ضوء الحريق ترى أشباحاً تخرج من كل جانب وقد شوهت هيئتها النار الخابية ، وما حملتــــه على أكتافها من أشياء وأثاث . وقد كانت هذه الحوادث هى السبب الذى اضطر السلطات إلى تسوية حالة الطاعون بحالة الحصار ، وإلى تطبيق قوانين هذه على تلك ، فقتل لصان رمياً بالرصاص ولكن من المشكوك فيه أن يكون هذا الحادث قد فعل فعله فى نفوس الآخرين، إذ أن أحداً لم يشعر بوقوع هذا الإعدام المزدوج وسط أعداد الموتى الهائلة ، بل كان كقطرة ماء فى بحر .

والحقيقة أن مثل هذه المشاهد قد أخذت تتكرر كثيراً دون أن

تبدى السلطات ميلا للتدخل فيها . أما الإجراء الوحيد الذى يبدو أنه أثر فى السكان ، فكان فرض تقييد الإضاءة ، فمنذ الساعة الحادية عشرة كانت المدينة تغرق فى ظلام دامس ، وتبدو كما لو كانت قد قدت من حجر .

وفى الليالى القمرية كانت ترى المدينة وقد اصطفت حوائطها المائلة للبياض ، وشوارعها المستقيمة التى لا تخالطها كتلة سوداء لشجرة ، ولا يعكر هدوءها خطا شخص يمر أو عواء كلب يسرى . وحينئذ لم تعد المدينة الكبيرة الصامتة سوى مجموعة من المكعبات الضخمة الميتة ، ومن بينها تماثيل تذكارية صامتة لمصلحين طواهم النسيان ، أو لعظماء غابرين قد دكوا إلى الأبد فى قوالب من برونز ، وأصبحوا هم وحدهم — بوجوههم الحجرية أو الحديدية المزيفة — الذين يثيرون فى أنفسنا صورة أصابها الانحطاط لما كان عليه الإنسان . كانت هذه الأوثان التافهة تتربع تحت سماء كثيفة فى ميادين لا حياة فيها ، وتبدو كما لو كانت دواب تخلو من الحس ، فتقدم لنا بذلك صورة لا بأس بها لذلك العهد الجامد الذى بدأناه ، أو على الأقل صورة له فى مرحلة نضوجه ، صورة مقبرة أخرس فيها الطاعون والحجر والليل كل صوت .

كذلك كان الليل يخيم على كل القلوب وجميع الحقائق ، فإن الأساطير التى كانوا يقصونها عن طريقة دفن الموتى لم يكن من شأنها أن تبعث الطمأنينة فى نفوس مواطنينا ، ولذلك كان من الضرورى أن نتكلم عن طرق الدفن ، وإن كان الراوى يأسف لذلك ، إذ أنه يشعر جيداً باللوم الذى قد يوجه إليه فى هذا الصدد . ولكن مما يبرر له هذا المسلك أن الدفن قد استمر طيلة هذا العهد ، وأنه — كجميع مواطنيه — قد اضطر إلى أن يجعل أمور الدفن من مشاغله الأساسية ، وليس معنى ذلك أنه يحب هذا النوع من الاحتفالات ؛ إذ أنه على العكس من ذلك يفضل صحبة الأحياء كما فى حمامات البحر مثلا ، ولكن حمامات البحر كانت قد ألغيت ، وكان يخشى على مجتمع الأحياء أن يضطر فى يوم من الأيام إلى إخلاء مكانه لمجتمع الموتى . كانت هذه هى الحقيقة المحتومة ؛ وبطبيعة الحال كان فى الإمكان دائماً أن يبذل المرء جهده لكيلا يرى هذه الحقيقة ، وأن يغمض عنها عينيه ، ويرفض الاعتراف بها ، ولكنها كانت من القوة بحيث تنتهى دائماً باحتياح كل شىء ، وإلا فكيف كان السبيل مثلا إلى مقاطعة الدفن يوم يحتاج من تحب إلى الدفن ؟

كانت السرعة هى العلامة المميزة لطريقة الدفن عندنا فى أول الأمر

فقد بسطت جميع الإجراءات ، وألغى كل ما كان يصحب الجنائز من ترف . ذلك أن المرضى كانوا يموتون بعيداً عن عائلاتهم ، فألغى القداس الذى جرت العادة بإقامته يوم الوفاة حتى كان من يموت أول الليل يقضى بقيته بمفرده ، ومن يموت أثناء النهار يدفن فوراً دون أى تأخير ، وقد كانت تخطر الأسرة بالوفاة بطبيعة الحال ، ولكن كثيراً ما كان يحدث ألا تتمكن الأسرة من الانتقال ، لأنها كانت تجبر على الحجر الصحى ، إذا كانت قد خالطت المريض . أما إذا لم تكن قد خالطت المتوفى ، فإنها كانت تحضر فى الساعة المحدودة ، ساعة التوجه إلى المدفن ، وحينئذ يكون جثمان المتوفى قد تم غسله ووضعه فى نعشه .

ولنفترض أن هذه الإجراءات كانت ستحدث فى المستشفى المساعد الذى يتولى إدارته الدكتور ريو . فهذه المدرسة لها باب يقع خلف المبنى الرئيسى . وهناك مكان فسيح يطل على الدهليز كانت ترص به النعوش ، وكانت الأسر إذا دخلت هذا الدهليز وجدت نعشاً واحداً قد تم إغلاقه . وحينئذ يسارع بإنجاز أهم ما ينطوى عليه الأمر . ونعنى أن يطلب من رب الأسرة التوقيع على بعض الاوراق وبعد ذلك يوضع الجثمان فى سيارة ، وهى قد تكون عربة نقل حقيقية أو سيارة إسعاف كبيرة حولت إلى عربة نقل . ويستقل أقارب الميت إحدى سيارات الاجرة التى ما زالت مرخصا بها . وتسير السيارتان بأقصى سرعتهما مخترقة الشوارع الخارجية نحو المقبرة . وعند الباب يقوم رجال الشرطة بإيقاف القافلة ، وختم تصريح المرور الرسمى الذى بدونه لم يكن يمكن لأحد أن ينتقل إلى ما يسميه مواطنونا بالمثوى الاخير ، ثم يختفى رجال الأمن وتسير العربات لتقف بجوار أحد المربعات التى تحتوى على حفر عديدة

فى انتظار أن يتم ملؤها ، ويتلقى أحد القسيس الجثمان لأن الخدمات الجنائزية كانت قد ألغيت فى الكنائس .

ويخرج النعش وسط الصلوات ويلف بالحبال ويجر على الأرض ويرتطم بالقاع . وعندما يبدأ القسيس فى رش الماء المقدس تكون الأتربة قد أهيلت فعلا على غطاء النعش أما عربة الإسعاف فكانت تنصرف قبل ذلك بقليل لكى يتم تطهيرها بالسوائل المطهرة . وقبل أن تضعف دقات الجواريف وهى تهيل التراب على القبر شيئاً فشيئاً تكون الأسرة قد تراكمت فى سيارة من سيارات الأجرة ولا يمضى أكثر من ربع الساعة حتى تكون قد بلغت مسكنها .

وهكذا كان كل شىء يسير فى الحقيقة بأقصى حد من السرعة وأدنى حد من المخاطرة ، ومما لاشك فيه ، فى بادىء الأمر على الأقل ، أن الشعور الطبيعى الذى يربط بين أفراد الأسرة قد انقبض نتيجة لذلك ، ولكن مثل هذا الشعور لا يمكن أن يعتبر من الأمور التى يؤبه لها فى وقت الطاعون ، فقد ضحى بكل شىء فى سبيل الوسائل الفعالة . هذا وإذا كانت الروح المعنوية للأهالى قد قاست فى أول الأمر من هذه الاجراءات ، إذ أن رغبة الناس فى الحصول على دفن ملائم أكثر انتشارا مما تظن ، فمن حسن الحظ أن مشكلة التموين قد أصبحت بعد قليل من أعوص المشاكل ، فاضطر الناس إلى أن يصرفوا اهتمامهم إلى ما هو أكثر إلحاحاً . وهكذا ألهتهم الصفوف الطويلة التى ينبغى لهم الوقوف فيها والمساعى التى يجب القيام بها والإجراءات التى لا بد من إتمامها إذا أرادوا أن يحصلوا على

قوتهم الضرورى ، حتى لم يصبح لديهم الوقت الكافى للتفكير فى الطريقة التى يموت بها الناس من حولهم، والتى قد يموتون هم أنفسهم بها يوماً ما. وهكذا لم تلبث الصعوبات المادية هذه - التى لم يكن بد من اعتبارها شراً - أن انقلبت خيراً بمرور الزمن ، ولو لم ينتشر الوباء على النحو الذى رأيناه لسارت الأمور على أحسن حال .

ذلك أن النعوش أصبحت تزداد كل يوم ندرة، كما شح نسيج الأكفان، وعزت الأماكن فى المقابر، وصار من الضرورى أن يحتاط الأمر . ولما كان البحث عن الطرق الفعالة أمراً ضرورياً فقد بدا أن أبسط الامور أن تجعل الاجراءات جماعية، وأن تكرر الرحلة بين المستشفى والمقبرة إذا اقتضى الأمر ذلك . فمثلا كان يوجد فى مستشفى الدكتور ريو خمسة نعوش، فكانت تحمل هذه النعوش الخمسة على سيارة الإسعاف كلما امتلأت . وفى المقبرة كانت تفرغ من شحنتها ، ثم تحمل الجثث ذات اللون الحديدى على نقالات، وتترك للانتظار فى مخزن أعد لهذا الغرض. وبعد ذلك كانت ترش النعوش بمحلول مطهر، ثم تعود للمستشفى. وتبدأ العملية من جديد إذا كان هناك ما يقتضى ذلك. وكان هذا إجراء سليما. وقد أظهر المدير رضاه عنه ، وقال لريو: إنه خير من عربات اليد التى يقص علينا تاريخ الاوبئة فى العصور القديمة أنها كانت تحمل الموتى ، ويجرها الزنوج ، وقد أجابه ريو قائلا :

— نعم ، إن الموتى يدفنون بنفس الطريقة ولكننا نحن نقوم بعمل بطاقات ، وهذا تقدم لا جدال فيه .

وبالرغم من هذا النجاح الذى أحرزته الادارة فإن، الطابع الممجوج

الذى اتسمت به تلك الإجراءات قد اضطر المديرية إلى إبعاد الأهالى من مراسم الدفن، فلم تسمح لهم إلا بالانتظار على باب المدفن؛ وحتى هذا الحق لم يمنح لهم بصفة رسمية . وذلك لأنه قد أجرى بعض التغيير فيما يختص بالشعائر الأخيرة . فهناك فى أقصى الجبانة، وفى مكان فسيح عار إلا من أشجار المصطكى أنشئت حفرتان كبيرتان إحداهما للرجال، والأخرى للنساء . ومن هذه الناحية تعتبر الإدارة قد راعت حدود اللياقة، ولكن ذلك لم يدم ، فقد اضطرتها الظروف فيما بعد إلى العدول عن هذا النوع الأخير من الحياء، فخلطوا الرجال بالنساء، ودفنوا الجميع أكواماً بعضهم فوق بعض دون رعاية لأى شىء . ومن حسن الحظ أن هذا الخلط النهائى لم يحدث إلا فى أيام الوباء الأخيرة . أما فى هذه الفترة التى تهمنا الآن فكانت الحفرتان منفصلتين . وقد تمسكت المديرية كل التمسك ببقائهما منفصلتين . وقد وضع فى قاع كل من هاتين الحفرتين طبقة سميكة من الجير الحى كانت تغلى ويتصاعد منها الدخان . وعلى حافة الحفرة وضعت كومة من نفس الجير كانت تتصاعد منها الفقاعات، وتنفجر فى الهواء الطلق . فكانت إذا وصلت سيارة الاسعاف من رحلتها حمل ما فيها من نقالات فى قافلة ، وتركت الجثث تنزلق إلى القاع، الواحدة بجانب الأخرى وقد تعرت والتوت بعض الشىء ، وبعد ذلك تغطى بالجير الحى ويهال عليها التراب ، ولكن إلى حد محدود ، حتى يبقى هناك مكان لضيوف جدد . وكان أهل الموتى يدعون فى اليوم التالى ليوقعوا على أحد السجلات، ذلك الذى يشير إلى ما يمكن أن يكون هناك من خلاف بين الآدميين والكلاب مثلا . ذلك أنه فى هذه الحالة يمكن الرجوع دائماً إلى السجلات .

وكان لابد من موظفين لإتمام كل هذه العمليات . وكان يبدو أنهم على وشك النفاد . فقد قضى الطاعون على كثير من هؤلاء الممرضين و«الحانوتية» الرسميين، ثم على من حل محلهم من متطوعين . ذلك أنه لم يكن بد من حدوث العدوى رغم كل ما كان يؤخذ من احتياطات .

ولكننا إذا دققنا النظر بعض الشيء وجدنا أن من أشد الأمور إثارة للدهشة أنهم لم يعدموا قط أن يجدوا الرجال الذين يقومون بتلك المهمة طيلة مدة الطاعون . أما الفترة الحرجة فقد كانت قبيل وصول الطاعون إلى قمة انتشاره ، وحينئذ كانت مخاوف الدكتور ريو لها ما يبررها : فلم يكن هناك من الأيدي العاملة ما يكفى لتكوين القادة ، ولا للقيام بما كان يسميه بالأعمال الخشنة . ولكن لم يكد الطاعون يسيطر على المدينة بأسرها ، حتى أدت هذه الضراوة نفسها إلى نتائج حسنة . ذلك أنها قد أشاعت الاضطراب فى حياة المدينة الاقتصادية كلها، وخلقت عدداً كبيراً من العاطلين . ولم يكن هؤلاء فى أغلب الأحوال ينضمون إلى القادة ، ولكنهم كان لهم فضل كبير فى حل مشكلة الأعمال الوضيعة . والواقع أنه منذ تلك اللحظة أخذ الخوف من الجوع يتغلب على الخوف من الخطر؛ لأن الأجر كان يقدر بمدى المخاطرة . فاستطاعت الخدمات الصحية أن تحصل على قائمة بأسماء طالبي العمل ، ولم يكن يخلو مكان حتى تتصل بمن لهم الأسبقية فى القائمة . ولم يكن هؤلاء يتوانون فى تقديم أنفسهم إلا إذا كانوا هم أنفسهم قد أخلوا مكانهم . وهكذا استطاع المدير الذى تردد طويلا فى استخدام المحكوم عليهم بالسجن المؤقت، أو المؤبد فى مثل هذا النوع من الأعمال أن يتجنب اللجوء إلى هذه النتيجة القصوى . فلم

يكن هناك ما يمنع من الانتظار ما دام هناك متعطلون .

تمكن إذن مواطنونا بطريقة أو بأخرى من أن يصلوا إلى مثواهم الأخير حتى نهاية شهر أغسطس . وإذا لم تكن هذه الطريقة لائقة فإنها على الأقل قد سارت بنظام يكفي لإيهام الإدارة بأنها لا زالت تؤدى واجبها . ولكن ينبغي لنا أن نسبق قليلا سياق الحوادث لكى نتحدث عن آخر وسيلتين اضطر إليها المسئولون فى هذا الصدد . ذلك أنه حينما بلغ الطاعون أقصى مدى وصل إليه - أى ابتداء من شهر أغسطس - زاد تراكم الضحايا حتى تجاوز إمكانيات مقبرتنا الصغيرة . وعبثا حاول القائمون بالأمر هدم بعض الجدران، وفتح مخبأ للموتى فى الاراضى المجاورة فقد كان من الضرورى العثور على حل آخر سريع ، فتقرر أولا أن يكون الدفن ليلا ، وكان من شأن هذا القرار أن يعفى من اتخاذ بعض الاحتياطات الخاصة بحرمة الجثث، ومن ثم أمكن وضع بعضهم فوق بعض فى أكوام داخل عربات الإسعاف . وكان القليلون من المارة - الذين يتأخرون فى الطريق حتى هذه اللحظة فى الأحياء الخارجية - مخالفين بذلك قواعد حظر الخروج ليلا، أو أولئك الذين تضطرهم مهنتهم إلى هذا التأخر ، يصادفون فى بعض الأحيان عربات الإسعاف الطويلة البيضاء تنهب الأرض نهبا وصدى رنينها الباهت يتجاوب فى الشوارع المظلمة ، وبعد ذلك كانت تلقى الجثث فى الحفر على عجل ، ولا تكاد دتستقر فى مرقدها حتى تسكون أكوام الجير قد انهالت على وجوهها وغطاها التراب كلها فى تلك الحفرة التى كانت تزداد مع الوقت عمقا .

ورغم ذلك لم يمض وقت طويل حتى اضطروا إلى البحث عن وسائل

أخرى، والتوسع فى الاستباحة ، فصدر قرار من المديرية بنزع ملكية قبور الموتى القدامى الذين أرسلت رفاتهم إلى الأفران بعد استخراجها ، ثم لم يلبثوا أن رأوا أنفسهم مضطرين أيضاً إلى إرسال موتى الطاعون، ـــهم الآخرون ـــ إلى الفرن . ولم يكن أمامهم حينئذ إلا استعمال فرن إحراق القمامة الذى يوجد خارج أبواب المدينة من ناحيتها الشرقية . وقد أدى ذلك إلى إبعاد مخيم الحراس بعض الشيء، وكان لأحد موظفى البلدية الفضل فى تسهيل مهمة السلطات عندما نصح باستخدام عربات الترام التى كانت فيما مضى تمر على « كورنيش » البحر، ثم توقف سيرها منذ حل الطاعون ، وقد اضطروا ـ من أجل هذه الغاية ـ إلى إجراء بعض التعديلات فى العربات والقاطرات بأن رفعوا المقاعد ، وحولوا الخط الكهربائى نحو الفرن الذى أصبح بذلك رأساً للخط .

وهكذا بدأ الأهالى فى نهاية الصيف ووسط أمطار الخريف يرون فى كل ليلة قوافل غريبة من عربات الترام تخلو من الركاب، وتذرع أرض الكورنيش مطلة على ماء البحر بضوضائها المعروفة ، ثم لم يلبثوا أن عرفوا ماهيتها . ورغم الدوريات التى كانت تمنع الوصول إلى الكورنيش فكثيراً ما كانت تتمكن بعض الجماعات من التسلل بين الصخور التى تتكسر عليها أمواج البحر، ويلقى أفرادها بالأزهار على العربات لدى مرور الترام . وهكذا ظل الناس طوال هذه الليالى الصيفية يسمعون ضجيج عربات الترام وهى تسير حافلة بما تحمل من زهور وموتى .

ومهما يكن من شيء، فقد تعود سكان الأحياء الشرقية من المدينة أن يروا فى كل صباح من أصبحة الأيام الأولى نوعاً من البخار الكثيف المقزز

تخيم على أجوائهم . وكان من رأى جميع الأطباء أن هذه الروائح لا يمكن أن تؤذى أحداً مهما كانت ممجوجة . ولكن سكان تلك الأحياء ما لبثوا أن هددوا بهجرها لاقتناعهم بأن الطاعون ينقض عليهم من السماء . ولذلك اضطرت السلطات إلى تحويل اتجاه الأبخرة بوسائل معقدة ، وبذلك هدأت ثائرة السكان . ولكنهم ظلوا - كلما هبت ريح شديدة - يحسون برائحة آتية من الشرق تذكرهم بأنهم يعيشون تحت نظام جديد وبأن نيران الطاعون ما برحت تلتهم قربانها كل مساء .

كان هذا أقصى ما وصل إليه الوباء من مدى . ومن حسن الحظ أن حدته لم تزدد بعد ذلك ، وإلا لأعيت حيل مكاتبنا ، وأربت على استعداد المديرية ، بل وعلى قدرة الفرن على الامتصاص . وكان ريو يعلم أن السلطات كانت قد استعدت للالتجاء إلى الحلول اليائسة ، مثل إلقاء الجثث فى البحر ، وكان من اليسير عليه أن يتصور ما سوف يكون لها من زبد مشحون بالأذى فوق صفحة الماء الزرقاء . وكان يعلم كذلك أنه إذا استمرت الإحصائيات فى الصعود ، فلن تستطيع أية منظمة - مهما كانت روعة تنظيمها - أن تواصل المقاومة ، وأن الأشخاص حينئذ سوف يقبلون على الطرقات ليموتوا فيها أكواماً حيث تتعفن جثثهم رغم أنف المديرية ، وأن المدينة سوف تشهد المحتضرين فى الميادين العامة يتعلقون بالاحياء مدفوعين إلى ذلك بمزيج من حقد مشروع ، وأمل أبله .

على كل حال كان هذا النوع من الرجحان والإشفاق هو الذى حفظ على مواطنينا شعورهم بالنفى وبالفراق، وهنا لابد أن نشير إلى أن الراوى يعرف جيداً أنه مما يدعو للأسف حقاً ألا يكون فى مقدوره أن يذكر هنا شيئاً من المشاهد الطنانة ، كأن يتحدث عن بطل تطرب لبطولة النفوس، أو عمل براق من تلك التى نسمع عنها فى القصص القديمة . وذلك لأنه لا شىء أبعد من الوباء عن الطنين ، ولأن المصائب الكبرى تتسم بالرتابة ولو لم تكن كذلك إلا اطول أمدها . والواقع أن الذين عاشوا أيام الطاعون المروعة يذكرون جيداً أنها لم تكن تبدو كألسنة اللهب عاتية لانهاية لها ، بل كأقدام تطأ الناس ببطء فتحطم كل شىء فى طريقها .

كلا فالطاعون لاشأن له بالصور الكبيرة المثيرة التى لاحقت الدكتور ريو فى بداية الوباء ، ولكنه كان أولا وقبل كل شىء إدارة متزنة حاذقة تسير فى أداء عملها على خير وجه . ولنذكر — من باب الاعتراض — شيئاً مما يرويه أو من أفكاره هو نفسه ، فهو لم يشأ أن يعدل شيئاً ولا على حكم الأساليب الفنية ، اللهم إلا فيما يختص بالحاجات الضرورية لتماسك الحكاية واتساقها .

وهذه الموضوعية نفسها هى أيضاً التى تفرض عليه الآن أن يقرر

أنه إذا كان الفراق هو أشد الآلام التى تميزت بها هذه الفترة بل وأعمها وأعمقها ، وإذا كان من الضرورى أن يقـــدم له صورة جديدة فى هذه المرحلة من الطاعون ، فإننا لا نجانب الصواب فى شىء حين نقرر أن هذا العذاب نفسه كان قد فقد حينئذ ما يجعله مؤثرا .

فهل معنى ذلك أن مواطنينا - أو على الأقل أشدهم تألما من نار الفراق - كانوا قد اعتادوا هذا الموقف ؟ لن يكون الحق كله فى جانبنا لو أكدنا ذلك . وربما كنا أكثر دقة لو قلنا : إنهم كانوا من الناحية المعنوية والجسمية يشعرون بنار الجوى تحرق أحشاءهم . فقد كانوا فى بداية الطاعون يذكرون جيداً الشخص الذى فقدوه ويأسفون لفراقه . ولكنهم إذا ذكروا بوضوح وجه الحبيب وضحكته وأيامه السعيدة ، فإنهم كانوا يجدون صعوبة فى تخيل ما عسى أن يفعله هذا الشخص فى تلك الساعة التى يذكرونه فيها وهو فى أمكنة ستظل دائما نائية عنهم . ومعنى ذلك أنهم فى هذا الوقت كانوا يتمتعون بالذاكرة ولكن ينقصهم الخيال . أما فى المرحلة الثانية للطاعون ، فقد فقدوا الذاكرة أيضاً .

وليس معنى ذلك أنهم نسوا هذا الوجه ، ولكنهم فقدوا وجوده معهم بلحمه ودمه ، ولم يعودوا يرونه فى داخل أنفسهم ، وهذا يعادل تماما فقدانهم لصورة وجهه . ومن ثم فإنهم إذا كانوا يميلون خلال الأسابيع الأولى إلى الشكوى من أنهم لم يعودوا يملكون من أمور حبهم سوى الظلال ، فقد لاحظوا فيما بعد أن هـذه الظلال نفسها قد فقدت ما كان يجسدها فى نظرهم بعض الشىء ، بل وكل ما كان قد بقى لهـا من لون فى الذاكرة مهما كان باهتا . ففى نهاية هذه الفترة الطويلة من الفراق لم يعودوا

يتخيلون هذا التعاطف الذى كان بين جوانبهم ، ولا كيف كان يعيش بجوارهم شخص كان فى وسعهم فى كل لحظة أن يلمسوه بأيديهم .

كان مواطنونا ـ من وجهة النظر هذه ـ قد انطووا تحت لواء الطاعون، ذلك اللواء الذى كان فعالا بقدر ما كان تافها . ولم يعد أحد منا يعرف العواطف الكبيرة . وأصبح الجميع لا يعرفون إلا العواطف الرتيبة . نعم ، كانوا دائما يرددون قولهم : «لقد آن الأوان لكى ينتهى كل هذا» كانوا يقولون ذلك لأنه من الطبيعى أن يتمنى الناس نهاية العذاب الجماعى، ولأنهم كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن ينتهى .

ومع ذلك فقد كانوا يقولونه دون أية حرارة أو مرارة ، كما كانوا يفعلون فى البداية ، وإنما كانوا يقولونه مدفوعين بالقليل من وضوح التفكير الذى كان لا يزال باقياً لديهم والذى كان جد ضعيف . وهكذا حل الانهيار محل الحماس الوثاب الذى عرفوه فى الأسابيع الأولى. وإذا كنا نخطىء لو عددنا هذا الانهيار استسلاماً ، فإنه مع ذلك يعتبر نوعاً من القبول المؤقت .

اعتاد مواطنونا السير فى الصف تبعاً للنعاليم، وتكيفوا به ـ كما يقولون ـ لأنه لم يكن لديهم وسيلة غير ذلك . ومن الطبيعى أنهم ظلوا يحملون سيما الهم والعذاب ، ولكنهم لم يعودوا يشعرون بوخزهما، وكان الدكتور ريو مثلا يرى فى ذلك الأمر بالذات نوعاً من التعبير عن التعاسة ، ويقول : إن تعود اليأس شر من اليأس نفسه . ولم يكن المفترقون تعساء حقيقة فى أول الأمر ، فقد كان هناك بريق من الأمل يضىء لهم جوانب آلامهم

ولقد انطفأ هذا البريق ، فكنت تراهم الآن فى أركان الشوارع وفى المقاهى، أو لدى أصدقائهم شاردى الذهن جامدى التعبير ، تنطق نظرات عيونهم بما فى صدورهم من سأم ، وهكذا غدت المدينة كلها تحت تأثيرهم كما لو كانت قاعة انتظار .

أما ذوو المهن ، فقد استمروا يمارسون مهنهم بطريقة تشبه طريقة الطاعون نفسه ، أى بمزيد من الدقة ولكن دون أى بريق. لقد تواضع الناس جميعاً، ولأول مرة لم يعد المفترقون يشعرون بغضاضة من التحدث عن الغائب، وأن يستعملوا فى ذلك لغة الناس جميعاً، ويناقشوا ما يعانون من فراق على نحو ما يناقشون إحصائيات الطاعون . فهم إذا كانوا قد ظلوا يفرقون - بكل قواهم - بين آلامهم الخاصة والآلام العامة ، فقد قبلوا الآن أن يخلطوهما معاً ، وهكذا تراهم قد استغرقوا فى الحاضر بعد أن فقدوا الذاكرة وفقدوا القدرة على التألم . والحقيقة أن كل شىء أصبح بالنسبة لهم يمثل الحاضر . بل لابد من الاعتراف بأن الطاعون قد انتزع من الجميع المقدرة على الحب ، بل حتى المقدرة على الصداقة ؛ وذلك لأن الحب يتطلب قليلا من المستقبل فى حين أن لم يكن قد بقى لنا إلا لحظات حاضرة .

ومما لا يحتاج إلى بيان أن كل أمر من هذه الأمور لا يمكن أن يكون مطلقاً ؛ لأنه إذا كان من الحق أن المفترقين جميعاً قد بلغوا هذه الحالة، فمن الحق أيضاً أن نضيف أنهم لم يصلوا إليها مجتمعين وفى وقت واحد. هذا إلى أنهم بعد أن استقروا فى حالتهم الجديدة ، كان يحدث أن يبرق فى وجدان بعضهم شىء من البوارق ، أو يعود بهم فكرهم إلى الماضى

بعض لحظات، أو يعتريهم نوع من صفاء الذهن ، فيعودون إلى حساسية أكثر شباباً وأشد عذاباً . كان لابد من لحظات الشرود هذه لكى يسبحوا بخيالهم فى مشاريع تنطوى ضمنا على فكرة انتهاء الطاعون ، وكان لا بد لهم أن يشعروا لجأة ـ وبمعونة من السماء ـ بأنياب نوع من الغيرة غير ذى موضوع . كما أن بعضهم كان ينتابهم نوع مفاجىء من البعث يجعلهم يخرجون من ذهولهم خلال أيام معينة من الأسبوع ، يوم الأحد ومساء السبت بطبيعة الحال ،وذلك لأن هذه الأيام كانت مخصصة لأنواع من العادات حين كان الغائب موجوداً . وكان هناك آخرون يغشاهم نوع من الكآبة فتنذرهم بقرب عودة الذاكرة إليهم ، وإن لم يعمل الواقع على تحقيق هذه النذر دائماً . ساعة المساء هذه ـ التى يعتبرها المؤمنون ساعة امتحان الضمير ـ كانت قاسية بالنسبة للسجين أو المنفى اللذين لم يكن أمامهما ما يمتحناه سوى الفراغ . كانت هذه الساعة تمسك بهما لحظة فى حالة تعليق يعودان بعدها إلى حالة توقف الذهن ، ويحبسان نفسيهما فى الطاعون .

ولقد فهم الناس أن ذلك معناه التنازل عن كل ما يتصل بأشخاصهم أوثق اتصال . فبينما كانوا فى أيام الوباء الأولى يقعون تحت تأثير مجموعة الأشياء الصغيرة التى كان لها اعتبارها بالنسبة لهم ـ وان لم يكن لها وجود بالنسبة لغيرهم ، فكانوا بذلك يمرون بتجربة الحياة الشخصية ، لم يعودوا الآن يهتمون ـ على العكس من ذلك ـ إلا بما يهم الآخرين ، لم تعد تشغل رءوسهم سوى الأفكار العامة ، حتى أن حبهم ذاته قد اتخذ فى أذهانهم شكلا تجريدياً بحتاً . ذلك أنهم كانوا قد وصلوا ـ فى استسلامهم للطاعون ـ

إلى حد أصبحوا معه لا يأملون إلا فى أن يدهمهم النوم، وأن يتوقفوا عن التفكير وكانوا يقولون : «لتحل الأورام، ولينته الأمر» ولكنهم كانوا قد استسلموا فعلا للنوم ، ولم يكن كل هذا الوقت بالنسبة لهم سوى فترة نوم طويل. فقد كانت المدينة مأهولة بجمع من النائمين المستيقظين الذين لم يكونوا يفرون من حالتهم هذه إلا فى تلك اللحظات النادرة التى كانت تنفجر فيها جراحهم فجأة ، تلك الجراح التى كانت تبدو فى الظاهر ملتئمة . وحينئذ كانوا يهبون من نومهم مذعورين ، أو يتحسسون - وهم شاردوا الأذهان - حوافها الملتهبة فترتد إليهم فى لمح البرق آلامهم وقد استعادت شبابها ، تعود ومعها صورة حبهم المضطربة . وفى الصباح يعودون إلى الوباء أى إلى الحياة الرتيبة .

ولكن قد يسألنا سائل قائلا : ماذا كانت سيما هؤلاء المفترقين ؟ والواقع أن الإجابة على هذا السؤال بسيطة ، فلم تكن لهم سيما خاصة ، أو ، إذا شئنا ، كانت سيماهم كغيرهم من الناس، وهى سيماء عامة كل العموم. كانوا يقاسمون أهل المدينة برودهم وانفعالاتهم الصبيانية . وقد فقدوا مظاهر حاسة النقد فى نفس الوقت الذى اكتسبوا فيه مظاهر البرود . فكنا مثلا نرى أكثرهم ذكاء يتظاهرون لغيرهم بالبحث فى الجرائد أو فى النشرات الإذاعية عن أسباب توهمهم بالاعتقاد فى اقتراب نهاية الطاعون ، أو يخلقون لأنفسهم أحلاماً لا تستند إلى أى واقع ، أو يحيطون أنفسهم بمخاوف لا أساس لها بعد قراءة ما قد يكون أحد الصحفيين قد كتبه عن الوباء دون وعى وهو يتثاءب من الضجر . أما فيما عدا ذلك فكانوا يحتسون البيرة، أو يمرضون مرضاهم، كانوا يستسلمون

للكسل ، أو ينهكون أنفسهم فى نشاط ما ، كانوا يرقبون البطاقات أو يديرون بعض الاسطوانات دون أن يكون لهم ما يمكن أن يميز بعضهم عن البعض الآخر . وبتعبير آخر ، كانوا قد فقدوا القدرة على اختيار أى شىء ، فقد قضى الطاعون لديهم على موهبة الحكم على القيم . وكان ذلك يتبين جلياً من أنهم لم يعودا يهتمون بنوع اللباس الذى يلبسونه أو الأطعمة التى يشترونها . كانوا يقبلون كل شىء كتلة واحدة .

وأخيراً يمكننا أن نقول : إن المفترقين لم يعد لهم هذا الامتياز الغريب الذى كان يحميهم فى البداية . فقد فقدوا أنانية الحب ، وما كانت تجلبه لهم من فائدة ، أو على الأقل لقد أصبح الموقف الآن واضحاً ، وأضحى الوباء من شأن الناس جميعاً وسط الطلقات التى تهز أبواب المدينة وتوقيع البصمات التى تقضى بحياتنا أو موتنا ، وسط الحرائق والبطاقات ، وسط رعب الشكليات التى لا تنتهى ، كنا وسط كل هذا نسير نحو ميتة بشعة ولكنها لا تعدم التسجيل ، بين الأدخنة الفظيعة ورنين عربات الإسعاف الهادىء ، كنا جميعاً نطعم نفس الخبز ، خبز المنفى ، ونحن ننتظر ـ دون أن ندرى ـ نفس التلاقى ونفس الطمأنينة المثيرين . كان حبنا فى أغلب الظن ، لا يزال موجوداً ، ولكنه بكل بساطة كان قد أصبح غير صالح للاستعمال ، كان يثقل كاهلنا ، خامداً فى باطننا ، عقيماً عقم الجريمة أو حكم الإدانة . كان قد تحول إلى صبر لا مستقبل له وإلى انتظار عنيد . ومن هذه الناحية كانت حالة بعض مواطنينا تشبه تلك الصفوف الطويلة التى كنا نراها فى أركان المدينة الأربعة أمام حوانيت المواد الغذائية . إنه نفس الاستسلام ، ونفس الاحتمال الذى لا نهاية له ولا أمل من ورائه .

ولكن يجب مضاعفة هذا الشعور ألف مرة فى حالة الفراق ، لأن الأمر هنا يتعلق بنوع آخر من الجوع فى وسعه أن يلتهم كل شىء .

وأياً ما كان ، فإننا إذا أردنا أن نكون فكرة صحيحة عن حالة المفترقين الذهنية فى مدينتنا ، وجب علينا أن نعود بذاكرتنا إلى تلك الأمسيات الذهبية المتكررة المحملة بالغبار ، والتى كانت تنقض على المدينة العارية من الأشجار بينما يتدفق الرجال والنساء فى جميع شوارعها . فمن الغريب أن ما كان يصعد إلى الشرفات التى لا تزال مشمسة ، وقد خلت المدينة من كل ما يكون لغة المدينة سواء أكان ضوضاء لعربات أو آلات ، لم يكن ذلك إلا مزيجا من وقع الخطا والأصوات المكتومة . لم يكن هناك إلا زحف آلاف من النعال الموضوعة يضبط وقعها صفير الوباء تحت هذه السماء المثقلة ، لم يكن هناك إلا دبيب مذعور لا ينتهى يملأ المدينة شيئا فشيئاً ، ويعمل مساء بعد مساء على أن يطبع بصوته المثابر الكئيب ذلك التصميم الأعمى الذى كان قد حـــل فى قلوبنا محل الحب .

استمر الطاعون خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر يمسك بالمدينة منطوية على نفسها . ولما كان الأمر كله ينحصر فى الدبدبة بالأقدام دون تقدم ، فقد ظل مئات الألوف من الأشخاص يدبدبون بأقدامهم خلال أسابيع لا نهاية لها . وتوالى الضباب والقيظ والمطر على سماء المدينة . وكانت طوائف الطير الصامتة الآتية من الجنوب تمر بالسماء على علو شاهق ، فتنحرف عن جو المدينة كما لو كان يبعدها عنه جهاز بانلو ، أعنى تلك القطعة الخشبية القريبة التى تدور فوق المنازل وهى تبعث بصفيرها ، وفى بداية أكتوبر أخذت الأمطار الهاطلة تغسل الشوارع. أما فيما عدا ذلك فلم يحدث خلال كل هذا الوقت ما هو أكثر أهمية من دبدبة الأقدام الهائلة .

وحينئذ اكتشف ريو وأصدقاؤه مقدار ما أدركهم من نصب . والحقيقة أن رجال المنظمات الصحية لم يستطيعوا هضم كل هذا التعب . وكان الدكتور ريو كلما نظر إلى أصدقائه وإلى نفسه رأى نوعاً غريباً من عدم المبالاة يزحف على النفوس ، فهؤلاء الرجال مثلا الذين كانوا حتى الآن يظهرون اهتماما كبيرا بكل ما يتعلق بالطاعون من أخبار لم يعودوا الآن يهتمون بتلك الأخبار إطلاقا ، فرامبير الذى كان قد كلف بصفة مؤقتة بإدارة بيت من بيوت الحجر الصحى أقيم فى فندقه ، كان على علم

تام بعدد الذين يتولى ملاحظتهم ، وكان يعرف أدق التفاصيل بطريقة النقل السريع التى ابتدعها من أجل الذين تظهر عليهم فجأة أية علامة من علامات المرض ، كما كانت الإحصائيات الخاصة بتأثير المصل على مراكز الحجر الصحى محفورة فى ذاكرته ، ولكنه مع كل ذلك لم يكن يستطيع أن يذكر الرقم الأسبوعى لضحايا الطاعون كما كان يجهل ما إذا كان الوباء يتقدم أم يتراجع . وكان يأمل فى قرارة نفسه رغم كل شىء، فى أن تتيسر له فرصة قريبة للهرب .

أما عن الآخرين فقد شغلهم العمل ليل نهار . فلم يعودوا يقرءون الصحف ولا يستمعون إلى المذياع . فكانوا إذا ما أعلنت إليهم إحدى النتائج تظاهروا بالاهتمام بها ، ولكنهم فى الواقع كانوا يستقبلونها بذلك النوع من عدم الاكتراث الشارد الذى نتصوره لدى المقاتلين فى الحروب الكبرى عندما ينهكهم العمل فلا يعودون يبالون إلا بعدم التقصير فى أداء واجبهم اليومى دون أمل فى الموقعة الحاسمة ، أو فى يوم الهدنة .

وقد كان من المنتظر أن يعجز جران — الذى استمر يقوم بالعمليات الإحصائية المترتبة على الطاعون — عن استنباط النتائج العامة لتلك العمليات ، ولكنه كان على العكس من تارو ورامبير وريو الذين كانوا يبدون فى الظاهر أكثر منه احتمالا للتعب ، إذ أن صحته لم تكن فى يوم من الأيام جيدة . ومع ذلك فقد ظل يجمع بين قيامه بعمله ككاتب صغير فى البلدية وكسكرتير لريو إلى جانب أعماله الليلية . وهكذا كنا

فستطيع أن نراه دائماً فى حالة إنهاك ، ولكن تشد من عضده فكرتان أو ثلاث أفكار ثابتة ، كفكرة الحصول على إجازة كاملة بعد الطاعون لمدة أسبوع على الأقل يقضيها فى العمل بشكل إيجابى فيما كان بسبيله من « إرفعوا قبعاتكم » . وكان فى هذه الأثناء يتعرض لنوبات مفاجئة من الحنان ، فكان يطيب له أن يتكلم مع ريو عن چان ، ويتساءل أين يمكن ياترى أن تكون فى تلك اللحظة بالذات ؟وعما إذا كانت تفكر فيه عندما تقرأ الصحف . أما ريو ، فقد دهش من نفسه حين رآه يوماً يتحدث مع جران عن زوجته هو بلهجة عادية ، هذا الذى لم يكن قد فعله قط قبل ذلك . ولما لم يكن يثق فى البرقيات المطمئنة التى كانت تصله من زوجته فقد قرر أن يبرق إلى كبير الأطباء فى المصحة التى تعالج فيها . وكان الرد الذى تلقاه يفيد أن حالة المريضة قد ازدادت سوءا ، وأنهم سوف يفعلون كل ما فى إمكانهم لإيقاف الداء .

وقد احتفظ ريو لنفسه بهذا الخبر ، ولكنه لم يدر إلا وهو يسر به يوماً إلى جران دون سبب واضح ، اللهم إلا أن يكون التعب هو الذى دفعه إلى ذلك . وذات يوم كان موظف البلدية يكلم ريو عن چان ، وما أن انتهى من كلامه حتى سأله عن زوجته ، وأجابه ريو عن سؤاله ، فرد جران معقباً بقوله : « أنت تعلم أن هذا المرض يعالج الآن بنجاح تام » . وأيد ريو ذلك ، ولكنه قال: إن الفراق قد بدأ يطول، وإنه كان فى مقدوره أن يساند زوجته ويساعدها فى التغلب على المرض ، أما الآن فلابد وأنها تشعر بقسوة الوحدة ، ثم صمت ولم يعد يرد على أسئلة جران إلا بقصد التهرب .

وكذلك كانت حالة الآخرين ، فكان تارو أشد مقاومة من غيره ، ولكن مذكراته تدل على أنه إذا كان استطلاعه لم يفقد شيئاً من عمقه ، فإنه قد فقد الكثير من تنوعه . والواقع أنه لم يكن فيما يبدو ، — طيلة تلك المدة — يهتم بغير كوتار . وكان قد استقر به المقام عند ريو ، بعد أن تحول الفندق الذى كان يقيم فيه إلى بيت من بيوت الحجر الصحى ، فكان خلال محادثات المساء لا يكاد يستمع إلى جران أو إلى ريو وهما يتحدثان عن نتائج الوباء ، بل يسارع بتحويل دفة الحديث إلى حياة وهران اليومية بتفاصيلها الدقيقة التى كانت تشغل فكره بصفة عامة .

أما كاستل ، فكان لدى ريو فى اليوم الذى أعلن فيه للدكتور أن المصل قد أعد حيث استقر الرأى على البدء بتجربته فى ابن السيد أوتون الذى نقل حديثاً إلى المستشفى وهو فى حالة كانت تبدو لريو داعية لليأس . وبينما كان الطبيب يطلع صديقه القديم على آخر الإحصائيات ، لاحظ أنه قد استسلم لنوم عميق فى تجويف مقعده . ونظر ريو إلى هذا الوجه الذى كان يضفى عليه تعبيره الوديع الساخر شبابا دائما ، فرأى أنه ، بعد هذا الاسترخاء المفاجىء ، قد خيمت بين شفتيه شبكة من اللعاب فوصلت بينهما ، مما جعله يبدو هرما باليآ ، وحينئذ شعر ريو بانقباض يخنقه .

كانت لحظات الضعف تلك هى التى تجعل ريو يشعر بمدى ما يعانيه من تعب ، كما كان يفسح الطريق أمام حساسيته للظهور . كانت تلك الحساسية تظل طيلة الوقت جامدة جافة محاطة بما يشبه العقدة . ولكنها كانت تنفجر على فترات طويلة فتسلمه إلى انفعالات لا يمكن السيطرة

عليها . وكان دفاعه الوحيد ضد هذه الانفعالات ينحصر فى اللجوء إلى هذا الجمود، وفى أن يزيد فى شد العقدة التى تكونت عنده . وكان يعرف جيداً أن هذه طريقة حسنة تمكنه من الاستمرار والصمود . أما فيما عدا ذلك ، فإنه لم يكن يعلل نفسه بالأوهام فيما يتعلق بالطاعون ، بل لقد كان ما يعانيه من تعب يبدد ما قد يخامره من أوهام . فكان فى تلك الفترة التى لا يعرف لها نهاية يعلم أن دوره لم يعد ينحصر فى شفاء الناس ، بل فى تشخيص الداء . كانت مهمته أن يكتشف الداء ويشاهد ويصف ويسجل ثم يصدر حكمه على المريض . كانت هناك زوجات يمسكن به من معصمه ويصحن : « امنحه الحياة يادكتور » . ولكنه لم يكن هناك ليمنح الحياة ، بل ليأمر بالعزل . أما الكراهية التى كان يراها حينئذ على الوجوه فما جدواها ؟ لقد قيل له يوماً : « إنك بلا قلب » ؟ بلى ، لقد كان له قلب ، وهو الذى كان يساعده على أن يستمر فى العمل عشرين ساعة يومياً يرى فيها الناس يموتون ، وقد خلقوا للحياة . وهو الذى كان يساعده على أن يبدأ كل يوم من جديد ، وقد أصبح قلبه منذ الآن لا يتسع لغير هذا . فكيف يمكن إذن أن يتسع لمنح الناس الحياة ؟

كلا ، لم يكن العون هو الشىء الذى يوزعه ريو طيلة يومه ، وإنما كان يوزع التعليمات . نعم ، وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نعتبر أن تلك هى مهنة الإنسان . ولكن من ، إذن ، من تلك الجحافل المكبوتة المبعثرة كان لديه من الفراغ ما يعينه على ممارسة مهنة إنسانية ؟ بل لقد كان من حسن الحظ أن يلى الناس بالتعب ، فلو أن حياة ريو كانت أشد نضارة

من تلك، لاستطاعت رائحة الموت المنتشرة في كل مكان أن تجعله عاطفياً. ولكن إذا كان المرء لا ينام في اليوم سوى أربع ساعات، فإنه لا يكون أبدا عاطفيا، إنما يرى الأشياء كما هي، يراها وفقاً لما تقضى به العدالة، العدالة البشعة الواهمة. وكان الآخرون، أولئك الذين حكم عليهم بالموت، يشعرون هم أيضاً بذلك جيدا. فقبل الطاعون كانوا يستقبلونه باعتباره منقذاً. وكان بإمكانه يومئذ أن يرجع كل شيء إلى نصابه باستعمال المحقن وثلاث حبات من الدواء. وكان من يزورهم يشدون على ذراعه وهم يشيعونه في الدهاليز الطويلة. لقد كان ذلك أمراً يدعو إلى الفخر حقاً ولكنه كان أمراً خطراً. أما الآن فقد كان على العكس من ذلك، كان لا يظهر إلا مع رجال الشرطة، وكان لا بد من بعض دقات بقواعد البنادق على الأبواب لكى توافق الأسرة على أن تفتح الباب. كان المرضى يودون سوقه وسوق الإنسانية بأسرها معهم إلى الموت. آه! نعم، من الحق أن الناس لا يمكنهم الاستغناء عن الناس، ومن الحق أن ريو كان لا يملك لهؤلاء التعساء حولا ولا قوة، وكان يستحق رجفة الشفقة التي كان يحس بها، ويتركها تكبر في نفسه عندما يغادرهم.

هذه، على الأقل، هي الأفكار التي ظلت، خلال تلك الأسابيع —التي لا نهاية لها— تراود الدكتور ريو مع غيرها من أفكار خاصة بحالة الفرقة التي كان يعانيها. وكانت هي أيضا نفس الأفكار التي تقرأ على وجوه أصدقائه، ولكن أشد نتائج الإنهاك الذي أصيب به أولئك الذين استمروا في مكافحة الوباء خطراً، لم تكن تنحصر في هذا النوع من عدم المبالاة تجاه الأحداث الخارجية وتجاه عواطف الآخرين، ولكن فيما اندفعوا فيه من إهمال لكل شيء؛ فقد مالوا في ذلك الوقت إلى تجنب

كل ما بالضرورة له من حركات كانت تبدو لهم فوق طاقتهم . وهكذا وصل هؤلاء الرجال إلى التمادى شيئاً فشيئاً فى إهمال القواعد الصحية التى تولوا هم سنها ، وإلى نسيان وسائل التطهير الكثيرة التى كان من الضرورى تطبيقها على أنفسهم ، فكانوا يهرعون أحيانا إلى مرضى مصابين بالطاعون الرئوى دون أن يحصنوا أنفسهم ضد العدوى ، وذلك بحجة أنهم قد أخطروا فى اللحظة الأخيرة بضرورة التوجه إلى المنازل الملوثة ، وأنه قد بدا لهم أن فى الذهاب إلى أحد المراكز للحصول على الحصانة الضرورية مشقة كبيرة . وكان هذا هو الخطر الحقيقى ؛ لأن مكافحة الطاعون هى نفسها التى جعلتهم عرضة للإصابة به . لقد اعتمدوا على المصادفة ، وليس من شأن المصادفة أن تحالف أحداً .

ومع ذلك فقد كان هناك رجل فى المدينة لم يبد عليه الإنهاك ولا اليأس ، بل ظل صورة حية للرضا ، ذلك هو كوتار ؛ فقد ظل منعزلا مع المحافظة على علاقاته بالآخرين ، ولكنه واظب على زيارة تارو كلما سمح لهذا الأخير عمله بذلك ؛ وهذا من جهة لأن تارو كان يعرف عن حالته الكثير ، ومن جهة أخرى لأنه كان يعرف كيف يستقبل ذا الدخل الصغير هذا بود قلبى لا يتغير . كانت تلك أعجوبة لا تنتهى ، ولكن تارو كان قد ظل دائما — رغم ما كان يؤديه من أعمال جسام — يستقبله ببشاشة واهتمام ، فقد كان — حتى فى الليالى التى كان التعب فيها يحطمه تحطيما — يستعيد قوته فى اليوم التالى ، وكان كوتار يقول لرامبير : إنه يستطيع دائما أن يتكلم مع هذا الشخص ؛ لأنه إنسان ، وفى وسعه دائما أن يفهمك » .

ولهذا كانت مذكرات تارو فى هذه الآونة تتركز شيئا فشيئا حول كوتار ، وقد حاول تارو أن يعطينا صورة عن تفاعل كوتار بالأحداث وتفاعلها به ، كما صورها له هذا الأخير ، أو كما فسرها هو نفسه ، وقد شغلت هذه الصورة عدة صفحات من المذكرات تحت عنوان « علاقات كوتار بالطاعون » . ومن رأى الراوى أنه من المفيد أن يذكر هنا ملخصا لها . رأى تارو فى صاحب الدخل هذا على وجه العموم يتلخص فى هذا الحكم : « إنه شخصية تتقدم فى طريق العظمة » . ومن الظاهر أنه كان يعظم من حيث الرضا ، فلم يكن ساخطا على الطريقة التى تدور بها الأحداث ، وكان يعبر أحيانا عن أعماق فكره أمام تارو بملاحظات من هذا النوع : « من المؤكد أن الأمور لا تتحسن ، ولكن على الأقل كل الناس فى الكارثة سواء » .

ويضيف تارو إلى ذلك قوله : « إنه قطعا مهدد بالخطر كالآخرين ولكن الخطر يحيط به وبالآخرين فى وقت واحد ، ثم لا شك فى أنه لا يفكر جديا فى أنه قد يصاب بالطاعون ؛ إذ يبدو أنه يعيش على فكرة لا أعتقد أنها تتسم بالغباء ، وهى أن الرجل المهدد بمرض خطير ، أو بألم نفسى كبير تنأى به المقادير فى نفس الوقت عن الأمراض والآلام الأخرى جميعا ، وقد قال لى ذات مرة : « ألم تلاحظ أنه لا يحدث المرء أن يجمع عدة أمراض فى آن واحد ؟ فإذا كان هناك شخص مصاب بمرض خطير أو غير قابل للشفاء ، كسرطان كبير مثلا ، أو سل هائل ، فإنه لا يصاب أبدا بالطاعون أو بالتيفوس ، هذا محال . بل يمكن الذهاب إلى أبعـــد من ذلك ؛ لأنك لم تصادف أبدا شخصا مصابا

بالسرطان يموت فى حادث سيارة ». وسواء أكانت هذه الفكرة خطأ أم صوابا ، فإنها كانت السبب فى اعتدال مزاج كوتار. أما الشىء الوحيد الذى لم يكن يريده ، فهو ألا يظل منفصلا عن الآخرين . كان يفضل أن يدخل فى نطاق الحصار مع الآخرين على أن يظل سجينا بمفرده ، وفى حالة وجود الطاعون لم يكن هناك مجال للتحقيقات السرية ، والسجلات ، والبطاقات والمعلومات الغامضة ، والاعتقال العاجل . ففى واقع الأمر لم تكن هناك شرطة ، ولا جرائم قديمة أو حديثة ، ولا مذنبون . لم يكن هناك إلا محكوم عليهم ينتظرون فضلا خاصاً من السماء ، وكان رجال الشرطة أنفسهم من بين هؤلاء ، وهكذا ظل كوتار — حسب تحليل تارو — يتأمل أعراض القلق والهلع على وجوه مواطنينا بذلك النوع من الرضا المتسامح الواعى الذى يمكن أن يعبر عن نفسه بهذه الكلمة :

« مهما قلتم ، فإنى قد أصبت به من قبلكم » .

« وعبثاً حاولت أن أفهمه أن الطريقة الوحيدة لعدم الابتعاد عن الآخرين تنحصر فى أن يكون المرء حى الضمير ، ولكنه كان ينظر إلى فى خبث ، ويقول : « إذا صح ما تقول فإنه لن يتأتى لأحد مطلقا أن يكون مع أحد » . ثم يردف قائلا : « يمكنك أن تأخذ هذا الذى سأقوله لك على أنه قضية مسلمة ، فإن الوسيلة الوحيدة لجعل الناس بعضهم مع بعض هى أن ترسل إليهم الطاعون ، ما عليك إلا أن تنظر فيما حولك » . والحقيقة أنى كنت أفهم ما يريد أن يقول ، وأرى كيف أن حياتنا هذه

الأيام كانت تبدو له مريحة فكيف كان يتأتى له إذن ألا ينساق إلى الاعتراف بما كان يخامره من خواطر ، وبالمحاولة التى يبذلها كل واحد منا لكى يكون الناس جميعاً من حوله . وبروح المجاملة وحب أداء الخدمات اللذين يبدوان منا فى بعض الأحيان عندما نرشد عابر سبيل ضل طريقه ، وبالاستياء الذى نبديه له أحياناً أخرى ، وباندفاع الناس إلى المطاعم الفاخرة ، وشعورهم بالارتياح لوجودهم فيها ، وميلهم إلى أن يظلوا فيها حتى وقت متأخر ؛ وتدفق الناس على دور السينما ، واصطفافهم أمامها بالساعات بحيث تغص بهم قاعات العرض وقاعات الرقص جميعا ، ذلك التدفق ينتشر كموجات المد نحو الأماكن العامة ، وكيف لا يعترف بذلك التراجع أمام كل احتكاك ، بالرغم من اشتهاء الحرارة البشرية الذى كان يدفع الناس بعضهم نحو بعض ، حتى تتلاقى الأذرع بالأذرع والجنس بالجنس ؟ لا جدال فى أنّ كوتار قد عرف كل هذا من قبلهم ، فيما عدا النساء لأنه — وذلك بالنسبة له . . وأحسب أنه لما شعر بأنه يوشك على الاندفاع نحو النساء الساقطات — أبى على نفسه ذلك ؛ لكيلا يبدو عليه سوء المسلك مما قد يسىء إليه فى المستقبل .

« وباختصار ، كان الطاعون ملائماً له ؛ فبعد أن كان شخصا يعيش وحده فى معزل عن الناس رغم إرادته جعل منه الطاعون شريكا له فى الجريمة ، وشريك مرتاح لهذه الشركة ؛ إنه شريك فى كل ما يقع أمام بصره ، فى الخرافات ، والخوف غير المشروع ، وفى سرعة تأثر تلك النفوس المرتاعة ، شريك فى تلك النزوة التى يشعرون بها ، نزوة الإقلال بقدر الإمكان من الكلام عن الطاعون ، والانسياق بالرغم من ذلك

فى عدم الكف عن الكلام عنه ، شريك فى ارتياعهم وشحوبهم كلما أصابتهم أبسط حالات الصداع مذ عرفوا أن المرض يبدأ بآلام فى الرأس ؛ وشريك كذلك فى حساسيتهم المرهفة السريعة التأثر ، غير الثابتة ، التى تؤول أيسر أنواع النسيان على أنه إهانة ، وتثور عندما يفقد زر من أزرار سروال » .

وكثيراً ما كان يحدث أن يخرج تارو برفقة كوتار فى المساء . وهو يقص فى مذكراته كيف كانا ينغمران وسط الجموع الزاخرة التى تتجمع فى الغروب أو فى الليل وقد التصق الكتف بالكتف ، كانا ينغمران فيها ككتلة واحدة بيضاء وسوداء يضفى عليها أحد المصابيح البعيدة لمحة نادرة من الضوء ، كانا يرافقان القطيع البشرى نحو المتع الحارة التى تحميه من برودة الطاعون . إن هناك الآن شعباً بأسره يتجه إلى ما كان يبحث عنه كوتار منذ أشهر قليلة فى الأماكن العامة ، فى الترف والحياة العريضة ، ذلك الشىء الذى كان يحلم به دون أن يستطيع تحقيقه : ألا وهو البهجة التى لا شىء يكبح جماحها . وفى الوقت الذى كانت فيه أسعار الحاجيات جميعها فى ارتفاع لا يمكن تجنبه كان الناس يبعثرون كما لم يفعلوا من قبل قط . وفى الوقت الذى كانت فيه الضروريات تنقص أغلب الناس كان أولئك الناس يبددون الكماليات كما لم يفعلوا فى أى وقت مضى . وأخذ الناس يشاهدون كل تلك النتائج التى يتمخض عنها الفراغ ، وإن لم يكن هذا الفراغ فى حقيقة أمره إلا نوعا من البطالة . وكان يحدث لتارو دكوتار أن يتتبعا للحظات طويلة زوجين من أولئك الأزواج الذين كانوا يحاولون جادين فيما مضى إخفاء الصلة التى تربطهم -

ولكنهما أصبحا الآن يسيران خلال المدينة عامدين وقد التصق كل منهما بالآخر دون أن يشعرا بالجوع التى تحيط بهما أو تراهما ، لأنهما قد غرقا من ذلك الشرود الملح الذى يميز ذوى العواطف الملتهبة . وكان كوتار يتأثر بذلك ،ويقول :

« ياللسعداء ! » ، أكان يتكلم بصوت عال وقد انشرح صدره وسط الحمى الجماعية ،والعطايا السابغة التى تبعثر حوله للخدم ، والمؤامرات التى تدبر أمام عينيه .

ومع ذلك ، فإن تارو كان لايرى الكثير من الشر فى مسلك كوتار هذا ؛ ذلك أن قوله : « لقد مررت بهذا من قبلهم » . يدل على التعاسة أكثر مما يدل على الانتصار ، ويقول تارو : « أعتقد أنه قد بدأ يحب أولئك الناس المسجونين بين السماء وجدران المدينة ، فقد كان على استعداد لأن يشرح لهم لواستطاع إلى ذلك سبيلا — أن الطاعون ليس شيئاً مروعا كمايتصورون ، وكثيراً ماكان يؤكدلىقوله : « إنك تسمعهم يقولون : بعد الطاعون سأفعل كذا أو كذا ، وهكذا تراهم يسممون حياتهم بدلا من أن يعيشوا فى هدوء .

إنهم لا يشعرون بما هم فيه من ميزات ، فهل أستطيع أنا مثلا أن أقول « بعد القبض علىسأفعل كذا أوكيت ؟ ! إن الاعتقال بداية وليس نهاية . أما الطاعون . . أتريد رأيى ؟ إنهم تعساء ؛ لأنهم لا يستسلمون ويسيرون فى طريقهم ، وإنى لواثق مما أقول »ويضيف تارو: « والواقع أنه كان يعرف معنى ما يقول ، فهو يحكم على المتناقضات التى تميز سكان وهران حكما حقيقيا ؛ ففى الوقت الذى كان يشعر فيه هؤلاء السكان شعوراً عميقاً بالحاجة إلى الدفء الذى يقرب بعضهم من

بعض ، لم يكونوا يستطيعون — رغم ذلك — أن يستسلموا لهذا الدفء بسبب عدم الثقة التى تبعد بعضهم عن بعض . فهم يعرفون جيداً أنه لا يمكن لأحد أن يثق فى جاره ، لأنه قادر على أن يمنحه الطاعون دون أن يشعر ، ويستفيد من استسلامه إليه لكى يلوثه بالجراثيم . والحقيقة أنه إذا تأتى للمرء أن يقضى وقته — مثل كوتار — فى تفحص الناس ، ورأى أن كل من يحب صحبتهم من الناس ليسوا إلا مخبرين فانه يستطيع أن يفهم هذا الشعور . لذلك لا يسع المرء الا أن يشعر بالعطف الكبير نحو أولئك الذين يعيشون فى فكرة أن المرض قد يضع يده بين عشية وضحاها على كتفهم ، وأن ذلك قد يكون فى نفس الوقت الذى يشعرون فيه بالبهجة لأنهم ما زالوا أصحاء ، وما دام ذلك ممكنا ، فإنه يشعر براحة وسط الإرهاب ، ولكنه لما كان قد شعر بكل هذا من قبل غيره ؛ فإنه اعتقد أنه لا يستطيع أن يشاركهم مشاركة كلية فى القول بقسوة هذا الشك .

وباختصار ، فإن مثل هذا الشخص كان إذا وجد نفسه بيننا — نحن الذين لم نمت بعد بالطاعون — لم يكف يوماً عن الشعور بأن حريته وحياته تبدوان كما لو كانتا على وشك الانهيار ، ولكن لما كان هو نفسه قد عاش فى الإرهاب ، فقد كان يرى من الطبيعى أن يعرف الآخرون بدورهم هذا الإرهاب الذى كان يبدو له فى ذلك الوقت أخف حملا من الإرهاب الذى يحمله بمفرده ، وهذ هو وجه الخطأ فى مسلكه ، وما كان من شأنه أن يجعله أكثر صعوبة على الفهم من غيره ، ولكن هذا — بالذات — هو أيضاً ما يجعل من حقه علينا أن نحاول فهمه أكثر من غيره » .

وأخيراً ، تنتهى صفحات تارو بقصة يرويها، ويدلل بها على الضمير الغريب الذى نبت لدى كوتار ، ولدى المصابين بالطاعون فى وقت واحد وهذه القصة تجعل الجو الصعب الذى ساد تلك الفترة يستقر تقريبا ، ولذلك يوليها الراوى بعض عنايته .

فلقد اتفق أن ذهب كوتار وتارو إلى دار أوبرا البلدية ، حيث كانت تعرض مسرحية «أورفيه» لجلوك ، وكان ذهاب تارو بدعوة من كوتار ، وكانت الفرقة قد قدمت المدينة فى ربيع الطاعون لتقدم بعض مسرحياتها على مسرحها ، ولما حاصرها المرض رأت — بعد الاتفاق مع دار الأوبرا — أن تعيد عرضها مرة كل أسبوع .

وهكذا أصبح مسرح البلدية عندنا منذ أشهر طويلة ، وفى يوم الجمعة من كل أسبوع ، يعج بأنات أورفيه الموسيقية، وبنداءات أوريديس العاجزة ، ومع ذلك فقد استمر هذا المشهد يلاقى نجاحاً من الجمهور ، ويحقق يومياً أرباحا طائلة ، وجلس كوتار وتارو فى أغلى الأماكن ثمنا ، وكانا يشرفان من مكانيهما على قاعة غصت حتى آخرها بأكثر مواطنينا أناقة ، وكان القادمون يبذلون قصارى جهدهم ؛ لكيلا يفوتهم شىء من العرض ، وفى وسط الأضواء الأمامية الشديدة ، وفى الوقت الذى كان الموسيقيون فيه يضبطون آلاتهم وراء الستار كانت أشباح الناس تذهب من صف لآخر ، وتنحنى فى خفة ، وكان الصخب الخفيف الذى ينشأ عادة من محادثة ودية اللهجة يعيد إلى الناس الثقة التى كانت تنقصهم منذ بضع ساعات خلال شوارع المدينة المظلمة ، وعلى هذا النحو كان لباس السهرة يطرد الطاعون .

وخلال الفصل الأول انبرى « أورفيه » يبث شكواه فى سهولة ويسر ، بينما وقفت بعض النساء يترجمن برقة عن تعاسته ويتغنين بالحب ، وكان رد الفعل فى القاعة حاراً وصامتا ، ولم يكد أحد يشعر أن أورفيه قد استطاع أن يدخل فى لحن الفصل الثانى رجفة لم تكن فيه ، وراح يطلب — فى كثير من المغالاة والافتعال — إلى سيد الجحيم أن يرق لدموعه ، ولما بدرت منه بعض حركات رتيبة رأى أكثر الناس علما أنهـا نوع من مؤثرات الإخراج التى تضيف إلى تفسير الغناء ما يزيده وضوحا .

وكان لابد من انتظار الفصل الثالث ، ليستطيع الثنائى الكبير — المكون من أورفيه وأوريديس (كان ذلك فى الوقت الذى تهرب فيه أوريديس من حبيبها) — أن يسرى عن الشهود بنوع من المفاجأة ، ويبدو أن المغنى لم يكن ينتظر سوى تلك الحركة من الجمهور ، أو لعل الأصح أن تكون الهمهمة المنبعثة من مقاعد القاعة قد أكدت له ما سبق أن شعر به ، فاختار تلك اللحظة بالذات ليتقدم نحو الحاجز الجانبى بطريقة مضحكة ، وقد تباعدت ذراعاه وساقاه كل منهما عن الأخرى ، وهو فى زيه العتيق حيث ذرع الأرض بجسمه وسط المقاعد التى يتكون منها المنظر الخارجى ، تلك المقاعد التى لم تكن متناسبة مع زمنها فى يوم من الأيام ، وإن كان المشاهدون لم يفطنوا إلى ذلك إلا فى هذه اللحظة لأول مرة وبصورة مروعة ، وذلك لأنه فى نفس الوقت توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، ونهض متفرجو القاعة ، وبدءوا يخلون عنها ببطء وسكون فى أول الأمر ، كما لو كانوا يغادرون إحدى الكنائس بعد انتهاء

القداس ، أو المقبرة بعد الزيارة ، وكان النساء يجمعن أطراف ثيابهن وهن يخرجن مطأطئات الرءوس ، والرجال يقودون رفيقاتهم من زنودهن ليجنبوهن الاصطدام بالمقاعد . ولكن الحركة أخذت تزداد عنفا بالتدريج، وتحول الهمس إلى صيحات تعجب ، وتدفقت الجموع نحو أبواب الخروج وهى تتزاحم حتى انتهى بها الأمر إلى التدافع بالأيدى والمناكب ، وارتفع صياحها . وكان تارو وكوتار قد نهضا ، ولكنهما ظلا بمفردهما فى مكانهما وجها لوجه أمام صورة تمثل حياتهم فى ذلك الحين : هاهو ذا الطاعون على المسرح فى صورة ممثل مهرج عديم التوازن ، وها هى قاعة المسرح تغص بمظاهر ترف أصبح غير ذى جدوى من مراوح نسيتها صاحباتها ، وقطع « دنتلة » تغطى ظهور المقاعد الحمراء .

لقد عمل رامبير خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر بهمة ونشاط إلى جانب ريو ، ولم يطلب فى مقابل ذلك أن يحصل على عطلة فى اليوم الذى عزم فيه على مقابلة جونزاليس والشابين أمام مدرسة البنين .

وفى ظهر هذا اليوم رأى جونزاليس والصحفى الشابين يقبلان ضاحكين ، وقال هذان الأخيران : إن الحظ لم يحالفهما فى المرة السابقة ، وأن هذا كان أمراً متوقعاً ، وعلى كل حال لم يكن هذا الأسبوع من الأيام التى يتوليان فيها الحراسة ، فينبغى الانتظار إلى الأسبوع القادم ؛ لكى يبدءا من جديد . وقال رامبير : إن هذا هو التعبير الدقيق عن المسألة ، وحينئذ اقترح جونزاليس أن يتقابلوا جميعاً يوم الاثنين التالى ، ولكنه رأى أن يقيم رامبير هذه المرة عند مارسيل ولويس إذ قال : « سنضرب موعداً بيننا نحن الاثنين ، فإذا لم أحضر فما عليك إلا أن تذهب رأسا إلى بيتهما ، وسنشرح لك أين يقيمان ، وحينئذ قال مارسيل — أو لويس — قال حينئذ : إنه من الأبسط أن يصحبا رأسا هذا الرفيق إلى بيتهما ، فإنه إذا لم يكن من المرفهين فإن ما عندهما من طعام يكفيهم هم الأربعة ، كما أن وجوده بينهما يساعده على أن يكون فكرة واضحة عن الموضوع ، وأجاب جونزاليس بأن هذه فكرة جميلة جداً ، وعلى إثر ذلك اتجهوا جميعا هابطين نحو الميناء .

وكان مارسيل ولويس يقيمان فى طرف حى البحرية قرب الأبواب التى تفتح على الكورنيش ، وكان بيتهما من تلك البيوت الأسبانية الصغيرة ذات الجدران السميكة والنوافذ الخشبية المطلية ، وكانت غرفه عارية ومعتمة ، وقد أسرعت أم الشابين ــ وهى أسبانية عجوز ذات وجه باسم مغطى بالتجاعيد ــ بتقديم شىء من الأرز لهم ، ودهش جونزاليس ؛ لأن الأرز كان من المواد الغذائية التى لا توجد فى المدينة فى ذلك الحين ، وقال مارسيل : « إننا ندبر أمرنا لدى الأبواب » . وأكل رامبير وشرب ، وبينما كان جونزاليس يثنى عليه قائلا : إنه رفيق حقيق ، لم يكن الصحفى يفكر إلا فى ذلك الأسبوع الذى سيقضيه فى هذا المكان .

ولكنه انتظر فى الواقع أسبوعين ، لأن نوبة الحرس كانت قد صارت أسبوعين ، وذلك للتقليل من عدد فرق الحراسة . وقد دأب رامبير خلال الخمسة عشر يوماً هذه على العمل المتواصل ، وهو شبه مغلق العينين ، ابتداء من الفجر حتى حلول الليل ، ولم يكن يأوى إلى فراشه إلا فى وقت متأخر من الليل ، فينام نوماً عميقاً ، وكان لانتقاله المفاجىء من البطالة إلى العمل المتواصل أثره فى أن يظل عديم الأحلام منهك القوة ، كان يتكلم قليلا عن هربه القادم ، ولم يحدث فى هذه المرة مما هو جدير بالملاحظة إلا شىء واحد : فبعد مضى أسبوع أسر إلى الدكتور أنه كان قد ثمل فى الليلة الماضية للمرة الأولى ، وعندما خرج من الحانة بدا له فجأة أن هناك تضخما عند ثنيتى الفخذين ، وأن ذراعيه لم تكونا تقويان على الحركة تحت الإبطين إلا بصعوبة ، وظن أنه الطاعون ، وكان

رد الفعل الوحيد الذى بعث عليه هذا الظن ، والذى اتفق هو والدكتور ريو على أنه لم يكن تصرفا صائبا ، هو أن عاد إلى أعلى المدينة ، حيث وقف فى مكان صغير لا يرى منه البحر ، وإن كانت تطل منه بقعة كبيرة من السماء ، ودعا زوجته ـ عبر جدران المدينة ـ بصرخة كبيرة مدوية . ولما عاد إلى مسكنه ، ولم يكتشف على جسمه أية علامة من علامات العدوى ، اعتراه الخزى من هذه الأزمة المفاجئة . وأجابه ريو بأنه يقدر جيداً أن يقوم الناس بمثل هذا التصرف ، وأضاف قائلا : « وعلى كل حال قد يحدث أن يجد الناس أنفسهم مندفعين نحو هذا التصرف » ، وفجأة استأنف ريو كلامه فى الوقت الذى هم فيه رامبير بالانصراف فقال : « لقد كلمنى السيد أوتون عنك هذا الصباح ، وسألنى عما إذا كنت أعرفك . ثم قال لى : « انصحه إذن ألا يغشى أوساط المهربين ؛ فإن ذلك يلفت أنظار الناس إلى تردده عليهم » .

ـــ ما معنى هذا ؟

ـــ معناه أنه ينبغى لك أن تسرع .

فأجاب رامبير قائلا ـــ وهو يشد على يد الطبيب ـــ :

ـــ شكراً .

وما أن وصل إلى الباب حتى استدار فجأة ، فلاحظ ريو أنه يبتسم للمرة الأولى منذ بدء الطاعون ، ويقول :

ـــ لماذا لا تمنعنى من الرحيل ، وأنت تملك الوسائل لذلك ؟

وهز ريو رأسه بحركة مألوفة منه ، وقال : إن هذا من شأن رامبير

ما دام قد اختار السعادة ، وإنه — أى ريو — ليس لديه من الحجج ما يجعله يقف فى طريقة ؛ إذ أنه يشعر بأنه غير قادر على تمييز الخطأ من الصواب فى هذا الموضوع ، فسأله رامبير :

— لماذا تطلب منى إذن أن أبادر بالهرب فى هذه الظروف ؟

وابتسم ريو بدوره ، ثم قال :

— قد يكون ذلك لأننى ، أنا نفسى ، أتوق إلى تقديم بعض الخدمات للسعادة .

وفى اليوم التالى لم يتكلما فى أى موضوع ، ولكنهما عملا جنباً إلى جنب ، ولم يحن الأسبوع التالى حتى كان المقام قد استقر برامبير فى البيت الأسبانى الصغير ، حيث أعد له سرير فى الغرفة المشتركة ، ولما كان الشابان لايعودان إلى البيت لتناول الوجبات ، وكانا قد رجواه أن يقلل من الخروج بقدر الإمكان ، فقد كان يعيش فى البيت بمفرده — فى أغلب الأوقات — أو يتحدث مع الأم الأسبانية العجوز ، وكانت هذه سيدة جافة نشطة ، ترتدى الملابس السوداء ، ذات وجه أسمر اللون متجعد تحت شعرها الأبيض النظيف ، ولم تكن تتكلم قط ، ولكنها كانت إذا نظرت إلى رامبير ابتسمت له بكل ما فى عينيها من قوة .

وذات مرة سألته عما إذا كان لا يخشى أن يحمل الطاعون إلى زوجته ، فأجابها بأن تصرفه فيه شىء من المخاطرة ، ولكنها مخاطرة بعيدة التحقق ، وأنه إذا بقى فى المدينة فقد يظلان مفترقين إلى الأبد .

وسألته العجوز وهى تبتسم :

— أهى لطيفة ؟

— لطيفة جداً .

— وجميلة ؟

— أعتقد ذلك .

فقالت : آه ! هذا هو السر .

وأخذ رامبير يفكر قائلا لنفسه : لا شك أن هذا هو السر، ولكن من المستحيل أن يكون هو كل السر .

وعادت العجوز — التي كان من عادتها أن تذهب إلى الكنيسة كل أسبوع — تسأله من جديد :

— ألا تؤمن بالله ؟

واعترف لها رامبير بأنه غير مؤمن ، فقالت العجوز مرة أخرى :

— هذا هو السر ، يجب أن تلحق بها ، إنك محق فى ذلك ، وإلا فماذا يبقى لك ؟

أما فى الأوقات الأخرى ، فقد كان رامبير يلف ويدور حول الجدران العارية المتداعية ، وهو يتحسس المراوح المثبتة على الحائط بالمسامير ، أو يعد كرات الصوف التى تزين أطراف غطاء المائدة ، وفى المساء كان الشابان يعودان ، فلا يكادان يتكلمان كثيراً إلا لكى يقولا له : إن الوقت المناسب لم يحن بعد ، وبعد العشاء كان مارسيل يعزف على «الجيتار» ، ويشرب شيئاً من كحول الينسون . أما رامبير ، فكان يظل مستغرقا فى تفكيره .

وفى يوم الأربعاء عاد مارسيل إلى البيت وهو يقول : « إن موعدنا غداً مساء فى منتصف الليل ، فاستعد لذلك » .

وذلك أن أحد الحارسين اللذين كانا يتوليان الحراسة معهما قد أصيب بالطاعون . أما الآخر ، فقد وضع تحت الملاحظة ، وهكذا كان مارسيل ولويس سيظلان بمفردهما لمدة يومين أو ثلاثة ، فقررا أن يضعا باقى تفاصيل الخطة فى أثناء الليـــل ؛ حتى لا يأتى اليوم التالى إلا ويكون كل شىء قد تم . فشكرهما رامبير ، وسألته العجوز : « هل أنت مسرور ؟ » . فأجاب بنعم ، ولكنه كان يفكر فى شىء آخر .

وفى اليوم التالى كانت الريح ساكنة ، والجو حارا رطباً خانقاً ، وكانت أنباء الطاعون سيئة ، ومع ذلك فقد ظلت الأسبانية العجوز محتفظة بصفائها ، وكانت تقول : « إن الخطيئة متفشية فى العالم ، وهذه هى النتيجة الحتمية لذلك » .

وكان رامبير ، وكذلك مارسيل ولويس ، قد جلسوا عارى الصدور والظهور ، ومع ذلك ، فقد كان عرقهم يتصبب فيما بين الكتفين ، وعلى الصدر ، وفى الضوء المعتم فى ذلك البيت ذى النوافذ الخشبية المغلقة كان ذلك العرق المتصبب يجعل نصفهم العلوى يبدو قاتماً لامعاً ، وكان رامبير يلف ويدور فى البيت دون أن يتكلم ، وفجأة فى الساعة الرابعة ارتدى ملابسه ، وأعلن أنه سيخرج ، فقال له مارسيل :

ـــ خذ حذرك فإن موعدنا منتصف الليل ، وكل شىء قد أعد .

وذهب رامبير إلى بيت الدكتور يسأل عنه ، فقالت له أمه : إنه

يستطيع أن يعثر عليه فى مستشفى أعلى المدينة ، وأمام مركز الحراسة كانت الجوع بعينها تلف وتدور حول نفسها ، وكان هناك جاويش مكور المقلتين ، يصيح فيهم : « هيا انصرفوا » . فكانوا يسيرون ولكن فى خط دائرى . وصاح الجاويش ثانية — وقد بدت سترته مبللة بالعرق — : « ليس هناك مايدعو لانتظاركم » ، وكان هذا هو رأيهم أيضا ، ومع ذلك فقد ظلوا ينتظرون رغم الحر القاتل .

وأظهر رامبير جواز مروره للجاويش ، فدله على مكتب تارو ، وكان باب المكتب يطل على الفناء ، فتقابل فى طريقه إليه مع الأب بانلو وهو خارج من المكتب .

فى حجرة صغيرة قذرة مطلية باللون الأبيض تنبعث منها رائحة العقاقير والأغطية الرطبة كان تارو يجلس خلف مكتب من الخشب الأسود ، وقد شمر أكمام قميصه ، وراح يجفف بمنديله العرق الذى يسيل على ذراعه ، وقال حين لمح رامبير :

— أما زلت هنا ؟

— نعم ، وأريد التحدث إلى ريو .

— إنه فى قاعة الكشف ، ولكن من المستحسن أن تسوى الأمر بدونه .

— لماذا ؟

— لأنه مجهد ، وأنا أود أن أجنبه ما أستطيع تجنيبه إياه من جهد .

وأخذ رامبير يحدق النظر فى تارو ، وكان هذا الأخير قد هزل ، وغض التعب عينيه وملامحه ، وتكورت كتفاه المثلثتان حتى أصبحتا كالكرتين الصغيرتين ، وفى هذه الأثناء سمعت دقات على الباب ، ثم دخل أحد الممرضين وقد غطى وجهه بقناع أبيض ، ووضع على مكتب تارو لفافة تحتوى على أوراق البطاقات ، وقال بصوت يحجبه نسيج القناع :

« إنها ست » ثم انصرف ، ونظر تارو إلى الصحفى ، وأراه البطاقات التى بسطها أمامه كالمروحة ، ثم قال :

— إنها بطاقات جميلة ، أليس كذلك ؟ ولعمرى إنها ليست كذلك فى الحقيقة ، فهى خاصة بالموتى ، موتى الليل .

كان يقول ذلك وقد تجوفت جبهته ، ثم أعاد طى لف البطاقات ، وهو يقول :

— إن الشيء الوحيد الذى ينقصنا هو المحاسبة .

ثم نهض وهو يتكيء على المائدة ، وسأل :

— هل سترحل قريباً ؟

— هذا المساء فى منتصف الليل .

فأجاب تارو بأن هذا يسره ، وأوصاه بأن يعنى بنفسه .

فقال رامبير :

— أتقول هذا مخلصاً ؟

ورفع تارو كتفيه ، وقال :

— فى مثل سنى لا يمكن للمرء إلا أن يكون مخلصاً ، فإن الكذب حمله ثقيل .

وقال الصحفي :

ـــ أرجو معذرتك ياتارو ، فإني أريد رؤية الدكتور .

ـــ أعرف ذلك ، فالناحية الإنسانية عنده أقوى منها عندي .
هيا بنا .

ونظر إليه تارو ، وابتسم له فجأة .

وانطلقا في دهليز صغير قد طليت جدرانه باللون الأخضر الفاتح ، وانبعث فيه ضوء خافت ، وقبل أن يبلغا باباً زجاجياً مزدوجاً تشاهد من خلفه حركة ظلال ملفتة للنظر أدخل تارو رامبير في غرفة صغيرة جداً قد غطيت جدرانها جميعاً بدواليب الحوائط ؛ ففتح إحدها ، وأخرج من إحدى أجهزة التعقيم قناعين من نسيج قطني رقيق ، فقدم أحدهما إلى رامبير ، ودعاه إلى أن يغطي به وجهه ، وسأله الصحفي عما إذا كان ذلك ذا جدوى ، فأجابه بالنفي ، ولكنه عقب بأن ذلك يوحي بالثقة إلى الآخرين .

ودفعا الباب الزجاجي ، فانفرج عن قاعة فسيحة ذات نوافذ قد أغلقت بإحكام رغم حرارة الجو ، وفي أعلى الجدران كان يسمع حفيف أجهزة التهوية التي كانت مراوحها المعقوفة تدفع الهواء شديد الحرارة فوق صفين من الأسرة الرمادية اللون ، ومن كل ناحية كانت تتصاعد الأنات المكتومة الحادة ، فتتجمع مكونة شكوى واحدة ذات نغمة رتيبة ، وكان هناك بعض الرجال في ملابس بيضاء يتنقلون ببطء تحت الأضواء الفجة المنصبة من فتحات عادية قد غطيت بالقضبان ، وشعر رامبير بالضيق من وطأة الحرارة الخانقة في تلك القاعة ، ولم يتعرف على ريو إلا بصعوبة ، حينما

رآه منحياً على هيكل يئن ؛ فقد كان منهمكا فى فتح خراريج فوق الفخذين لأحد المرضى ، بينما وقف إثنان من الممرضين بجانبى السرير ، وأمسك كل منهما بإحدى فخذى المريض لإبعادها عن جسمه ، وبعد برهة نهض الطبيب واقفاً ، وألقى بآلاته على الصحفة التى كان يمسكها أمامه أحد مساعديه ، وبقى لحظة دون حركة ينظر إلى الرجل الذى أخذ المساعدون فى تضميد جراحه .

وقال لتارو — وهو يتقدم نحوه :

— هل من جديد ؟ فأجاب :

— إن بانلو قد وافق على أن يحل محل رامبير فى بيت الحجر الصحى ، وقد بذل حتى الآن مجهوداً كبيراً ، فتبقى الفرقة الثالثة الخاصة بالمراقبة حيث يتطلب الأمر إعادة تكوينها بدون رامبير ، وأومأ ريو برأسه موافقاً .

وواصل تارو كلامه قائلاً :

— لقد انتهى كاستل من إتمام مستحضراته الأولى ، ويقترح القيام بتجربتها .

وصاح ريو :

— آه ! هذا حسن .

— وأخيراً ، ها هو ذا رامبير .

واستدار ريو ، وما أن لمح رامبير حتى تكسرت جفون عينيه من فوق القناع ، وقال :

— ماذا تفعل هنا ، كان ينبغى أن تكون الآن فى مكان آخر .

وأجاب تارو بقوله : « إن الأمر سيتم هذا المساء فى منتصف الليل . »

فأضاف رامبير : « هذا هو المفروض » .

وكانوا كلما تكلم أحدهم ، أخذ القناع الرقيق ينتفخ . ويبتل فى مكان الفم ، وكان ذلك يضفى على المحادثة جواً بعيداً عن جو الحقيقة ، كما لوكان الحديث يدور بين تماثيل ، وقال رامبير :

— إنى أرغب فى التحدث إليك .

— سوف نخرج سوياً ، لو كنت تريد ذلك حقاً . انتظرنى فى مكتب تارو .

وبعد قليل كان رامبير وريو قد اتخذا مكانيهما على المقعد الخلفى لعربة الدكتور بينما تولى تارو القيادة .

وقال هذا الأخير وهو يبدأ سيره :

— لقد نفد وقود السيارات ، وغداً سنطوف سيراً على أقدامنا .

وقال رامبير :

— إننى لن أرحل ، بل أريد البقاء معكم .

ولم تهتز خلجة واحدة من خلجات تارو ، واستمر فى القيادة . وبدا ريو وكأنه لايستطيع أن يتغلب على مايشعر به من تعب ، فقال بصوت مكتوم :

— وهى ؟

وأجاب رامبير أنه قد فكر فى الأمر مليا ، وأياً كانت هواجسه فإنه لو رحل لخجل من نفسه ، ولعاقه ذلك عن حب من تركها . ولكن ريو اعتدل فى جلسته وقال بصوت حازم :

إن هذا عناء ، ولا ينبغى له أن يخجل لأنه فضل السعادة .

وأجاب رامبير :

— نعم ، ولكن قد يكون مخجلا أن يكون المرء سعيداً بمفرده . أما تارو الذى كان قد ظل صامتاً حتى تلك اللحظة ، ولم يدر رأسه ناحيتهما ، فقد قال — ملاحظا — : إنه لو أراد رامبير اقتسام شقاء الناس ، فإنه لن يحصل أبداً على وقت للسعادة ، وأن عليه أن يختار .

وقال رامبير :

— ليست هذه هى المسألة . لقد كنت دائماً أفكر أننى غريب عن هذه المدينة ، وأننى لا شأن لى بكم ، ولكننى الآن — بعد أن رأيت ما رأيت — عرفت أنى من هنا ، سواء رضيت أم لم أرض . إن هذه المسألة تخصنا جميعاً .

ولم يجب أحد بشىء ، فشعر رامبير بشىء من نفاد الصبر ، وقال :

— وأياً ما كان ، فإنكما تعرفان ذلك ، وإلا فماذا تعملان فى هذا المستشفى ؟ هل عقدتما أنتما الاختيار وعدلتما عن السعادة ؟

ولم يجب كل من ريو وتارو بشىء — للمرة الثانية — وساد الصمت فترة طويلة ، حتى اقتربوا من بيت الدكتور ، ووجه رامبير سؤاله الثالث بمزيد من القوة ، وحينئذ لم يلتفت ناحيته إلا ريو الذى نهض وهو يبذل جهداً كبيراً ، ثم قال :

ـــ أرجو معذرتك يا رامبير ، ولكنى لا أدرى . إبق هنا ما دمت تريد البقاء .

ودارت السيارة فجأة ، فتوقف ريو عن الكلام ، ثم استطرد ـــ وهو ينظر أمامه ـــ :

ـــ ليس هناك فى الدنيا ما يعوض البعد عما نحب ، ومع ذلك فأنا أيضا ابتعد دون أن أدرى سبباً لذلك .

ثم ألقى بنفسه على الوسادة ، وقال والتعب يبدو عليه :

ـــ هذه هى الحقيقة ، هذا كل ما فى الأمر ، فلنسجلها ونستخرج منها نتائجها .

وسأل رامبير :

ـــ أية نتائج ؟

وأجابه ريو :

ـــ إن المرء لا يستطيع أن يعالج ويعرف فى وقت واحد ، فلنعالج بأسرع وقت ممكن . هذا هو الأمر الملح الآن .

وعند منتصف الليل أعد تارو ورامبير خطة الحى الذى كلف بمراقبته ، ولما نظر تارو إلى ساعته ، ورفع رأسه التقت عيناه بعينى رامبير ، وقال :

ـــ هل أخبرتهم ؟

وأدار الصحفى عينيه ، وقال بجهد :

ـــ لقد تركت لهم كلمة صغيرة قبل أن أحضر لزيارتكما .

لم تتم تجربة مصل (كاستل) إلا فى الأيام الأخيرة من أكتوبر ، وقد كان ذلك المصل أمل ريو الأخير من الناحية المهنية ، وكان الدكتور مقتنعاً بأنه لو وقع فشل جديد لاستسلمت المدينة لنزوات المرض ، سواء امتد أثر الوباء لمدة أشهر طويلة أخرى أم توقف دون سبب .

وفى عشية اليوم الذى أتى فيه كاستل لزيارة ريو كان ابن السيد أوتون قد أصيب بالمرض ، ولحقت كل الأسرة بالحجر الصحى،وهكذا ألفت الأم نفسها وقد عزلت للمرة الثانية ؛ إذ أنها لم تكن قد غادرت الحجرة إلا منذقليل ، ولما كان القاضى يحترم تعليمات السلطات،فقد سارع إلى دعوة الدكتور ريو بمجرد أن تعرف على علامات المرض بجسم ابنه ، ولما حضر ريو كان الأب والأم واقفين عند نهاية الفراش ، أما الفتاة الصغيرة ، فكانت قد أبعدت . كان الطفل فى حالة الإنهاك الأولى ، فترك الطبيب يفحصه دون أن تبدر منه أية شكوى ، ولما رفع الطبيب رأسه التقت عيناه بعينى القاضى ، ومن خلفه وجه الأم الشاحب ، وقد وضعت منديلا على فمها ، واتسعت حدقتاها ، وأخذت تتتبع حركات الطبيب .

وقال الأب بصوت فاتر :

ــ إنه هو ، أليس كذلك ؟

وأجاب ريو وهو ينظر إلى الطفل من جديد :

— نعم .

واتسعت عينا الأم ، ولكنها ظلت ملازمة للصمت ، وصمت القاضى كذلك برهة ، ثم قال بصوت منخفض :

— حسن يا دكتور ، ينبغى أن نتبع التعليمات .

وكان ريو يتجنب النظر إلى الأم التى ظلت ممسكة بمنديلها فوق فمها ، فقال بلهجة المتردد :

— إن ذلك يتم فى وقت أسرع لو استطعت أن أتحدث بالتليفون .

وقال السيد أوتون : إنه سيقوده إلى التليفون . ولكن الطبيب التفت نحو السيدة ، وقال :

— إنى آسف ، ينبغى أن تعدى بعض الأشياء ، وأنت تعرفين ما هى .

أرتج على السيدة أوتون ، وغضت بصرها ، ونظرت إلى الأرض ، ثم قالت — وهى تهز رأسها — :

— هذا ما سوف أعمله الآن .

وقبل أن يغادرهم ريو لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالهم عما إذا كانوا فى حاجة إلى شىء . وكانت المرأة تنظر إليه فى صمت ، أما القاضى ، فقد أشاح هذه المرة عنه بنظره ، وقال :

— كلا . ثم بلع ريقه وأضاف :

— ولكن انقذ طفلى .

أما المحجر الصحى الذى لم يكن فى أول الأمر سوى إجراءات شكلية بسيطة ، فقد أتم ريو ورامبير تنظيمه بطريقة غاية فى الدقة ،

وقد وجها اهتمامهما الخاص نحو وجوب عزل أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض ، حتى إذا كان أحد هؤلاء الأفراد قد أصيب بالعدوى دون أن يدرى لم يصبح حظ الأسرة من المرض مضاعفاً ، وشرح ريو هذه الأسباب للقاضى فوجدها وجيهة ، ومع ذلك فقد نظر إلى زوجته ، ونظرت زوجته إليه بطريقة جعلت الدكتور يشعر بمدى ما يشعران به من هلع لهذا الفراق ، وأمكن إيواء السيدة أوتون وابنتها فى المحجر الصحى الذى يديره رامبير، أما القاضى ، فلم يكن له مكان سوى معسكر العزل الذى كانت الإدارة فى سبيل إقامته على ملعب البلدية بواسطة خيام استعارتها من مصلحة الطرق ، وقد اعتذر له ريو عن ذلك، ولكن السيد أوتون أجابه بأنه ليست هناك إلا قاعدة واحدة للجميع . وأنه من العدل أن يطيعها الناس .

أما الطفل فقد نقل إلى المستشفى المساعد فى قاعة قديمة من قاعات الدرس قد صفت بها عشرة أسرة . وبعد نحو عشرين ساعة حكم ريو على حالته بأنها ميئوس منها . فقد استسلم جسمه الصغير للجرثومة دون أية مقاومة ، وأخذت عقد صغيرة مؤلمة تتكون ، وتسد مفاصل أطرافه الناحلة . فقد كتبت له الهزيمة مقدماً . ولهذا خطرت لريو فكرة تجربة مصل كاستل عليه . وفى مساء اليوم نفسه — بعد العشاء — تمت تجربة الحقن الطويل على الطفل دون أن يبدو أى «رد فعل» وفى فجر اليوم التالى حضر الجميع حول الغلام الصغير ، لكى يشاهدوا مفعول تلك التجربة الفاصلة .

وخرج الطفل من غيبوبته وأخذ يتلوى فى تشنج تحت أغطيته .

وكان الدكتور كاستل وتارو يجلسان بجواره منذ الرابعة صباحاً وهما يتتبعان — خطوة فخطوة — تقدم المرض أو فترات توقفه. وعند رأس السرير وقف تارو وقد أحنى قامته بعض الشيء، وعند قدم الفراش كان كاستل يجلس قرب ريو الذى ظل واقفاً، وكاستل يقرأ كتاباً قديماً وقد بدت عليه كل مظاهر الهدوء. ومع تقدم النهار فى قاعة الدرس القديمة تلك توالى — شيئاً فشيئاً — حضور الآخرين. وكان أول القادمين بانلو الذى جلس أعلى الطرف الآخر من السرير فى مقابلة تارو، وأسند ظهره إلى الجدار. وكان وجهه يعبر عن الألم الدفين، والجهد المضنى الذى يبذله من جسمه طوال الأيام الماضية والذى سطر التجاعيد على جبينه المنقبض.

وحضر جوزيف جران بدوره، حيث كانت الســـاعة قد بلغت السابعة. وأخذ هذا الموظف يعتذر من أنه كان يلهث. لم يكن فى نيته أن يمكث سوى لحظة، فقد جاء يسأل عما إذا كانوا يعرفون — فى هذا الوقت — معلومات محددة عن الحالة. ودون أن يفوه ريو بكلمة أراه الطفل بوجهه المختلط الملامح، وعينيه المقفلتين، وأسنانه التى كان يضغط عليها بكل ما فيه من قوة، وجسمه الراقد بلا حراك وهو يلف رأسه ويديره من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين على الوسادة العارية. ولما سطع نور النهار أخيراً، وأصبح فى مقدورهم أن يروا السبورة المعلقة فى نهاية القاعة، والتى ظلت فى مكانها، وأن يتبينوا عليها آثار بعض العلامات الحسابية حضر رامبير. فأسند ظهره إلى ظهر السرير المجاور، وأخرج علبة سجائره. ولكنه ما كاد يلقى نظرة على الطفل حتى أعادها إلى جيبه.

وكان كاستل لا يزال جالساً ينظر إلى ريو ، فسأله من فوق نظارته :

— هل لديك أخبار عن الأب ؟

وقال ريو :

— كلا ، إنه في معسكر العزل .

وكان الدكتور يضم حاجز السرير الذي يئن فوقه الطفل بقوة ولا يفارق نظره المريض . وقد تصلب المريض فجأة ، وضم أسنانه بشدة من جديد وتقوس جسمه عند الوسط وراحت أطرافه تبتعد عن جسده بالتدريج . وكانت رائحة الصوف المختلط بالعرق تفوح من ذلك الجسد الصغير العاري تحت الغطاء العسكري . ثم أخذ الطفل يسترخي تدريجياً وأعاد ذراعيه إلى وسط السرير ، وظل مغمض العينين مطبق الفم ، وبدا أن تنفسه قد ازداد سرعة ، وتصادف أن التقت عينا ريو بعيني تارو ، فأشاح هذا الأخير بعينيه .

لقد شاهدا من قبل أطفالا يموتون ، فإن الهول الذي بدأ منذ أشهر لم يكن يتعب نفسه في الاختيار ، ولكن لم يحدث قط لهما أن تتبعا آلام الضحايا دقيقة بدقيقة كما يفعلان الآن منذ الصباح . ولا شك أن الآلام التي صبتها الأقدار على هؤلاء الأبرياء لم تكف يوما عن الظهور في أذهانهم بمظهرها الحقيقي ، أي على أنها فضيحة . ولكنهما — حتى الآن على الأقل — كانا يشعران بتلك الفضيحة بصورة تجريدية على نحو ما ، لأنهما لم يكونا قد رأيا أبداً عن قرب ولمدة طويلة احتضار أحد الأبرياء .

وفي تلك اللحظة أخذ الطفل يتلوى من جديد ، كما لو كانت أفعى

قد عضته فى معدته ، وراح يئن أنيناً خافتاً .

وظل هكذا ثوانى عديدة ، غائر الجسم فريسة للرعشة والاهتزازات التشنجية كما لو كان هيكله الواهى ينحنى تحت ضغط ريح الطاعون العاتية ويتحطم تحت نوبات الحمى المتكررة . وانتهت تلك الأزمة، وبدأ الطفل يسترخى قليلا، وبدا أن موجة الحمى قد انسحبت وتركته يلهث على شاطىء رطب مسمم قد تشابهت فيه الراحة والموت ، ولما عاودته موجة الحمى من جديد للمرة الثالثة: وبعثت فى جسمه شيئاً من الاضطراب ، كور الطفل جسمه، وتراجع إلى نهاية الفراش وسط آلام اللهب الذى يحرقه . وأخذ يهز رأسه فى جنون وهو يقذف بغطائه بعيداً عنه . وتدفقت الدموع الغزيرة من بين جفونه الملتهبة ،وأخذت تسيل على وجهه الجامد .

وفى نهاية الأزمة كانت قد خارت كل قواه، فضم ساقيه اللتين برز العظم منهما وذراعيه اللتين ذاب ما عليهما من لحم خلال هذه الساعات الثمانى والأربعين . وبدا وسط سريره المخرب كما لو كان مصلوبا غريب الشكل .

وانحنى تارو،ومسح بيده الثقيلة ذلك الوجه الصغير الذى بلله العرق والدموع . وكان كاستل قد أغلق كتابه منذ لحظة،وأخذ ينظر إلى المريض، وبدأ يتكلم ، ولكن صوته انحبس فجأة ، فراح يتكلف السعال لكى يستعيد قدرته على النطق .

— لم تكن هناك أية هدنة فى الصباح ياريو ، أليس كذلك ؟

وأجاب ريو بالنفى، ولكنه أضاف قائلا: إن الطفل قد قاوم مدة أطول من المعتاد. وكان پانلو يبدو كأنه يتكىء على الجدار، فقال بصوت مكتوم:

ـــ إذا قدر له أن يموت، فإنه سيكون قد عانى من العذاب أكثر مما عانى غيره.

فاستدار ريو نحوه فجأة، وفتح فمه يريد الكلام، ولكنه توقف وبدا كما لو كان يبذل مجهوداً واضحا لكى يسيطر على نفسه، ثم أعاد بصره إلى الطفل.

وازداد النور فى القاعة. وكان هناك على الأسرة الخمسة هيا كل تتحرك وتئن، ولكن بخفوت يشبه أن يكون متفقا عليه. أما الشخص الوحيد الذى كان يصيح فى النهاية الأخرى للقاعة، فكان يرسل ـــ على فترات منتظمة ـــ صيحات صغيرة تعبر عن الدهشة أكثر مما تعبر عن الألم. وبدا ـــ حتى للمرضى أنفسهم ـــ أن الخوف المروع الذى عرفه الناس فى أول الأمر قد اختفى، بل لقد أخذوا يشعرون بنوع من الرضا فى طريقة تقبلهم للمرض. وذلك فيما عدا الطفل الذى كان يتخبط بكل قواه. وكان ريو، الذى كان بين الفينة والفينة يحس بنبض الطفل حتى ولو لم تكن هناك ضرورة لذلك، بل وربما لم يكن الدافع إليه إلا الخروج من حالة الجمود العاجز التى كان فيها، كان ريو يشعر وهو يغلق عينيه أن اضطراب الطفل يختلط بحركة دمه هو ؛ فقد امتزج إذن بالطفل المعذب، وراح يحاول أن يسانده بكل قوته التى احتفظ بها كاملة حتى

الآن . ولكن دقات قلبيهما لم تكن تتحد لحظة حتى تعود للانفصال، فيحس أن قد أفلت منه زمام الطفل وذهب بجهوده هباء ، وحينئذ كان يترك المعصم الضعيف الذى يمسك به ويعود إلى مكانه .

وكان الضوء يغير لونه من الوردى إلى الأصفر على طول الجدران المطلية بالجير ، فقد بدأ صباح قائظ يتأجج بالحرارة . ولم يكن أحد يشعر بجران وهو يغادرهم قائلا : إنه سوف يعود . كان الجميع فى حالة انتظار . وبدا الطفل — الذى ظلت عيناه مغلقتين — كما لو كان قد هدأ بعض الشيء ، وراحت يداه اللتان أصبحتا تشبهان المخالب تعبثان بلطف فى جوانب السرير ، إلى أن صعدتا وأخذتا تحكان الغطاء قرب الركبتين . وفجأة ثنى الغلام ساقيه وقرب فخذيه من بطنه ، وتوقف عن الحركة . وحينئذ فتح عينيه للمرة الأولى،ونظر إلى ريو الذى كان واقفاً أمامه . ثم فتح فمه فى تجويف وجهه الذى غدا بلون الطفل الرمادى ، وفى الحال خرجت منه صيحة واحدة مستمرة لا يكاد يقطع تنفسه من رتابتها ، فملأت القاعة بنوع من الاحتجاج الرتيب — غير منسجم النبرات — الذى لا يكاد يشبه الاحتجاج البشرى حتى بدا كما لو كان صادراً من جميع بنى البشر . وعض ريو على أسنانه،وأشاح تارو بوجهه عن الغلام . واقترب رامبير من الفراش قرب كاستل الذى أغلق الكتاب بعد أن كان يحتفظ به مفتوحا فوق ركبتيه . ونظر پانلو إلى فم الطفل وقد تلوث بالمرض وامتلأ بصيحة ، هى صيحة الناس جميعاً من جميع الأعمار ، وترك نفسه ينزلق جاثيا على ركبتيه . وكان من الطبيعى أن يتوقع الجميع أن يسمعوه ينادى بصوت مختنق بعض الشيء وإن كان واضح النبرات ،

ويقول — من خلف الشكوى العامة التي لا تنقطع — : « إلهي ! أنقذ هذا الطفل » .

ولكن الطفل استمر يصرخ ، وبدأ الاضطراب يسود المرضى من حوله . أما هذا الشخص الذي لم تنقطع صيحاته في الطرف الآخر للقاعة ، فقد تلاحقت نغمة شكواه ، وازدادت سرعة حتى تحولت هي الأخرى إلى صرخة ، في حين أخذ الآخرون يئنون بصوت يزداد حدة . وهكذا اجتاحت القاعة موجة من الصراخ غطت على صلاة پانلو . وكان ريو يقف متعلقاً بحاجز السرير ، فأغلق عينيه وقد أثمله التعب والاشمئزاز ، وحينما فتح عينيه وجد تارو بجواره . وقال له :

— ينبغي أن أذهب ، فلم أعد أحتمل .

وفجأة صمت المرضى الآخرون ، وعرف الطبيب حينئذ أن صرخة الطفل قد ضعفت ، واستمرت تضعف بالتدريج ، وأنها قد توقفت الآن . وعادت الأنات من حوله ثانية ولكن بصوت مكتوم كما لو كانت صدى بعيداً لذلك الصراع الذي انتهى الآن . ذلك أن الصراع قد انتهى .

وكان كاستل قد انتقل إلى الناحية الأخرى من السرير ، وقال : « لقد انتهى الأمر » . وكان الطفل يرقد في تجويف الأغطية المبعثرة وقد فغر فمه الصامت ، وضمر حجمه فجأة بينما ، بقيت بعض آثار الدموع على وجهه .

واقترب پانلو من الفراش ، وقام بحركات التبريك ، ثم جمع أطراف ثوبه وخرج من الممر الرئيسي . واتجه إلى كاستل ، وسأله قائلا : « هل يجب البدء من جديد ؟ » .

وهز الطبيب الهرم رأسه، وقال بابتسامة كلها غضون :

— ربما ، إنه على أية حال قد قاوم طويلا .

وكان ريو قد غادر القاعة بخطا سريعة ، وقد بدا فى هيئته ما جعل پانلو يمسك بذراعه وهو يمر به ، ويقول له :

— هيا ، يا دكتور .

والتفت إليه ريو فى نفس هذه الحركة المحمومة ، وألقى فى وجهه بهذا الكلام العنيف :

— أما هذا،على الأقل،فإنه كان بريئاً ،وأنت تعرف ذلك جيداً!

ثم استدار من جديد ، وعبر باب القاعة قبل پانلو ، وواصل سيره حتى نهاية فناء المدرسة.وهناك جلس على مقعد بين الأشجار الصغيرة المغبرة ومسح العرق الذى تصبب على عينيه . وكانت به رغبة فى الصراخ لكى يفك العقدة التى تطحن قلبه . وفى هذه الأثناء كان القيظ يهبط ببطء بين أغصان الأشجار. وتغطت السماء — التى بدت زرقاء فى ذلك الصباح — بسحابة مبيضة جعلت الجو أشد خنقا للنفوس . وترك ريو لنفسه العنان على مقعده ،وأخذ ينظر إلى الأغصان وإلى السماء حتى عاد إليه تنفسه الطبيعى بالتدريج . واستطاع شيئا فشيئاً أن يزدرد ما يشعر به من نصب ، وفجأة سمع صوتاً من خلفه يقول :

— لماذا خاطبتنى بهذه اللهجة الغاضبة ؟ إن هذا المشهد كان فوق احتمالى أنا أيضاً .

واستدار ريو ناحية پانلو ،وقال :

— هـــذا صحيح ، أرجو معذرتك ، ولكن التعب نوع من

الجنون ، وإنه لتمر بى ساعات فى هذه المدينة لا أشعر فيها إلا بالثورة التى تملأ نفسى .

وتمتم پانلو :

— إنى أفهمك جيداً . إن هذا يدعو للثورة ؛ لأنه يتجاوز إدراكنا ، ولكن قد يكون من الضرورى أن نحب ما لا نستطيع فهمه .

وهنا انتصب ريو مرة واحدة ، وأخذ ينظر إلى پانلو بكل ما لديه من قوة وعاطفة ، وراح يهز رأسه ، ويقول :

— لا أيها الأب . إن فكرتى عن الحب بعيدة عن ذلك ، وسأظل حتى الممات أرفض أن أحب هذا العالم الذى يلقى فيه بالأطفال تحت عجلات التعذيب .

ومرت بوجه پانلو سحب مضطربة من الظلال وقال فى نغمة حزينة :

— آه يادكتور ، لقد فهمت الآن فقط ما يسمونه بالفضل الإلهى .

ولكن ريو ألقى بنفسه من جديد على مقعده ، وأجاب من أعماق الشعور بالتعب الذى عاد إليه وبصوت أكثر رقة :

— وهذا ما لم يوهب لى ، إنى أعرف ذلك . ولكننى لا أرغب فى مناقشة هذا الأمر معك ؛ فنحن نعمل معاً فى أمر يجمعنا على ما هو أهم من الابتهال والتجديف ، وهذا فقط هو المهم .

وحينئذ جلس پانلو بجوار ريو والتأثر باد عليه ، ثم قال له :

— نعم ، فأنت أيضاً تعمل من أجل خلاص الإنسان .

وحاول ريو أن يبتسم ، وهو يقول :

— خلاص الإنسان ! هذه كلمة كبيرة جداً بالنسبة لى، فأنا لا أذهب بعيداً إلى هذا الحد . إن صحته فقط هى التى تهمنى ، صحته أولا وقبل كل شىء .

وتردد پانلو بعض الشىء ، ثم بدأ يقول :

— يا دكتور . .

ولكنه توقف عن الكلام، وبدأ العرق يتصبب على جبينه هو الآخر، ثم تمتم قائلا :

« إلى اللقاء » . ونهض والبريق ينبعث من عينيه، وقد هم بالانصراف عندما نهض ريو بدوره — بعد أن كان مستغرقاً فى التفكير — وخطا خطوة نحوه ، وقال :

— أرجو معذرتك مرة أخرى ، فهـــذا الانفجار لن يتجدد مرة ثانية .

ومد له پانلو يده بحزن ، وقال :

— ومع ذلك فإنى لم أتمكن من إقناعك .

وأجاب ريو :

— هذا لا يهم ؛ فإن ما أكرهه هو الموت والشر ، وأنت تعرف ذلك جيداً ، وسواء أردت ذلك أم لم ترده فنحن هنا جنباً إلى جنب لنقاسى منهما ، ونقاومهما .

وظل ريو ممسكا بيد پانلو، وقال وهو يتحاشى التقاء نظرتيهما :

— ها أنت ترى جيداً ، إن الله نفسه لا يستطيع الآن أن يفرق بيننا .

منذ أن التحق پانلو بالمنظمات الصحية لم يغادر المستشفيات، ولا الأماكن التي يلتقي الناس فيها بالطاعون ، وقد اتخذ مكانه بين رجال الإنقاذ في الصف الذي رأى أنه جدير به وهو الصف الأول ، ولم تكن مشاهد الموت حوله بالقليلة ، كما أنه كان من المفروض أنه حصن ضد المرض بالمصل الواقي ، ولكن فكرة احتمال موته هو أيضاً لم تكن غريبة عنه بالرغم من ذلك . وكان قد ظل محتفظاً بهدوئه الظاهري حتى ذلك اليوم الذي وقف فيه طويلا يشاهد الطفل وهو يصارع الموت، فمنذ ذلك الحين بدا عليه شيء من التغيير ؛ فكانت تقرأ على وجهه علائم التوتر المتزايد .

وفي ذات يوم قال لريو — وهو يبتسم — : إنه يعد الآن بحثاً قصيراً موضوعه « هل لرجل الدين أن يستشير الطبيب ؟ » فخيل إلى الدكتور أن الأمر يتعلق بما هو أكثر خطورة مما عبر عنه پانلو ، ولما أبدى ريو رغبته في أن يطلع على هذا البحث أعلن له پانلو أنه سوف يلقي وعظاً في قداس الرجال، وبهذه المناسبة سوف يعرض على الأقل بعض وجهات نظره ، وقال :

— إني أود أن تحضر هذا الوعظ يا دكتور، فإن الموضوع يهمك .

وألقى الأب وعظه الثانى هذا فى يوم ريح عاصف . والحقيقة أن صفوف الحاضرين كانت أقل ازدحاماً منها فى يوم الوعظ الأول ، ذلك لأن هذا النوع من المشاهد لم يعد له رونق الجدة فى أعين مواطنينا . هذا إلى أن صفة « الجدة » كانت قد فقدت فى الظروف العسيرة التى كانت تجتازها المدينة ، وأياً ما كان فإن معظم الناس، — إذا لم يكونوا قد هجروا واجباتهم الدينية هجراناً كلياً ، أو إذا كانت تلك الواجبات نفسها لم تعد تنسجم مع الحياة الشخصية الشديدة العبث التى راحوا يحيونها — كانوا قد أحلوا الخرافات الخرقاء محل الفرائض الدينية العادية ، فكانوا يفضلون عن طيب خاطر أن يلبسوا الأحجبة الحافظة ، أو تعاويذ القديس روش على أن يذهبوا للمشاركة فى القداس .

ومن أمثلة ذلك مبالغتهم فى اللجوء إلى التنبؤات ، فقد حدث فى الربيع أن انتظر الناس نهاية المرض من لحظة لأخرى . لذلك لم يحاول أحدهم أن يطلب أية معلومات دقيقة عن مدة بقاء الوباء ما دام الناس جميعاً قد اقتنعوا بأنه لم يعد له بقاء ، ولكن مع مرور الأيام بدأ الناس يخشون ألا تكون له نهاية حقا ، وحينئذ غدا توقف الوباء موضوع آمالهم جميعا ، فكثرت تراهم يتداولون — من يد إلى أخرى — كتب النبوءات المختلفة التى ينسبونها إلى الأولياء أو القديسين التابعين للكنيسة الكاثوليكية ، وتنبه بعض الناشرين فى المدينة إلى الفائدة التى يمكنهم جنيها من بيع هذه النبوءات ، فطلبوا على الفور نسخا عديدة من الكتب المتداولة . ولما لاحظوا أن الاستطلاع لدى الجمهور لا يرتوى، أخذوا يبحثون فى مكتبات البلدية عن كل وثيقة من هذا القبيل يمكن أن تدلهم عليها أخبار التاريخ

العامى لكى ينشروها فى المدينة ، ولما نضب معين التاريخ نفسه عن تقديم هذه النبوءات لجأ الناشرون إلى استكتاب الصحفيين الذين أثبتوا أنهم فى هذا الموضوع — على الأقل — لا يقلون جدارة عن أقرانهم فى العصور الماضية .

بل لقد نشرت بعض هذه النبوءات فى الصحف بطريقة مسلسلة وكان الناس يقرءونها بلهفة لا تقل عن تلهفهم على قراءة القصص العاطفية التى يتلهف الناس عليها فى الصحف أيام الصحة ، وكانت بعض هذه النبوءات تستند إلى عمليات حسابية غريبة يدخل فيها تاريخ السنة التى وقع فيها الوباء ، وعدد ضحاياه ، وعدد الأشهر التى مرت عليهم تحت عهد الطاعون . وأخذ آخرون يعقدون المقارنات بين هذا الوباء وأوبئة الطاعون الأخرى التى يذكرها التاريخ ويبينون ما بينهما من وجه الشبه (الذى تسميه النبوءات وجه الشبه الثابت) . وبعمليات حسابية لا تقل غرابة عن سابقتها يدعون استنباط معلومات تتعلق بالتجربة التى يمرون بها حالياً ، ولكن النبوءات التى حظيت بتقدير الجمهور أكثر من غيرها كانت دون جدال تلك التى تعلن — فى لغة غامضة — سلسلة من الأحداث التى يستطيع أى واحد منها أن ينطبق على الحدث الذى يهز المدينة ، ويساعد ما يحويه من تعقيد على قبول جميع التأويلات ، وهكذا راحوا يستشيرون نبوءات «نوستراداموس[1]» والقديسة أوديل» يومياً ، وفى كل يوم كانوا يحصلون

---

(١) منجم مشهور ، وصاحب مؤلف فى النبوءات المترجمة (١٥٠٣ — ١٥٦٦) .

على نتائج طيبة ، وكان الطابع الغالب على هذه النبوءات أنها كانت جميعاً مطمئنة ، ولم يكن هناك شيء غير مطمئن سوى الطاعون .

أصبحت هذه الخرافات تحتل مكان الدين عند مواطنينا، ولذا لم يشغل الجمهور الذى حضر وعظ پانلو من قاعة الكنيسة غير ثلاثة أرباعها ، وقد حضر ريو فى ليلة الوعظ هذه حيث كان الهواء يمر فى صورة شباك من خلال أبواب الدخول (المواربة) ويتجول بين الحاضرين كما يشاء . وهكذا اتخذ ريو مكانه فى كنيسة باردة صامتة وسط جمع من الحاضرين كلهم من الرجال ، وقد رأى الأب پانلو يصعد المنصة ، وأخذ هذا الأخير يتكلم بلهجة أكثر هدوءاً وترويا مما كانت عليه فى المرة الأولى . وقد لاحظ الحاضرون عدة مرات أن طريقة كلامه يشوبها شيء من التردد ، وأغرب من ذلك أنه لم يكن يقول « أنتم » بل « نحن » .

ومع ذلك، فقد أخذ صوته يزداد ثباتاً بالتدريج . وقد بدأ بأن ذكر الناس أن الطاعون يقيم بيننا من أشهر طويلة، وأننا الآن قد عرفناه أكثر من ذى قبل ، لأننا رأيناه مراراً يجلس إلى مائدتنا ، أو بجانب فراش من نحبهم، ويسير بجوارنا ، وينتظر قدومنا إلى مقر عملنا . الآن إذن يمكننا أن نتلقى بصدر أرحب ما يوسوس به إلينا دون انقطاع ، ذلك الذى قد لا نكون قد أحسنا الاستماع إليه لأول وهلة عندما فاجأنا المرض . إن ما دعا إليه الأب پانلو من قبل فى نفس هذا المكان قد ظل حقيقة ثابتـــة ، أو على الأقل هذه كانت عقيدته ، ولكنه ــ وهذا مما يحدث لنا جميعاً وندهش له ــ ربما يكون قد فكر فيه وقاله دون أن تكون إرادة الخير هى التى دفعته إليه .

ومع ذلك فإنه من الحقائق الثابتة أيضاً أن كل شيء يمكن أن يقدم لنا جديداً نتعلمه ، كما أن أقسى أنواع البلاء ينطوى على الكثير من الفائدة بالنسبة للمسيحى . والأمر الذى ينبغى للمسيحى أن يبحث عنه فى هذه الحال ينحصر بالذات فى تلك الفائدة ، وممم تتكون هذه الفائدة ، وكيف يحصل عليها .

وفى هذه اللحظة أخذ الناس من حول ريو يعتدلون فى جلستهم بين أذرع مقاعدهم ، لكى يريحوا أجسامهم إلى أقصى حد ممكن ، وفى هذه الأثناء كان أحد أبواب الدخول المبطنة يتأرجح ليدق دقاً خفيفاً ، فكلف أحدهم نفسه مشقة تثبيته ، وساعدت هذه الحركات ذهن ريو على الشرود ، فلم يستمع إلى پانلو الذى استأنف وعظه . وكان يقول — ما معناه على وجه التقريب — : إنه لا ينبغى لنا أن نحاول تفسير ظاهرة الطاعون ، ولكن يجب علينا أن نلج فى استنباط ما تنطوى عليه من دروس .

وفهم ريو — بشكل غامض — أن الأب پانلو يريد أن يقول : إنه ليس هناك ما يمكن تفسيره . ثم ركز اهتمامه حينما سمع پانلو يقول بقوة : إنه توجد أشياء من الممكن تفسيرها بالنسبة لله وأخرى لا يمكن تفسيرها ، فالخير والشر موجودان قطعاً ، ومن السهل على وجه العموم أن نفسر لأنفسنا الفرق بينهما . ولكن الصعوبة تبدأ حينما يتعلق الأمر بالشر وحده . فهناك مثلا الشر الذى يبدو ضرورياً ، والشر الذى يبدو عديم الفائدة . هناك مثلا دون چوان الغارق فى الجحيم كما أن هناك موت أحد الأطفال . فإذا كان من العدل أن يصعق الرجل الماجن ، فليس هناك ما يبرر تعذيب الطفل ، والحقيقة أنه ليس هناك على ظهر الأرض ما هو أهم من تعذيب طفل ولا من الشفاعة التى يجرها وراءه هذا التعذيب ، أو البحث عن

المبررات التى ساقت إليه . أما فيما عدا ذلك من أمور الحياة، فإن الله قد يبرر لنا كل شىء ، ولذا لم يكن للدين أى فضل فى هذا المجال . أما هنا فإن الله — على العكس من ذلك — قد وضعنا وجهاً لوجه أمام البلاء .
وها نحن الآن أمام سور الطاعون السامق ، وينبغى لنا أن نعثر فى ظلاله المميتة على فائدتنا ، ورفض الأب پانلو أن يخلع على نفسه من المميزات الرخصية ما يسمح له بتسلق السور . وكان من اليسير عليه أن يقرر أن النعيم الخالد الذى ينتظر الطفل يمكن أن يعوضه عما لحق به من عذاب ، ولـكنه فى الواقع لم يكن يدرى عن ذلك شيئاً ، فمن ذا الذى يستطيع أن يؤكد أن خلود إحدى المتع يمكن أن يكون عوضاً عن لحظة من عذاب البشر ؟ لاشك أن من يقول هذا لن يكون من أولئك المسيحيين الذين عرف ربهم كيف تألموا فى أطرافهم وفى نفوسهم . كلا ، فسيبقى الأب وجهاً لوجه أما المشكلة وفاء لتلك المفارقة التى يعتبر الصليب رمزاً لها ، سيبقى وجها لوجه أمام عذاب طفل وسيقول ، دون أى وجل، لأولئك الذين ينصتون إليه فى ذلك اليوم : « يا إخوتى لقدحانت اللحظة الحاسمة فإما أن نؤمن إيماناً مطلقا أو نـكفر كفراً مطلقاً . ومن ذا الذى يستطيع منـكم أن يكفر بكل شىء ؟ »

ولم يكد الظن يتطرق إلى ذهن ريو بأن الأب قد اقترب من حدود التجديف ، حتى استطرد هذا الأخير يؤكد بقوة أن هذا الأمر الصارم ، هذه الطاعة العمياء هى الميزة الحقيقية للمسيحى ، وهى أيضا فضيلته . وقد كان الأب على تمام البينة من أن ما فى الفضيلة التى يتحدث عنها من عنف قد يصطدم ببعض العقول التى اعتادت الأخـلاق التقليدية السمحة .

ولكن الدين فى زمن الطاعون لا يمكن أن يكون هو نفسه دين كل زمان . وإذا كان فى مقدور الله أن يسلم ، بل أن يحض الناس على الركون إلى الراحة أو المتعة فى أيام السعادة ، فإنه يريد منهم التطرف فى الفضيلة عندما يشتد الشقاء . إن الله قد أسبغ اليوم على مخلوقاته نعمة إغراقهم فى ذلك النوع من الشقاء الذى لابد لهم فيه من الإيمان بتلك الفضيلة القائلة : « إما كل شىء ، وإما لاشىء » .

منذ عدة قرون ادعى مؤلف جاهل أنه قد كشف عن سر الدين حين أكد أن المطهر لا وجود له ، وكان يومىء بذلك إلى أنه ليس هناك أنصاف أوضاع ، ليس هناك إلا الجنة والنار ، ولا يمكن المرء إلا أن ينجو أو يدان حسب ما يختار . وقد قرر پانلو أن ذلك ضرب من الإلحاد لا يمكن أن يولد إلا فى نفس فاجرة ، ذلك لأن المطهر موجود ، ولكن أغلب الظن أن هناك عهوداً لا يصح للناس فيها أن يعلقوا آمالا كبيرة على هذا المطهر ، عهوداً لا يصح لهم فيها أن يعتقدوا فى وجود خطايا تافهة ، بل تصبح كل الخطايا من الكبائر ، وكل تهاون ضرباً من الإجرام . فإما كل شىء ، وإما لاشىء .

وهنا توقف پانلو . وفى تلك اللحظة استطاع ريو أن يسمع جيداً من تحت الأبواب أنات الرياح التى يبدو أن قوتها كانت قد تضاعفت فى الخارج ، وحينئذ استأنف الأب كلامه قائلا : إن فضيلة التسليم المطلق التى يتكلم عنها لا يمكن أن تفهم بمعناها الضيق التى يفسرونها به فى المعتاد وأن المسألة ليست تسليماً مبتذلا ، ولا حتى خضوعاً يصعب على النفس القيام به ، وإنما هى استكانة ، ولكنها استكانة يرضاها لنفسه المستكين ،

ومن المؤكد أن عذاب الطفل أمر يفرض الاستكانة على العقل والقلب . ولهذا السبب ينبغي أن نرزح تحت هذا العذاب ، وهنا حذر بانلو مستمعيه من أن ما سيقوله ليس من السهل قوله ، ثم لهذا السبب أيضا نريده، لأن الله قد أراده . بهذا فقط يكون المسيحي قد عمل كل ما عليه ، بهذا فقط يتجه رأساً إلى الاختيار الأساسي بعد أن يرى كل المخارج قد أغلقت أمامه . إنه يختار الاعتقاد في كل شيء لكيلا يضطر إلى إنكار كل شيء ، وإذا كان هناك من النساء الصالحات من علمن بأن الخراريج هي الطريق الوحيد الذي يقذف منه الجسم ما فيه من تلوث ، فرحن يترددون على الكنيسة في هذه الأيام ويدعون قائلات : « يا إلهي أكثر من الخراريج » . فإنه يجب على المسيحي أن يكون مثلهن ويعرف كيف يكل أمره إلى الإرادة السماوية حتى ولو لم يكن في وسعه فهمها ؛ فليس من الصواب أن نقول : « إني أفهم هذا ، ولكن ذلك لا أقبله » . بل يجب أن نسارع إلى خضم ذلك الذي لا يمكن قبوله ،والذي أرسلته إلينا الأقدار، لأنه هو وحده الذي يمكننا من الاختيار . إن آلام الأطفال خبزنا المر ، ولكن لو لم يوجد هذا الخبز لكان من الممكن أن تلقى نفوسنا حتفها المعنوي .

وهنا كانت الحركة التي تحدث كلما توقف الواعظ عن الكلام قد بدأت تسمع عندما استأنف الواعظ كلامه بقوة وهو يتظاهر — بدلا من مستمعيه — بالتساؤل عن المسلك الذي ينبغي أن نسلكه على وجه العموم ، ودار بخاطره أن مستمعيه يكادون ينطقون بتلك الكلمة المروعة ، كلمة الحرية ، ولكنه لم يكن ليتراجع هو عن النطق بها لو سمحوا له بأن يضيف

إليها فقط صفة « الإيجابية » . ومن المؤكد أنه لم يكن ليعني تقليد مسيحيي الحبشة الذين تحدث عنهم ، بل ولا التفكير في محاكاة مرضى الطاعون الفرس الذين كانوا يسلطون جموع كلابهم على الدوريات الصحية المسيحية ، وهم يدعون السماء بصوت مرتفع أن تبعث بالطاعون إلى هؤلاء الكفار الذين يريدون مقاومة إرادة الله بمحاربة المرض الذى أرسلته إليهم السماء — ومن جهة أخرى لم يكن ليطلب إليهم محاكاة رهبان القاهرة الذين كانوا — إبان أوبئة القرن الماضى — إذا أرادوا مناولة الرعايا أمسكوا الخبز المقدس بملقط لكى يتجنبوا الاحتكاك بالأفواه الرطبة الدافئة التى قد تكون مثوى للعدوى . ذلك أن كلا الفريقين — مرضى الطاعون الفرس ورهبان القاهرة — كان على خطأ . فالأولون لم يحسبوا أى حساب لعذاب الأطفال ، أما الآخرون فإن خوف الألم الذى هو من طبيعة البشر قد طغى عندهم على كل شىء . وفى كلتا الحالتين أهملت المشكلة الحقيقية ، إذ ظل الجميع صما أمام صوت الله . وكانت أخرى ود پانلو أن يذكرهم بها . فيحكى ذلك المؤرخ الذى سجل تاريخ طاعون مرسيليا الكبير أنه لم ينج من الحمى من بين رجال دير هناك أمثلة الرحمة الواحد والثمانين سوى أربعة فقط، ومن هؤلاء الأربعة ثلاثة كانوا قد لاذوا بالفرار .

هكذا قال المؤرخون ، ولم يكن فى مهمتهم أن يقولوا أكثر من ذلك ، ولكن لاشك أن الأب ما كاد يقرأ هذا الخبر حتى اتجه بكل فكره إلى ذلك الذى بقى رغم الجثث السبعة والسبعين ، وعلى الأخص بالرغم

من المثل الذي ضربه إخوانه الثلاثة . وصاح الأب — وهو يضرب بقبضته حافة المنصة — : « إخوتي ، ينبغي أن نكون هذا الذي بقي . »

ولم يكن بانلو يدعو إلى رفض الاحتياطات الوقائية ، ذلك النظام الواعي الذي أدخله المجتمع على فوضى الوباء . لم يكن يريد اتباع أولئك الذين كانوا يدعوننا أن نجثو على ركبتينا وأن نتخلى عن كل شيء . وإنما كان يراد فقط أن نبدأ في السير إلى الأمام خلال الظلام وعلى غير هدى إلى حد كبير ، ونحاول أن نفعل الخير ، وفيما عدا ذلك كان لابد لنا أن نظل في مكاننا ، وأن نسلم أمرنا لله — حتى فيما يخص موت الأطفال — دون أن نحاول اللجوء إلى أية وسيلة من وسائلنا .

وهنا أشار الأب بانلو إلى المثل الذي ضربه الأسقف «بلزونس» أثناء وباء مرسيليا . فذكر الناس أنه قبيل نهاية الوباء كان الأسقف قد قام بكل ما يمكن أن يقوم به من عمل ، وظن أنه لم يعد هناك أي علاج للحالة ، فحبس نفسه في منزله ومعه بعض المأكولات ، وأقام سوراً دون المنزل . وهنا انعكس شعور الأهالي الذين كانوا يعبدونه ، كما هي الحال دائماً عند الآلام الشديدة ، وغضبوا منـــه وأحاطوا منزله بالجثث لـكي يلوثوه بالعدوى ، بل وقد بلغ بهم الغضب أن ألقوا إليه ببعض الجثث من فوق الجدران ، وذلك لـكي يتأكدوا من أنه سوف يموت .

وهكذا ظن الأسقف في فترة ضعف أخيرة أنه قادر على أن يعزل نفسه عن دنيا الموت ، فتساقط الموتى من السماء على رأسه ، وهذه هي حالتنا أيضاً . فيجب أن نقتنع بأن بحر الطاعون ليس به جزر . كلا

ليس هناك وسط. يجب أن نتقبل هذه الفضيحة لأن علينا أن نختار بين أن نكره الله وأن نحبه . ومن منا يجرؤ على أن يكره الله ؟

وأخيراً قال الأب بانلو وهو يعلن أنه يختم كلامه : « إخوتى : إن حب الله حب شاق . فهذا الحب يستلزم أن تتنكر ذاتنا نكراناً تاماً ، وأن نحتقر أشخاصنا . ولكنه هو وحده الذى يستطيع أن يمحو عذاب الأطفال وموتهم ، وهو وحده الذى يستطيع أن يقضى بضرورة ذلك . وبما أنه من المستحيل أن نفهم هذه الشرور فليس أمامنا إلا أن نريدها . هذا هو الدرس الصعب الذى أردت اقتسامه معكم . وهذا هو الإيمان القاسى فى نظر الناس، وهو الإيمان الحاسم فى نظر الله الذى ينبغى أن نقترب منه. فأمام هذه الصورة المروعة يجب أن نتساوى جميعاً ،وعلى هذه القمة سوف يختلط كل شىء ويتساوى كل شىء ، ومن ينبوع الظلم الظاهرى سوف تتفجر العدالة . وهكذا فى كثير من كنائس جنوب فرنسا يرقد كثير من ضحايا الطاعون — منذ قرون — تحت بلاط المكان الذى يقف فيه الشمامسة . ويتكلم القسس فوق قبورهم مستمدين الروح التى ينشرونها من هذا الرماد الذى أسهم فى تكوينه بعض الأطفال أيضا . »

وعندما غادر ريو الكنيسة كانت هناك ريح باردة قد اندفعت من الباب الموارب ، وأخذت تلسع المصلين فى وجوههم ، وأدخلت معها إلى الكنيسة رائحة المطر ، ورائحة الرصيف المبلل مما جعلهم يتخيلون منظر المدينة قبل أن يخرجوا من الكنيسة . وأمام الدكتور ريو كان هناك قسيس عجوز، وشماس شاب قد خرجا لتوهما أيضاً .وكانا يبذلان مجهوداً

ضخما للاحتفاظ بغطائى رأسيهما ، ولكن ذلك لم يمنع الأكبر من من التعليق على الوعظ . وقد حيا فى بانلو فصاحته ، ولكنه أبدى قلقه لما فى الأفكار التى عرضها من جرأة . وكان رأيه أن هذا الوعظ ينم عن القلق أكثر مما ينم عن القوة ، وأنه لا يحق للقس — فى سن بانلو — أن يشعر بالقلق . أما الراهب الصغير فقد أكد وهو يحنى رأسه ليحميه من الرياح أنه كثيرا ما يزور الأب، وأنه على بينة مما طرأ عليه من تغير ، وأن البحث الذى يعده قد يكون أكثر جرأة من خطابه ، ولذلك فقد لا يمنح إذن الطبع .

وسأل القس العجوز :

— ما هى إذن فكرته ؟

وهنا كانا قد وصلا ساحة الكنيسة الخارجية، وحاصرتهما الرياح من كل جانب وهى تزأر ، فقطعت على الشماس الشاب كلامه ، وعندما تمكن من الكلام لم يزد على أن قال :

— إذا استشار القس الطبيب كان متناقضا مع نفسه .

ولما حدث ريو تارو بما سمعه من بانلو، أجابه تارو بأنه يعرف قسيسا فقد إيمانه أثناء الحرب عندما شاهد وجه شاب مفقوء العينين، ثم أضاف قائلا :

— إن بانلو على حق ؛ فعندما تفقأ عينى برىء يفقد المسيحى إيمانه، أو يقبل فقأ عينيه ، وبانلو لا يريد أن يفقد إيمانه، ويصمم على السير حتى النهاية ، هذا هو ما أراد أن يقوله .

ولكن . هل تستطيع تلك الملاحظة التى أبداها تارو أن توضح لنا — بعض الشىء — الحوادث التعسة التى تلت ذلك، وكان مسلك پانلو إزاءها غير مفهوم لمن حوله ؟ ذلك ما سوف نحكم عليه فيما بعد .

وبعد بضعة أيام من الوعظ قام پانلو بتغيير مسكنه ، وكانت هذه هى اللحظة التى أدى فيها تطور المرض إلى حركة دائمة فى تغيير المساكن فى المدينة ، وكما أن تارو قد اضطر إلى ترك فندقه والإقامة عند ريو ، كذلك اضطر الأب إلى إخلاء الشقة التى كانت الطريقة التى ينتمى إليها قد أنزلته فيها، وذهب ليقيم عند سيدة عجوز من مرتادى الكنيسة ظلت حتى الآن بعيدة عن عدوى الطاعون ، وكان الأب قد شعر فى أثناء نقل حاجاته بأن تعبه وقلقه فى ازدياد ، وكان من وراء هذا أن فقد احترامه فى نظر السيدة التى آوته . فقد حدث أن أطرت له هذه السيدة بحرارة فضائل نبوءة القديسة أوديل، وأبدى لها القس شيئاً طفيفاً من الضيق ، وربما كان ذلك يرجع إلى ما كان يشعر به من إنهاك، فأصبح كل ما يبذله بعد ذلك من جهد لكى يحصل من السيدة العجوز ولو على مجرد الحياد المتسامح لا يجدى فتيلا . ذلك أن الفكرة التى أخذتها عنه كانت سيئة، فكان كلما جاء فى المساء ليأوى إلى غرفته المليئة بستائر الدنتلة المشغولة بالإبرة لم ير من صاحبة البيت الجالسة فى غرفة الاستقبال إلا ظهرها ، ولم يحمل معه من ذكرياتها إلا عبارة « مساء الخير يا أبى » التى كانت ترد بها على تحيته فى جفاف ، ودون أن تلتفت إليه .

وفى إحدى هذه الأمسيات شعر الأب فى اللحظة التى آوى فيها إلى

فراشه بأن الحمى التى يحتضنها منـذ أيام طويلة فى معصميه وصدغيه قد انطلقت من عقالها .

أما ما تلا ذلك فلا نعرف عنه شيئاً إلا مما روته مضيفته . فقد استيقظت فى الصباح مبكرة كعادتها ، ومر بعض الوقت دون أن يخرج الأب من غرفته ، فاعتراها بعض الدهش ، وبعد كثير من التردد قررت أن تدق على بابه ، فوجدته ما زال راقداً فى فراشه بعد ليلة كلها أرق . كان يشكو من ضغط على جسمه،ويبدو محتقن الوجه أكثر من المعتاد ، وتقرر المضيفة أنها عرضت عليه فى كثير من اللطف أن ترسل فى استدعاء أحد الأطباء ، ولكنه رفض عرضها بعنف رأت هى أنه مؤسف . ولم تجد أمامها سوى أن تنسحب ، وبعد ذلك بقليل دق الأب الجرس وطلب حضورها إليه،واعتذر لها عن زلاته غير المقصودة ، وصرح لها بأن مرضه لا يمكن أن يكون الطاعون،لأنه لا يبدو عليه أى عرض من أعراضه ، وإنما هى وعكة زائلة . وأجابته السيدة العجوز بكل وقار أن عرضها لم يكن مبنيا على قلق من هذا النوع،وأنها لم تكن تقصد سلامتها الشخصية لأنها بين يدى الله ولما لم يبد الأب أية رغبة عادت تلك المضيفة التى كانت تحرص — حسب قولها — على أن تؤدى واجبها نحوه كاملا، فعرضت عليه مرة أخرى أن تستدعى له الطبيب . ومن جديد رفض الأب عرضها معززاً رفضه بمبررات رأت السيدة العجوز أنها مضطربة ، وكل ما فهمته منها أن الأب رفض هذه الاستشارة لأنها لا تتفق مع مبادئه ؛ وهذا بالذات هو الأمر الذى لم تفهمه ، واستنتجت من كل ذلك أن الحمى كانت قد أصابت تفكير ضيفها بالاضطراب ، فاكتفت بأن قدمت له بعض المنقوعات الحارة .

ولما كانت قد عقدت العزم على أداء الالتزامات التى خلقتها لها الظروف بكل دقة ، فقد ظلت تزور المريض بانتظام مرة كل ساعتين ، وكان يروعها ذلك الاضطراب المتزايد الذى اعترى الأب طيلة يومه ، فكان يبعد أغطيته ، ثم يعود فيسحبها نحوه وهو لا يكف عن المسح بيده على جبهته المنداة . وكثيراً ما كان ينهض وهو يحاول أن يسعل سعالا مخنوقا خشنا رطبا يحدث صوتا يشبه صوت التمزق .

وكان يبدو — فى ذلك الوقت — كأنما يحاول عبثاً أن يخرج من أعماق حلقه قطعاً من القطن قد تسببت فى اختناقه ، وفى نهاية كل أزمة من تلك الأزمات كان يترك جسمه يتهاوى إلى الخلف ، وتبدو على قواه كل مظاهر الخور . وبعد كل ذلك كان يهب من جديد جالساً نصف جلسة ، ويظل لمدة قصيرة يحدق أمامه بصورة أكثر عنفاً وإلحاحاً مما كان عليه فى حالة الاضطراب السابق . ولكن السيدة العجوز ظلت مترددة فى استدعاء الطبيب خوفاً من إغضاب مريضها ، معتقدة بأن الأمر قد لا يعدو أن يكون حمى شديدة ، وإن بدت تطوراتها فى غاية الغرابة .

ومع ذلك فقد حاولت فى فترة العصر أن تتكلم مع الأب ، ولكنها لم تتلق من رد على سؤالها سوى بضع كلمات مختلطة ، غير أنها ما كادت تجدد عرضها حتى نهض الأب من جديد وهو نصف مختنق ، وأجابها بوضوح بأنه لا يريد طبيباً . وحينئذ قررت المضيفة أن تنتظر حتى صباح اليوم التالى ، مصممة على أنه إذا لم تتحسن صحة الأب ، فسوف تطلب الرقم التليفونى الذى كانت تردده وكالة «رانسدوك» عشرات المرات كل يوم

بالراديو . ولما كانت دائمة الحرص على واجبها فقد فكرت فى زيارة ضيفها أثناء الليل والسهر عليه . ولكن لما أقبل المساء أعطته منقوعاً بارداً ، وأرادت أن ترقد قليلا غير أنها لم تستيقظ إلا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى . وحينئذ جرت إلى غرفته .

كان الأب فى هذه اللحظة يرقد بلا حراك ، وكان الاحتقان الشديد الذى اعتراه بالأمس قد ترك على وجهه نوعا من الزرقة ظل بادياً على ملامحه ، وكان الأب يحدق فى النجفة التى كانت تتدلى فوق السرير بلآلئها الصغيرة المتعددة الألوان ، وعندما دخلت السيدة العجوز أدار رأسه ناحيتها . وتقول المضيفة : إنه كان يبدو فى هذه اللحظة وكأنما قد انهال عليه أحد الأشخاص ضرباً طول الليل ، ومن ثم فقد كل قدرة على المقاومة . ولما سألته عن حاله أجاب بصوت استطاعت تمييز ما به من غرابة ، وقال : إن حالته سيئة ، ولكنه ليس فى حاجة إلى طبيب ، بل يكفى أن ينقل إلى المستشفى حيث يتم كل شىء حسب القواعد المتبعة ، فبدا الارتياح على وجه السيدة العجوز ، وجرت من فورها إلى التليفون .

وصل ريو ساعة الظهر . وبعد أن استمع إلى حكاية المضيفة لم يجب إلا بأن بانلو على حق ، وأن الأوان ربما يكون — فعلا — قد فات . واستقبله الأب بنفس التعبير الفاتر ، ولما فحصه ريو دهش لعدم العثور على أى عرض من الأعراض الرئيسية للطاعون ذى العقد أو الرئوى على السواء ، فيما عدا الاختناق وضغط الرئتين .

وعلى كل حال كان النبض ضعيفاً ، والحالة العامة تنذر بالخطر ، ولذا كان الأمل ضئيلا ، وقال ريو لبانلو :

— لا يبدو عليك أى عرض من الأعراض الرئيسية للمرض ، ولكن الحالة تدعو حقيقة للشك ، ويجب علىّ أن أعزلك .

وابتسم الأب ابتسامة غريبة كأنها ابتسامة مجاملة ، ولكنه ظل صامتا ، وخرج ريو ليتكلم بالتليفون ، ثم عاد وأخذ ينظر إلى الأب وقال له برقة :

— سوف أظل بجانبك .

وهنا بدا پانلو كما لو كان قد استرد روحه ، وأدار ناحية الطبيب عينين كأنهما قد استعادتا نوعا من حرارتهما ، ثم تكلم بصعوبة ، فقال دون أن تنم نبراته عما إذا كان يتحدث بحزن أم لا :

— شكراً ، ولكن ليس لرجال الدين أصدقاء ، فقد وضعوا كل شيء فى يد الله .

ثم طلب الصليب الذى كان موضوعا على رأس السرير ، ولما أحضروه استدار لينظر إليه .

وفى المستشفى لم يفرج پانلو عما بين أسنانه ، واستسلم للعلاج الذى فرض عليه ، كما لو كان قطعة من جماد ، ولكنه لم يترك الصليب قط . ومع ذلك فقد ظلت حالة القس غامضة ، واستمر الشك يعبث بذهن ريو : هل هو الطاعون ومرض غير الطاعون ؟ وأياما كان ، فإن الوباء قد بدأ منذ حين يرفه عن نفسه بتضليل ضروب التشخيص . أما بالنسبة لحالة پانلو ، فقد أثبت ما حدث بعد ذلك أن هذا الشك لم يكن ذا أهمية .

فقد استمرت الحمى فى صعودها ، وازداد السعال خشونة ، واستمرت آلام المريض طيلة النهار ، وفى المساء تقيأ الأب أخيراً تلك القطعة من القطن التى كانت تخنقه . لقد كانت حمراء اللون . ووسط هذيان الحمى ظل پانلو محتفظا بنظراته غير المكترثة . . . وفى صباح اليوم التالى وجدوه ميتا ، وقد تدلى منتصف جسمه خارج الفراش ، ولكن نظرته لم تكن تعبر عن شىء ، فكتبوا على بطاقته : « حالة مشكوك فيها » .

لم يكن عيد « جميع القديسين » هـذا العام كما كان فيما سبقه من الأعوام ، ومن المؤكد أن الجو كان مناسبا للوسم؛إذ أنه كان قد انقلب فجأة واجتاحت المدينةموجةحر قضت على الجو البارد — نوعاما — الذى كان سائداً . وبعد ذلك أخذت الرياح الباردة تهب بصفة مستمرة كما حدث فى السنوات الأخيرة ، وأخذت السحب الكثيفة تجوب الأفق من ناحيه إلى أخرى ،وتغطى المنازل بالظلال ،ثم تعود سماء نوفمبر ذات الضوء الذهبى إلى الظهور من جديد بعد انقشاع تلك السحب ، وبدأت المعاطف الواقية من المطر تظهر،وقد لاحظ الناس ظهور عدد مذهل من المنسوجات ذات البريق المصنوعة من المطاط ، ذلك أن الصحف كانت قد ذكرت أنه كان قد حدث منذ مائتى عام فى إبان أوبئة الطاعون الكبيرة فى الجنوب أن ارتدى الأطباء منسوجات مدهونة بالزيت لكى يقوا أنفسهم من العدوى ، وانتهزت المحلات هذه الفرصة لتطرح للبيع ما كانت تختزنه من منسوجات أصبحت عتيقة ، وأقبل الناس عليها أملا فى التحصن ضد الوباء .

ولكن جميع دلائل الموسم هذه لم يكن باستطاعتها أن تنسى الناس أن المقابر كانت مهجورة ، فى السنوات الماضية كانت عربات الترام المليئة

برائحة زهور الأقحوان الباهتة، وبأفواج النساء تتوجه إلى الأماكن التى دفن فيها أقاربهن لكى ينثرن الزهر على قبورهم ، كان الناس يفعلون ذلك يوم عيد القديسين لتعويض الموتى عما ظلوا مغمورين فيه شهوراً طويلة من عزلة ونسيان ، ولكن فى هذه السنة أراد الناس ألا يفكروا فى الموتى ، ومعنى هذا على وجه التحديد أنهم كانوا يسرفون فى التفكير فيهم ، فلم يعد الأمر يتعلق بزياراتهم بعد طول الغياب مع قليل من الأسف وكثير من الوجوم . ذلك أنهم لم يعودوا أولئك المهجورين الذين نزورهم مرة كل عام لنبرر هجراننا لهم ، بل أصبحوا أولئك الدخلاء الذين نريد نسيانهم . ولهذا كان عيد الموتى هذا العام بلا احتفال . ذلك أن كل الأيام أصبحت أعيادا للموتى على حد تعبير كوتار الذى لاحظ تارو أن كلامه يتسم بالسخرية المتزايدة .

والحقيقة أن نيران الفرح التى كان يشعلها الطاعون فى سعادة لم تكن تفتأ تزداد احتراقاً فى فرن إحراق الكائنات البشرية الكبير . نعم إن عدد الموتى لم يعد فى ازدياد ، ولكن كان يبدو أن الطاعون قد استقر به المقام فى عليائه ، ولذلك أصبح محوط جرائم القتل التى يرتكبها كل يوم بكل أنواع الدقة والنظام التى تليق بموظف نشيط . وكان ذلك من العلامات الطيبة من حيث المبدأ وفى رأى الخبراء ؛ فمثلا كان الدكتور ريشار ينظر إلى الرسم البيانى لتقدم المرض فيراه يمثل خطا متصاعدا صعودا مستمرا ، ثم يسير فى صورة خط مستعرض طويل ، وعندئذ يقرر أن الحالة مطمئنة ، ويقول : « إنه رسم طيب، رسم رائع » وكان يرى أن المرض قد وصل إلى ما سماه الخط الثابت، وأنه من الآن فصاعدا

لا يمكن إلا أن يأخذ فى النزول ، وراح يعزو الفضل فى ذلك إلى مصل كاستل الذى حقق فى الواقع بعض النجاح غير المتوقع منذ قليل . ولم يكن كاستل الهرم يعارض ذلك ، ولكنه كان يرى أنه لا يمكن لأحد فى الحقيقة أن يتنبأ بشىء ، لأن تاريخ الأوبئة ينطوى على قفزات غير متوقعة .

أما المديرية التى كانت تتمنى — منذ مدة طويلة — أن تدخل بعض الطمأنينة على نفوس الناس ، ولم يعطها الطاعون فرصة لذلك ، فقد أخذت تفكر فى عقد اجتماع للأطباء لكى تطلب منهم تقريراً عن هذا الموضوع ، وفى هذا الوقت اختطف الطاعون الدكتور ريشار بدوره من فوق خطه الثابت بالذات .

أمام هذا المثل الذى — رغم ما أحدثه من إثارة لا ريب فيها — لم يكن ليقدم أو يؤخر ، عادت الإدارة إلى التشاؤم غير المتريث الذى كان قد صاحبها فى تفاؤلها ، أما كاستل ، فقد اكتفى بالاستمرار فى تحضير مصله بكل ما يستطيع من عناية ، ولم يعد هناك أى مكان عام لم يتحول إلى مستشفى أو محجر . وإذا كانوا — حتى الآن — قد تركوا مبنى المديرية فى حاله ، فذلك لأنه لم يكن لهم بد من مكان يجتمعون فيه . ولكن بصفة عامة ، ونتيجة للاستقرار النسبى الذى وصلت إليه حالة الطاعون فى هذا الوقت لم ترهنا حاجة لتجاوز حد التنظيم الذى كان ريو قد ارتآه من قبل ولم يضطر الأطباء والمساعدون الذين كانوا يبذلون جهودا مضنية إلى تخيل مجهودات أكبر من تلك . ولم يكن أمامهم إلا أن يستمروا بانتظام فى بذل هذا الجهد الذى يفوق طاقة البشر ، وأخذت الحالات الرئوية للوباء التى كانت

قد ظهرت من قبل تنتشر الآن فى أركان المدينة الأربعة كالو كانت هناك ريح تشعل الحرائق فى الصدور وتزيدها ضراماً ، فكان الوباء يختطف المرضى بأسرع من ذى قبل وسط ما يتقيئون من دم ، وتعرضت نسبة انتشار العدوى للزيادة من هذه الصورة الجديدة للوباء ، ولكن الإخصائيين فى الحقيقة يرون غير ذلك . ومع كل هذا فقد رئى من باب الاحتياط أن يستمر أعضاء المنظمات الصحية فى التنفس تحت أقنعة من المنسوجات الخفيفة المعقمة .

وعلى كل حال كان من المتوقع فى بادىء الأمر أن يزيد انتشار المرض ، ولكن لما كانت حالات الطاعون المقدى قد أخذت فى التناقص فقد ظل الميزان متعادلا .

ومع ذلك فقد ظهرت هناك أسباب أخرى أثارت قلق الناس ، وهى أسباب تتعلق بصعوبات التموين التى كانت غير موجودة فى السوق العادية تعرض بأثمان خيالية .

وهكذا وجدت العائلات الفقيرة نفسها فى موقف عسير للغاية ، بينما ظلت الأسر الغنية لا ينقصها تقريباً أى شىء . وفى الوقت الذى كان ينبغى فيه للطاعون — مع ما تميز به من عدم التحيز فى أحكامه — أن يقوى روح العدالة بين مواطنينا حدث على العكس من ذلك أن زاد من حدة الشعور بالظلم فى قلوب الناس ، وذلك لما الأثرة من مفعول طبيعى . أما المساواة أمام الموت — وهى مساواة لا غبار عليها — فقد ظلت على حالها ، ولكن لم يعد هناك من يرغب فى هذا النوع من المساواة . فكان

الفقراء الذين يقاسون من الجوع يسرحون خيالهم فى نوع من الحنين المضنى نحو المدن والحقول المجاورة حيث الحياة الحرة ، والخبز الرخيص .

ولما كانت السلطات عاجزة عن إعطائهم كفايتهم من الطعام ، فقد كانوا يشعرون بأنه من واجب هذه السلطات نفسها أن تدعهم يرحلون ، وكان هذا منهم شعوراً غير حكيم . ونتيجة ذلك سرت فى الناس كلمة أصبحت كالشعار كانوا يكتبونها أحياناً على الجدران ، ويصيحون بها أحياناً أخرى لدى مرور المدير ، وهى : « الخبز أو الهواء » . وكان هـــذا التعبير الساخر نذيراً ببعض المظاهرات التى ما لبثت أن قمعت ، ولكن طابعها الخطير لم يخف على أحد .

أما الصحف ، فقد كان من الطبيعى أن تستجيب للأمر بالدعوة إلى التفاؤل الذى تلقته من الجهات العليا ، وكان من يقرؤها لا يملك إلا أن يعتقد أن الهدوء والاتزان المثاليين اللذين يلوذ بهما السكان هما العلامة المميزة للموظف . ولكن مهما أحكم إغلاق مدينة من المدن على نفسها لا يمكن لأى شىء فيها أن يظل سراً ، فلم يخدع أحد بذلك « المثل » الذى يضربه عامة الناس . ولكى نكون فكرة صحيحة عن هذا الهدوء وهذا الاتزان اللذين كانوا يتحدثون عنهما ، كان يكفى أن ندخل أى محجر أو معسكر من معسكرات العزل التى أعدتها الإدارة . ولكن الراوى لم ير هذه المحاجر والمعسكرات لاضطراره فى ذلك الحين إلى مغادرة المكان ، ولذلك تراه يعتمد فى الكلام عنها على شهادة تارو .

نعم ، يذكر تارو فى مفكرته قصة زيارته مع رامبير للمعسكر الذى كان قد أقيم على ملعب البلدية ، وهذا الملعب يقع تقريبا عند أبواب

المدينة ، ويطل من ناحية على الشارع الذى يمر فيه الترام ، ومن الناحية الأخرى على الأرض الخلاء التى تمتد حتى حافة الهضبة التى بنيت عليها المدينة ، وهو محاط عادة بجدران مرتفعة من الأسمنت ، ولذا يكفى أن يوضع الحراس على أبوابه الأربعة لكى يصبح الهرب منه متعذراً . كما أن هذه الجدران كان من شأنها أن تمنع الناس فى الخارج من أن يضايقوا بفضولهم أولئك التعساء الذين حجزوا فى الداخل. أما هؤلاء الأخيرون، فإنهم لطول سماعهم ضجيج عربات الترام — وإن لم يروها — قد أصبحوا يتعرفون على ساعات ذهاب الناس المكاتب وعودتهم منها، وذلك بفضل ازدياد الضوضاء التى يحدثها هؤلاء الناس وانخفاضها . وهكذا كانوا يدركون أن الحياة التى أبعدوا عنها لا تزال مستمرة على بعد أمتار منهم، وأن جدران الأسمنت تلك تفصل عالمين اختلف كل منهما عن الآخر كما لو كانا فى كوكبين مختلفين .

وقد اختار تارو ورامبير فترة ما بعد الظهر من أحد أيام الآحاد لزيارة الملعب ، وكان برفقتهما جونزاليس لاعب كرة القدم الذى كان رامبير قد عثر عليه من جديد ،وانتهى به الأمر إلى أن قبل القيام بمراقبة الملعب بالمناوبة ، وكان على رامبير أن يقدمه إلى مدير المعسكر ، وكان جونزاليس قد قال للرجلين لحظة التقائهما به: إن هذه هى الساعة التى كان يقوم فيها — قبل الطاعون — بلبس ملابس اللعب استعداداً لبدء الجولة أما الآن وقد تم الاستيلاء على الملاعب فلم يعد هذا ممكنا ، ولذا كان جونزاليس يشعر بالفراغ ،وكان هذا الشعور باديا عليه . وهذا هو أحد الأسباب التى دعته إلى قبول تلك المراقبة على شرط ألا يزاولها إلا فى نهاية

كل أسبوع، وفى هذا الوقت كانت السماء نصف مغطاة بالسحب، ولاحظ جونزاليس بكثير من الأسف، وهو يرفع أنفه إلى أعلى، أن هذا الوقت — الذى لا هو بالحار ولا هو بالممطر — يعتبر أنسب الأوقات لمباراة طيبة. وأخذ يستعيد فى نفسه بقدر المستطاع ذكرى رائحة الشحم فى غرف الملابس، والمنصات المتداعية، وملابس اللعب ذات الألوان الزاهية الملقاة على الأرض الصفراء، وعصير الليمون أو المياه الغازية التى كانوا يتناولونها بين شطرى اللعب، والتى كانت تحدث فى الحلق الجاف تأثيراً كتأثير ألف إبرة منعشة. هذا إلى أن تارو قد سجل هو الآخر فى مفكرته أن هذا اللاعب لم يكف خلال سيرهم فى شوارع الحى الخارجى المتداعية عن قذف الأحجار التى كان يصادفها فى الطريق بقدمه.

وكان يحاول أن يصوبها مباشرة نحو فتحات المجارى. وعندما كان ينجح فى ذلك كان يقول: « واحد لصفر » ولما انتهى من تدخين سيجارته ثفل عقبها أمامه، وسارع يحاول التقاطه بقدمه، وبالقرب من الملعب رأى جونزاليس جمعاً من الأطفال يلعبون بالكرة، فقذفوها نحو جماعتهم، فإذا به يكلف نفسه عناء إعادتها لهم بدقة فى التصويب.

وأخيراً دخلوا الملعب، فرأوا المنصات غاصة بالناس، أما أرض الملعب، فكانت مغطاة بمئات من الخيام الحمراء التى يلمح بداخلها من بعد بعض الأسرة وسرر الحاجيات، وقد احتفظ بالمنصات حتى يستطيع حبيسوا المعسكر الاحتماء بها من الحر والمطر، إذ لم يكن يسمح لهم بدخول الخيام إلا ساعة المغرب، وقد أعدت صنابير رشاشة تحت المنصات. أما غرف الملابس السابقة التى كانت مخصصة للاعبين، فقد تحولت إلى مكاتب

وعيادات . وكان أغلب المحجوزين فى المعسكر فى هذه الآونة فوق خطوط اللعب، كأن بعضهم يجلسون القرفصاء لدى مدخل خيمتهم، وهم يسرحون نظراتهم الغامضة فى كل ما يحيط بهم . أما أولئك الذين آووا إلى المنصات ، فقد كان الكثيرون منهم يرقدون كما لو كانوا فى حالة انتظار وترقب .

وسأل تارو رامبير بقوله :

ـــ ماذا يعمل هؤلاء أثناء يومهم ؟

ـــ لا شيء .

والواقع أنهم كانوا جميعاً تقريباً خاوى الأيدى يطوحون أذرعتهم من الفراغ ، كما كان هذا الجمع الغفير من الناس يجلسون فى صمت جد مثير للانتباه . وقال رامبير :

ـــ فى الأيام الأولى لم يكن من الممكن أن تسمع صوت نفسك هنا . ولكن بمرور الأيام أخذ كلامهم يتناقص شيئاً فشيئاً . ويذكر تارو فى مذكرته ـــ ويبدو أنه كان يفهمهم جيداً ـــ أنه كان يراهم فى أول الأمر رقوداً فى خيامهم يشغلون أنفسهم بالإنصات إلى طنين الذباب، أو بحك جلودهم ، فإذا وجدوا أذناً مجاملة تصغى إليهم راحوا يصرخون من الغضب أو من الخوف ، ولكن منذ اللحظة التى غص فيها المعسكر بالنزلاء أخذت هذه الآذان المجاملة تقل شيئاً فشيئاً ، ولم يعد أمامهم إلا أن يلوذوا بالصمت، ويركنوا إلى الارتياب. والواقع أنه كان هناك نوع من الارتياب يهبط على هذا المعسكر الأحمر من السماء الداكنة رغم سطوعها .

نعم كان الارتياب يبدو عليهم جميعاً ، ذلك أنهم إذا كانوا قد عزلوا عن الآخرين، فلابد أن يكون ذلك لسبب. لذا كانت تبدو على وجوههم سيما الخائفين الذين يبحثون عن أسباب ، وكان تارو كلما نظر فى عين واحد منهم رآها تنم عن الفراغ ، وكان يبدو على جميعهم أنهم يقاسون آلام فراق شامل عن كل ما كان يكون حياتهم، ولما كانوا لا يستطيعون التفكير فى الموت طيلة الوقت، فقد أصبحوا لا يفكرون فى شىء .كانت أذهانهم فى عطله ، ويقول تارو :

« ولكن أسوأ ما فى الأمر أنهم قد أصبحوا منسيين، وأنهم كانوا يعرفون ذلك ، فلقد نسيهم من كانوا يعرفونهم، لأنهم صاروا يفكرون فى أشياء أخرى ،وهذا من الأمور التى لا يصعب فهمها. أما من يحبونهم فقد نسوهم بدورهم، لأنهم كان عليهم أن ينهكوا أنفسهم فى المساعى وتدبير المشروعات التى تهدف إلى إخراجهم من معزلهم ، وكان من شأن طول تفكيرهم فى هذا الإخراج أن أنساهم التفكير فى أولئك الذين يعملون على إخراجهم ، وهذا أيضاً أمر طبيعى ، وفى النهاية لاحظ الناس أنه لم يعد أحد يقدر على التفكير فى أحد حتى فى أسوأ حالات الشقاء ، ذلك أن التفكير فى أحد معناه أن نفكر فيه الدقيقة تلو الدقيقة ، دون أن يشغلنا شىء عن هذا التفكير ، من أعمال منزلية أو ذبابة تطير أو وجبات طعام أو حكة جلدية ، ولكن كان هناك ذباب وحكات جلدية، ولذا كان من العسير على الناس أن يحيوا حياتهم ، وكان هؤلاء يعرفون ذلك تمام المعرفة .

وقد أقبل عليهم المدير يخبرهم بأن شخصاً يدعى السيد أوتون يطلب

رؤيتهم ، ثم قاد جونزاليس إلى مكتبه . أما هما، فقد قادهما إلى ركن منعزل من المنصة كان يجلس فيه السيد أوتون ، وما أن رآهما هذا الأخير حتى نهض واقفاً لاستقبالهما. وقد كان يرتدى ملابسه بنفس طريقته المعهودة، ويضع نفس الياقة المنشاة ، وكل ما لاحظه عليه تارو من تغير أن شعر صدغيه كان أكثر تشعثاً من ذى قبل،وأن أحد رباطى حذائه كان مفكوكا . وكان التعب باديا على القاضى ، كما لوحظ أنه لم ينظر مرة واحدة إلى محدثيه فى وجهيهما ، وقد قال لهما : إنه سعيد لرؤيتهما، وأنه يكلفهما بشكر الدكتور ريو على ما قام به .

وصمت الآخران .

وبعد فترة من الوقت أردف القاضى قائلا :

ـــ أتخشم ألا يكون چاك قد تعذب طويلا .

كانت هذه هى المرة الأولى التى سمعه فيها تارو ينطق باسم ابنه ، ولذا أدرك أن شيئاً ما كان قد تغير فى هذا الرجل ، وفى هذا الوقت كانت الشمس قد أخذت تهبط وراء الأفق، وأخذت أشعتها تتسلل من بين السحب إلى المنصة فتطلى وجوه الرجال الثلاثة بطلاء ذهبى .

وقال تارو :

ـــ كلا ، كلا ، إنه فى الواقع لم يتعذب .

وعندما نهضا منصرفين كان القاضى لا يزال ينظر إلى الجهة التى تأتى منها الشمس .

وقد ذهبا ليودعا جونزاليس ، فوجداه منهمكا فى دراسة جدول من

جداول مناوبات المراقبة ، وضحك اللاعب وهو يشد على يديهما ، وقال :

— لقد رجعت على الأقل إلى غرف الملابس ، وهـذا بعض ما كنت أريد .

وبعد قليل عاد المدير فشيع تارو ورامبير ، وفى تلك اللحظة سمع أزيز هائل داخل المنصات ، ثم صاحبته مكبرات الصوت التى كانت تستعمل فى الأوقات الطيبة لإعلان نتائج المباريات ، أو لتقديم الفرق ، فأعلنت فى صوت كأنه صادر من الأنف : أنه ينبغى للمعزولين أن يعودوا إلى خيامهم حتى يتسنى توزيع وجبة المساء عليهم ، وغادر الناس المنصات فى بطء عائدين إلى الخيام وهم يجرون سيقانهم جراً . ولما استقر بهم المقام مرت خلال الخيام عربتان كهربائيتان صغيرتان من تلك التى ترى فى محطات القطارات ، وكانتا محملتين بقدور كبيرة . وأخذ الرجال يمدون أيديهم . وكانت هناك مغرفتان كبيرتان تغمران فى القدرين ، ثم تخرجان ، لتصبا مابهما فى وعاءين من الصفيح . وبعد ذلك تواصـل العربة سيرها ، وتبدأ من جديد عند الخيمة التالية .

وقال تارو للمدير :

— إن الأمر يسير هنا طبقاً للقواعد العلمية .

وأجاب المدير قائلا — وهو يشد على أيديهما — :

— نعم ، إنه يسير حسب القواعد العلمية .

كان الغسق قد خيم على المكان ، وكشفت السماء غطاءها ، وأخذ

نوع من الضوء الهادئ المنعش يغمر المعسكر ، وفى هدوء المساء أخذ صوت الملاعق والصحون يتصاعد من كل مكان ، وراحت الخفافيش تحوم فوق الخيام ، ثم اختفت فجأة . وفى الناحية الأخرى من الجدران كانت هناك عربة ترام تصر لدى نقطة من نقط التحويل .

وتمتم تارو قائلا — وهو يعبر الأبواب — :

— ياللقاضى المسكين ! ينبغى أن نعمل شيئاً من أجله .

ولكن كيف السبيل إلى مساعدة قاض ؟

وكان فى المدينة معسكرات أخرى كثيرة مثل هذا المعسكر لا تسمح أمانة الراوى ، وقلة ما لديه من معلومات مباشرة عنها أن يذكر عنها أكثر من ذلك ، ولكن ما يستطيع أن يقوله هو أن وجود هذه المعسكرات، ورائحة الرجال التى كانت تتصاعد منها، وأصوات المكبرات الضخمة ساعة الغروب ، ولغز هذه الجدران، والخوف من هذه الأماكن المنكرة ، كل هذا كان شديد الوطأة على حالة مواطنينا المعنوية ، وقد ساعد على ازدياد الهرج والاستياء الذى عم الجميع ، فتعددت ضروب الاحتكاك ، والخلاف مع الإدارة .

وفى نهاية نوفمبر كان جو الصباح قد صار شديد البرد، وهطلت الأمطار كأنها الطوفان، فغسلت الطرق بالماء الغزير، ونظفت السماء وجعلتها تبدو خالصة نقية مبرأة من السحب فوق الشوارع اللامعة ، وكانت الشمس الشاحبة تنثر على المدينة فى كل صباح ضوءاً خافتاً بارداً كالثلج. أما قبيل المساء ، فكان الهواء على العكس من ذلك يصير فاتراً من جديد، وكانت تلك هى اللحظة التى اختارها تارو لكى يطلب بعض الاستفسارات من الدكتور ريو .

ففى حوالى الساعة العاشرة من ذات يوم ، وبعد نهار طويل حافل بالعمل المجهد، رافق تارو ريو فى زيارته المسائية لمريض الربو العجوز .

وكانت السماء تلمع بلطف فوق منازل الحى القديم . وأخذ النسيم يتناوح في سكون خلال الميادين المظلمة ، وقد شعر الرجلان القادمان من الشوارع الهادئة بالارتياح لثرثرة العجوز، فقد أخبرهم أن هناك بعض المتذمرين، وأن صحن الزبد لا يقدم إلا لأشخاص معينين ، وأنه ما فى كل مرة تسلم الجرة ، ثم أخذ يفرك يديه وهو يقول: إنه من المحتمل أن يحدث بعض الصخب ، واستمر الطبيب فى إجراء علاجه عليه دون أن يكف هو عن تفسير الحوادث .

وفى هذه الأثناء سمع وقع أقدام على السطح من فوقهم ، ولما لاحظت المرأة العجوز اهتمام تارو بذلك أخبرتهما أن هناك بعض الجارات اللاتى يسكن على السطح ، وعلما فى نفس الوقت أن المنظر الذى يشاهد من هذا السطح منظر رائع ، وأنه لما كانت أسطح المنازل تتلاقى عادة من إحدى جهاتها فإنه من الممكن لنساء الحى أن يتزاورن دون أن يخرجن من منازلهن .

وقال العجوز :

— نعم ، اصعدا إذن، ففى أعلى يوجد الهواء الطيب .

وألفيا السطح خالياً ليس به إلا ثلاثة كراسى ، ولاحظا أنه مهما عد الإنسان بصره من إحدى الجهات فلن يرى سوى أسطح منازل تنتهى بمتاخمة كتلة حجرية مظلمة ، تبينا فيها أول تلال المدينة . أما من الجهة الأخرى ، فكان الناظر يرى — فيما وراء بعض الشوارع والميناء غير المرئى — أفقا تختلط فيه السماء بالبحر فى نوع من الخفقان غير المتميز، وكان

هناك وراء ما يعلمان أنه الشاطىء الضحل ضوء لا يريان مصدره، ولكنه يظهر بصورة منتظمة . إنه فنار المرور الذى استمر يعمل منذ الربيع من أجل هداية سفن تولى هاربة إلى موانىء أخرى .

وفى سماء تجوبها الرياح وتحملها كانت النجوم تتلألأ، ثم يأتى بريق الفنار بين الفينة والفينة فيضيف إلى لألائها نوعا من الرماد العابر. وكان النسيم يحمل رائحة التوابل والحجارة ، وكان السكون يخيم على الكون . وقال ريو وهو يهم بالجلوس :

— إن الجو جميل كأن الطاعون لم يصعد هنا أبداً .

وكان تارو حينئذ يدير له ظهره ، وينظر إلى البحر . فأجابه بعد برهة :

— نعم ، إن الجو جميل .

ثم أتى وجلس بالقرب من الطبيب ، ونظر إليه بانتباه ، وفى هذه الأثناء ظهر النور ثلاث مرات فى السماء ، وقد تصاعد من أعماق الشارع صوت أوان منزلية يصطدم بعضها ببعض ، وقرع آذانهما صوت باب يصفق داخل البيت .

وقال تارو بصوت جد طبيعى :

— ألم تحاول أبداً ، يا ريو ، أن تعرف من أكون ؟ أتكن لى شيئاً من الصداقة ؟

وأجاب الطبيب :

— نعم ، إنى أكن لك شعور الصداقة ، ولكن الوقت كان أمامنا شحيحاً حتى الآن .

ـــ حسن ، إن هذا يطمئنني ، أتريد أن تكون هذه الساعة هي ساعة الصداقة ؟

ولم يجب ريو بأكثر من ابتسامة .

ـــ حسن . ها هي ذي . .

وفي هذه اللحظة سمعا ضوضاء إحدى العربات تنزلق فوق الأسفلت المبلل على مسيرة بضعة شوارع منهما، ثم تلتها بعض صيحات بعيدة غير واضحة ، فقطع عليهما كل ذلك ما كان يحيط بهما من سكون مرة أخرى، ثم ما لبث السكون أن عاد ـــ بما يحمل من سماء ونجوم ـــ يخيم على الرجلين. ونهض تارو ليطل من سور السطح ووجهه تجاه ريو الذي ظل مسترخياً على مقعده ، ولم يكن يرى من تارو سوى كتلة واحدة بارزة في فراغ السماء . لقد تكلم طويلا ، وهذا مجمل حديثه على وجه التقريب :

ولكي نبسط الأمر ياريو أبادر فأقول : إنني كنت أعاني من الطاعون قبل أن أعرف هذه المدينة وهذا الوباء ، وهذا يعني أني مثل غيري من الناس ، ولكن هناك من الأشخاص من لا يعرفون ذلك أو من يستمرئون هذا الوضع ، وهناك من يعرفون ذلك ويعملون على الخروج منه . أما أنا فقد كنت دائماً أريد الخروج .

فعندما كنت شاباً ، كنت أعيش بفكرة براءتي ، أي أنه لم يكن لدي أفكار على الإطلاق ، ولم أكن من النوع القلق ، فقد بدأت بداية مناسبة، وكان كل شيء ينجح في يدي، كنت على وفاق مع الذكاء ، في حالة طيبة مع النساء ، كانت تداهمني بعض المشاغل، ولكنها سرعان ما كانت

تذهب من حيث أتت ، وذات يوم بدأت أفكر ، الآن . .

« ينبغي أن أقول لك : إنني لم أنشأ مثلك نشأة فقيرة ، فقد كان أبي محاميا عاماً ، وهو منصب كبير ، ومع هذا لم يكن يبدو عليه ذلك لأنه كان رجلا سليم الطوية . أما أمي ، فكانت بسيطة لا شخصية لها ، وإذا كنت لم أكف يوماً عن حبها فإني مع ذلك أفضل عدم الحديث عنها . كان أبي يهتم بي ويحبني ، بل وأعتقد أنه كان يحاول أن يفهمني ، وقد كانت له مغامرات خارج المنزل، وأنا الآن متأكد من ذلك ، إلا أن هذا الأمر أصبح الآن أبعد من أن يغيظني ، وكما كان متوقعا منه كان في مسلكه هذا لا يؤذي شعور أحد ، ولكي لا أطيل عليك الحديث لم يكن كثير الشذوذ ، واليوم وقد مات فإني أدرك أنه إذا لم يكن قد عاش عيش القديس ، فإنه أيضا لم يكن بالرجل الشرير ، كان بين بين . هذا كل ما هنالك، وكان من هذا النوع الذي يجعلك تشعر نحوه بود معتدل، بهذا النوع من الود الذي يحملك على الاستمرار فيه .

« ومع ذلك فقد كانت له خصلة مميزة : فإن كتابه المفضل الذي كان يقرؤه قبل أن ينام هو دليل القطارات لشيكس ، وليس معنى هذا أنه كان كثير الأسفار ، فلم يكن يسافر إلا في الأجازات ، حيث يذهب إلى مقاطعة «بريتانيا» التي كان يملك فيها ضيعة صغيرة ، ولكنه كان يستطيع أن يذكر لك ساعات قيام قطار باريس — برلين وعودته ، وجميع الطرق التي تمكنك من السفر بين ليون وڤارسوڤيا ، كما كان يستطيع أن يذكر لك بدقة عدد الكيلو مترات بين العواصم التي تختارها ، هل تستطيع أن تذكر كيف نسافر من بيانسون إلى شامونيكس ؟ لاشك أن ناظر المحطة

نفسه لابد أن يرتبك إذا ما طلبت منه ذلك . أما أبى فلم يكن يرتبك ، فقد كان يتدرب كل مساء تقريبا على إزادة معلوماته فى هذه النقطة، وكان فخوراً بذلك . وأما أنا ، فقد كان هذا مدعاة لتسليتى ، وكثيراً ما كنت أوجه إليه الأسئلة ، وأشعر بغبطة كبيرة عندما أراجع إجاباته على دليل شيكس ، وأجد أنه لم يخطىء ، ولقد ربطت هذه التمرينات الصغيرة بيننا برباط وثيق، فقد كنت بالنسبة له جمهوراً من المستمعين يقدر همته ونشاطه. وقد كنت من ناحيتى أرى أن تفوقه فيما يختص بالسكك الحديدية يعادل أى تفوق آخر .

« ولكن يبدو لى أنى أترك العنان لنفسى ، وقد يجرنى ذلك إلى أن أولى هذا الرجل الطيب أكثر مما يستحق من الأهمية ، ولكنى ذكرت ذلك لكى أنتهى منه إلى أن تأثيره على مصيرى لم يكن إلا تأثيراً غير مباشر، فهو على ـــ أكثر تقدير ـــ قد منحنى إحدى الفرص، فعندما بلغت السابعة عشرة دعانى إلى الذهاب للاستماع إليه فى المحكمة ، وكان الأمر يتعلق بمسألة هامة فى محكمة الجنايات ، ومن المؤكد أنه كان يظن أنه سيبدو فى أحسن مظاهره ، بل وأعتقد أنه كان يعتمد أيضاً على هـــذه المظاهر الرسمية التى تبهر خيال صغار الشبان، وذلك لكى يحثنى على الدخول فى المهنة التى اختارها هو من قبل ، ولقد قبلت دعوته لأدخل السرور إلى قلبه ، ولكى أشبع عندى حب الاطلاع الذى كان يدفعنى إلى رؤيته، والاستماع إليه فى دور غير الدور الذى كان يلعبه فى بيتنا ، لم أكن أفكر فى شىء أكثر من هذا . وكان ما يدور فى المحكمة يبدو لى دائماً طبيعيا ، ولا يمكن تفاديه كأحد استعراضات عيد ١٤ يوليو، أو حفلة

توزيع الجوائز ، كانت فكرتى عن هذا الموضوع جد غامضة ، ولم يكن تفكيرى فيه يسبب لى أى ضيق .

ومع ذلك فلم تعلق بذهنى من ذلك اليوم إلا صورة واحدة ، هى صورة أبى كمذنب ، ولكن هذا الرجل القصير الفقير ذا الشعر الأحمر الذى كان يبلغ الثلاثين من عمره كان يبدو لى وكأنه مصمم على الاعتراف بكل شىء ، وكما لو كان يشعر برعب حقيقى مما فعل ومما سيفعلون به ، حتى أنه لم تكد تمر بضع دقائق حتى كنت لا أقدر على تحويل بصرى عنه . كان يبدو كبومة أذعرها الضوء القوى ، لم تكن عقدة رباط عنقه تتفق تماماً مع زاوية الرقبة ، وكان يقرض أظافر إحدى يديه ، يمناهما ، وباختصار ، ان أطيل عليك ، فقد فهمت طبعاً أنه كان حياً . .

« أما أنا ، فلم أكن قد أدركت ذلك إلا فجأة ، إننى لم أكن قد فكرت فيه حتى الآن إلا على أساس أنه ينتمى إلى طائفة المذنبين » . ولا أستطيع أن أقول : إننى كنت قد نسيت أبى فى هذا الوقت ، ولكن شيئاً ما قد قبض أحشائى ، وانتزع منى كل إنتباه آخر سوى ذلك الذى أوليته للمتهم . كنت لا أكاد أنصت إلى شىء ، بل كنت أشعر أنهم يريدون قتل هذا الرجل الحى ، ومرت بى لحظة هائلة حملتنى كأنها الموج إلى جواره فى عماية شديدة المراس ، ولم أستيقظ إلا على مرافقة الاتهام يلقيها أبى .

« لقد غيره الرداء الأحمر من الضد إلى الضد : ولم يعد ذلك الرجل الطيب الودود ، وإنما راح فمه يهدر بالجمل والألفاظ الفخمة التى كانت تخرج منه تسعى دون توقف كأنها الأفاعى ، وفهمت أنه يطلب الموت

لهذا الرجل باسم المجتمع ، بل وأنه يطلب أن تقطع عنقه . نعم ، إنه لم يقل سوى « هذا الرأس ينبغي أن يسقط » ، ولكن الفرق ليس كبيراً على أية حال ، والنتيجة واحدة مادام قد حصل على هذا الرأس ، وكل ما هنالك أنه لم يكن هو الذى يقوم بهذا العمل فى ذلك الوقت . أما أنا — الذى تتبعت المسألة فيما بعد حتى خاتمتها — فقد نشأ عندى نحو هذا التمس تجاوب داخلى بلغ حداً من العمق لم يعرف أبى مثله قط ، وحسب العادة المتبعة ، كان على أبى أن يحضر مايسمونه — بتعبير مهذب — بالدقائق الأخيرة للمتهم ، والذى ينبغى أن يسمى أبشع جرائم القتل .

« ومنذ تلك اللحظة لم أعد أستطيع رؤية دليل « شيكس » دون أن يعتريني امتعاض مروع . منذ تلك اللحظة صرت أهتم بالعدالة اهتماماً يشوبه الاشمئزاز ، كما صرت أهتم بأحكام الإعدام وتنفيذها ، وتبين لى — والدوار يذهب بى كل مذهب — أن أبى لا بد أن يكون قد حضر مراراً جريمة القتل هذه ، وأن ذلك على وجه التحديد كان فى الأيام التى يستيقظ فيها مبكراً . نعم ، فقد كان فى هذه الحال يضبط ساعته المنبهة ، ولم أستطع التحدث عن هذا إلى أمى ، ولكننى رحت أراقبها مراقبة أكثر دقة من ذى قبل . ففهمت أنه لم يعد بينها وبينه أية علاقة شخصية ، وأنها تحيا معه حياة العزوف . وقد ساعدنى هذا — كما كنت أقول حينئذ — على إعذارها ، ثم علمت فيما بعد أنه لم يكن ثمة ما أغفره لها ، لأنها كانت قد عاشت حتى زواجها فقيرة ، وأن الفقر قد علمها الخضوع والامتثال .

« لعلك تتوقع بلا شك أن أقول لك : إنى قد رحلت عنه بعد ذلك مباشرة . كلا ، فقد بقيت معه عدة أشهر ، بل قرابة العام ، ولكن قلبى

كان قد أصبح مريضاً . وذات مساء طلب أبى ساعته المنبهة بحجة أنه يريد أن يصحو مبكراً ، ولم أنم طوال الليل ، ولما عاد فى اليوم التالى كنت قد غادرت البيت. والمبادر بذكر أن أبى قد أرسل من يبحث عنى وأنى ذهبت لزيارته ، ولكنى أخبرته فى هدوء — دون أن أشرح له السبب — بأننى سوف أقتل نفسى لو اضطرنى للعودة ، وانتهى بى الأمر إلى الرضوخ لأنه كان هادىء الطبع ، بعد أن ألقى على خطابه عن سخف مايسمونه «أن يحيا كل إنسان حياته الخاصة » (وهكذا كان يفسر لنفسه تصرفى ولم أحاول أنا نكران ذلك) ثم أغدق على آلاف النصائح ، وكتم الدموع الحقيقية التى كانت توشك أن تنهمر من عينيه ، ومع ذلك فقد ظللت زمناً طويلا أعود إلى البيت بانتظام لرؤية أمى ، فكنت أقابله خلال تلك الزيارة. وأعتقد أنه اكتفى من ناحيته بهذه الصلة ، أما من ناحيتى أنا ، فلم أكن ناقماً عليه ، ولكن كنت أشعر ببعض الحزن يحز فى قلبى . ولما ماتت أمى معى ، ولو لم تمت بدورها لظلت معى حتى هذه اللحظة .

« وإذا كنت قد تحدثت عن هذه البداية بكثير من التفصيل ، فما ذلك إلا لأنها كانت فى الحقيقة بداية كل شىء ، أما الآن فسوف أجمل حديثى . لقد عرفت الفقر فى الثامنة عشرة من عمرى بعد أن كنت فى يسر ، ومارست مئات المهن لأكسب عيشى ، وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير . ولكن الأمر الذى كان يستولى على كل انتباهى هو أمر حكم الإعدام . كنت أريد أن أسوى حسابى مع البومة الحمراء . ونتيجة لذلك مارست السياسة كما يقولون ، وكل ما هنالك أنى لم أكن أرغب فى الإصابة بالطاعون ، ولكنى اعتقدت أن المجتمع الذى أعيش فيه مجتمع يقوم على

أحكام الإعدام ، وأنى إذا قاومت هذا المجتمع ، كنت قد قاومت القتل . اعتقدت فى ذلك كما أسر إلى بعض الآخرين بمثله ، ولكى انتهى من هذه النقطة أقول: إن ذلك كان صحيحاً إلى حد كبير، فانضممت إذن إلى الآخرين الذين كنت أحبهم ، والذين مازالت أحبهم وبقيت معهم زمناً طويلا ، وليس هناك من بلد فى أوربا لم أشاركه فى كفاحه .

ولكن ما علينا ..

« كنت أعرف طبعا أننا نحن أيضا كنا نصدر أحكاماً بالإعدام . ولكن كان يقال: لابد من بعض الضحايا لكى نصل إلى عالم لا يقوم فيه أحد بقتل أحد ، وكان هذا صحيحاً إلى حد ما ، ولكن لعلى أنا لم أكن لأنوى الاستقرار فى مثل هذا النوع من الحقيقة . أما أننى كنت متردداً فقد كان هذا مؤكداً ، ولكننى بقيت أفكر فى البومة ، ومن ثم فقد أمكن لهذا الوضع أن يستمر . حتى كان ذلك اليوم الذى رأيت فيه حكما بالإعدام ينفذ (وكان ذلك فى المجر) . وإذا بنفس الدوار الذى أصابنى وأنا طفل ينتابنى – وأنا رجل ، وأظلمت عيناى .

« ألم تر أبداً رجلا يموت رميا بالرصاص ؟ كلا ، بكل تأكيد ، فهذا يتم بناء على دعوة سابقة ، ويختار له جمهور المشاهدين مقدماً ، والنتيجة أنك بقيت غارقا فى الكتب والصور المطبوعة ، إن الأمر فى مخيلتك لا يعدو عصابة للأعين ، وعمودا ، وبعض الجنود الذين يقفون على بعد . كلا . فالأمر ليس كذلك ، هل تعرف أن فيلق الجنود المكلفين بإطلاق النار يقف على بعد متر ونصف من المحكوم عليه ؟ وهل تعرف أن المحكوم عليه لو تقدم خطوتين إلى الأمام لاصطدم صدره بالبنادق؟ وهل

تعرف أنه على هذه المسافة القصيرة يصوب الرماة قذائفهم على منطقة القلب، فيحدثون فيها برصاصهم الكبير ثقبا تستطيع أن تدخل فيه قبضة يدك؟ كلا! إنك لا تعرف شيئا من هذا، لأنه لا أحد يروى مثل هذه التفاصيل. إن نوم البشر أكثر قداسة من حياة المصابين بالطاعون: ذلك أنه لا يصح منع الناس الطيبين من النوم، فإن منعهم منه يدل على سوء الذوق، والذوق معناه عدم الإلحاح، هذا ما يعرفه الناس جميعا. أما أنا، فلم أنم منذ هذه اللحظة. وقد بقى ذلك المذاق الردىء فى فمى، ولم أكف عن الإلحاح أى عن التفكير فى ذلك.

«ولقد فهمت حينئذ أننى، أنا على الأقل، لم أكن قد كففت عن كونى مصاباً بالطاعون خلال تلك السنين الطويلة، على حين كنت أعتقد أننى أناضل بكل ما فى وسعى ضد الطاعون، وعرفت أننى قد أسهمت بطريق غــير مباشر فى إعدام آلاف الأشخاص، بل وأننى قد تسببت فى موتهم عندما أقررت الفعال والمبادىء التى جرتهم حتما إلى حتفهم. أما الآخرون، فلم يكن يبدو عليهم الضيق لذلك، أو على الأقل لم يكونوا يتحدثون عنه أبدا من تلقاء أنفسهم. ولـكنى ــ أنا ــ أصبت بعقدة فى حلق، كنت معهم، ومع ذلك كنت وحدى .. ولما كان يحدث لى أن أعبر عما يقلق ضميرى، فقد كانوا يقولون لى: إنه ينبغى التفكير فيما هو موضع الفعل، ويدلون إلى بحجج ــ أخاذة فى غالب الأحيان ــ لـكى يجعلونى أزدرد ما أجد صعوبة فى ازدراده، ولـكنى كنت أجيبهم بأن كبار المصابين بالطاعون ــ هؤلاء الذين يلبسون «العباءات» الحمراء ــ يدلون هم أيضا بمثل تلك الحجج البديعة فى مثل هذه الحالات، وأننى إذا

قبلت قانون القوة القاهرة،وضروب الضرورة التى يذكرها صغار المصابين بالطاعون لم يعد فى إمكانى رفض حجج الكبار ، فكانوا يجيبوننى بأننا إنما نعتبر قابلين لطريقة ذوى العباءات الحمراء ، إذا تركنا لهم وحدهم حق إصدار أحكام الإعدام .

ولكننى كنت أقول حينئذ لنفسى : إننا لو سلمنا مرة واحدة لما كان هناك داع للتوقف بعد ذلك . ويخيل إلى أن التاريخ قد برهن على صواب رأيى،فهاهم أولاء الناس فى هذه الأيام يتسابقون فى القتل . إنهم جميعاً قد شعروا بحمى القتل ، وليس فى مقدورهم أن يفعلوا غير ذلك .

« وأياً ما كان فإن ما يشغلنى أنا لم يكن الإدلاء بالبراهين ، بل المغامرة القذرة حيث تغدو بعض الأفواه المصابة بالطاعون تعلن لرجل مصفد بالسلاسل أنه سوف يموت ، ويدبر كل شىء بحيث يموت حقيقة بعد ليال وليال من الاحتضار ينتظر خلالها أن يقتل وهو مفتوح العينين، إن ما يهمنى كان ذلك الثقب فى صدره . وكنت أقول فى نفسى : أما فيما يختص بى — وإلى أن يوجد حل لذلك — فإنه يجب على أن أمتنع عن أن أؤيد ، ولو مرة واحدة — واحدة فقط — تلك المجزرة الممجوجة ، نعم لقد اخترت هذا العمى المتعمد انتظارا لذلك اليوم الذى أرى فيه الأمور بمزيد من الوضوح .

« ومنذ تلك اللحظة لم يطرأ على أى تغيير، وقد مر على زمن طويل وأنا أشعر بالخجل ، الخجل المميت، لأنى كنت — كنت أنا الآخر قاتلا، ولو من بعيد ، ولو بحسن نية . وبمرور الوقت لاحظت ببساطة أنه حتى هؤلاء الذين كانوا خيرا من غيرهم أصبحوا اليوم يعجزون عن منع

أنفسهم من القتل أو من ترك غيرهم يقتلون ؛ لأن ذلك كان جزءا من المنطق الذي يعيشون فيه ، وأنه لا يمكننا القيام بأية إشارة في هذا العالم دون أن يكون فيها مجازفة بالدفع إلى القتل ، نعم لقد ظللت أشعر بالخجل من أننا جميعاً نعيش في الطاعون ، ومن ثم فقدت سلام النفس وطمأنينتها . هذا ما قد تعلمته ، وما زلت أبحث اليوم عن هذا السلام وتلك الطمأنينة محاولا أن أفهمهم جميعا وألا أكون العدو اللدود لأحد. وكل ما استطعت أن أعرفه هو أنه ينبغي لنا أن نعمل كل ما يمكن عمله حتى نكف عن أن نكون مصابين بالطاعون ، وأنه بهذا — بهذا فقط — يمكننا أن نأمل في السلام ، فإن لم يتيسر ذلك ، كان لنا أن نأمل في الموت الهادىء ، إن هذا هو ما يمكن أن يهدىء من روع الناس ، وإذا لم يكن في ذلك إنقاذ لهم ، فإنه يحد من الضرر الذي يلحق بهم وينزل به إلى أقل قدر ممكن ، بل وقد يسمح لهم ببعض الخير ، ولهذا قررت أن أرفض كل ما يسبب موت أحد من قريب أو بعيد ، وكل ما يبرره سواء أكان ذلك لأسباب وجيهة أم سخيفة .

« ولهذا أيضا لا يعلمني هذا الوباء شيئاً ، اللهم إلا وجوب مقاومته بجانبك . إنني أعلم علم اليقين — نعم يا ريو فأنا أعرف كل شيء عن الحياة كما ترى جيدا — أن كلينا يحمل الطاعون في جوفه لأنه لم يطعم ؛ نعم ، لم يطعم في هذا العالم بما يقيه من عدواه ، وأنه ينبغي لنا أن نلاحظ أنفسنا باستمرار حتى لا يحدث في لحظة سهو أن نتنفس في وجه أحد الأشخاص فنلصق به العدوى . فالأمر الطبيعي هو الميكروب ، أما ما عدا ذلك من صحة ونزاهة وطهارة ، فليست — إذا أردت — إلا أثرا من آثار الإرادة ، الإرادة التي ينبغي أن تتوقف لحظة واحدة . والرجل

الشريف — أى الذى لا يكاد ينقل العدوى لأحد — هو ذلك الذى يبذل ما فى جهده لكى لا يقع فى السهو . والمرء يحتاج لكثير من الإرادة والتوتر حتى لا يصاب بالسهو ، نعم يا ريو ، إنه أمر شاق أن يصاب المرء بالطاعون ، ولكن أشق منه أن يرفض المرء الإصابة به . ولذلك ترى المشقة الآن بادية على الجميع ؛ لأن الجميع فى يومنا هذا مصابون به إن قليلا وإن كثيرا . وهذا هو السبب فى أن بعض الناس الذين يرغبون فى الكف عن أن يكونوا مصابين به يقاسون أقصى درجات المشقة التى لم يعد يستطيع إخراجهم منها غير الموت .

« وإنى لأعلم — فى إنتظار هذه اللحظة — بأنى لم أعد أساوى شيئا بالنسبة لهذا العالم نفسه ، وأنى قد حكمت على نفسى بالمنفى المؤبد ابتداء من اللحظة التى عدلت فيها عن القتل ، وأن الآخرين هم الذين سيصنعون التاريخ . وليس فى وسعى أن أحكم — فيما يبدو — على هؤلاء الآخرين ، فهناك صفة تنقصنى لكى أكون قاتلا عاقلا . إن موقفى إذن ليس فيه شىء من التفوق ؛ ولكنى الآن راض بأن أكون أنا ، فقد تعلمت التواضع ، وكل ما أقوله هو أنه توجد على هذه الأرض أوبئة وضحايا وأنه ينبغى لنا أن نرفض — ما استطعنا إلى ذلك سبيلا — أن نكون فى صف الوباء . وهذا قد يبدو لك أمراً بسيطاً ، ولكنى أدرى أنه حق . ولقد سمعت الكثير من الحجج التى كادت تخدعنى ، والتى أفلحت فى خداع عدد كاف من الرءوس الأخرى ، وجعلتها تقبل القتل ، وعرفت الآن كل ما يصيب الناس من شقاء سببه أنهم لا يتكلمون كلاما واضحا ، ولذلك قررت أن أتكلم وأتصرف بوضوح ؛ لكى أبلغ طريق الجادة

ومن ثم أقول: إنه توجد أوبئة وضحايا ، ولا شيء غير ذلك. فإذا كنت أقول ذلك، ثم أصبحت — أنا نفسي — وباء، فلا أقل من أن يكون هذا على غير قبول مني ؛ ذلك أني أحاول أن أكون قاتلا بريئاً ، ومن هنا ترى أني لست بالكثير الطموح .

« ومما لا جدال فيه أنه ينبغي أن تكون هناك طائفة ثالثة ، طائفة الأطباء الحقيقيين ، ولكن الواقع أنهم قليلو العدد ، فلابد أن يكون ذلك أمراً عسيراً . ولذلك قررت أن أنضم إلى جانب الضحايا في كل مناسبة حتى أقلل من الخسائر ، إذ أني بين هذه الضحايا أستطيع — على الأقل — أن أبحث عن طريق للوصول إلى الطائفة الثالثة ، أي إلى السلام » .

وكان تارو — وهو يختتم كلامه — يطوح ساقه ويضرب الأرض بقدمه ضربا خفيفا . وبعد فترة صمت نهض الطبيب قليلا ، وسأل تارو عما إذا كانت لديه فكرة عن الطريق الذي ينبغي اتباعه للوصول إلى السلام ، فأجاب قائلا :

— نعم إنه التعاطف .

ورن من بعيد جرس عربتين من عربات الإسعاف ، وبالقرب من التل الحجري في أقصى المدينة كانت قد تجمعت الصيحات التي كانت منذ برهة غير واضحة ، وفي الوقت نفسه سمع شيء ما يشبه الفرقعة ، ثم عاد الصمت يخيم من جديد عليهما . ولاحظ ريو تتابع ومضتين من ومضات الفنار ، وبدت النسمات وكأنها قد اشتدت . وكان مصداق ذلك أن هبت في نفس اللحظة نسمة من البحر تحمل معها رائحة الملح ، وصار الرجلان

يسمعان الآن بوضوح صوت تكسر الموج على الشاطىء الضحل ، وقال تارو ببساطة :

ــ ومهما يكن من شيء ، فإن الذي يهمني هو معرفة الطريقة التي تجعل من الإنسان قديساً .

ــ ولكنك لا تؤمن بالله .

ــ بالضبط ، فإن المشكلة المشخصة الوحيدة التي تواجهني اليوم ، هي معرفة ما إذا كان من الممكن أن يكون هناك قديس دون إله . وفجأة انبثق نور كبير من الناحية التي صدرت منها الصرخات ، وقرعت آذانهما هتافات غامضة جاءت إليهما مع تيار الريح ، ثم أظلم النور فوراً ، ولم يبق من أثره سوى بعض الاحمرار فوق حافات الأسطح البعيدة . وتوقفت الرياح قليلا ، فتمكنا من سماع صرخات بشرية واضحة تلاها صوت طلقات داوية، ثم هتافات جمهرة من الناس ، ونهض تارو وأخذ يرهف أذنيه للإنصات . ثم لم يعودا يسمعان شيئاً . وقال تارو :

ــ لقد وقع أيضا بعض القتال عند أبواب المدينة .

وأجاب ريو :

ــ لقد انتهى الآن .

وتمتم تارو قائلا : إن الأمر لم ينته في يوم من الأيام، وإنه ستقع ضحايا جدد ، لأن هذه طبيعة الأشياء .

وأجاب الطبيب :

ــ ربما ، ولكنك تعرف أنني أشعر في نفسي بأني أقدر على

التضامن مع المهزومين منى مع القديسين ، فإنى على — ما أعتقد — أميل إلى البطولة والقداسة . كل ما يهمنى أن أكون إنسانا . ورد تارو بقوله :

— نعم ، فكلانا يبحث عن نفس الشيء ، ولكنى أقل منك طموحاً .

وظن ريو أن تارو كان يمزح ، ولكنه نظر إليه، فرأى تحت ذلك الضوء الخافت الذى كانت تبعث به السماء وجها حزينا صارما ، وهبت الريح من جديد، وشعر بها ريو دافئة على بشرته ، وانتفض تارو ، وهو يقول :

— أتعرف ماذا ينبغى لنا فعله لنبارك صداقتنا ؟

وقال ريو :

— كما تريد .

— أخذ حمام بحر . إن تلك متعة تستحق العناء حتى ، بالنسبة لمن سيصبح قديسا .

وابتسم ريو ، وقال :

— إن تصريحات المرور التى نحملها تخول لنا الذهاب إلى الشاطىء ، ومن الحمق ألا نعيش إلا فى الطاعون ، فمن الطبيعى أنه يجب على المرء أن يقاتل من أجل الضحايا ، ولكنه إذا ما كف عن حب أى شيء آخر خارج ذلك النطاق ، فما جدوى القتال ؟

وأجاب ريو :

— نعم ، لنذهب !

وما هى إلا لحظة حتى كانت السيارة تتوقف قرب أسوار الميناء . وكان القمر قد ارتفع وأخذت السماء الصافية تلق بالظلال الشاحبة على كل مكان،ومن خلفهما كانت تتدرج المدينة . وكانت تهب منها عليهما ريح ساخنة مريضة فتدفعهما إلى البحر دفعاً ، وأبرزا أوراقهما لأحد الحراس الذى ظل يفحصها مدة طويلة نسبيا . ومرا وسط رائحة النبيذ والسمك عبر كومة مغطاة بالبراميل،واتجها فى طريق الشاطىء ، وقبل أن يصلا إليه بقليل كانت رائحة اليود والأعشاب البحرية تعلن إليهما أنهما قد اقتربا منه، وما لبثا أن سمعا خرير مياهه .

كان البحر يرسل صفيراً هادئا عند أقدام كتل الحاجز الضخمة،وكان يبدو لهما — وهما ينحدران نحوه — سميك القوام كالمخمل مرناً ناعما كجسم الدابة ، واستقر بهما المقام فوق الصخور المتجهة نحو عرض البحر،وكانت المياه تعلو ثم تعود فتهبط ببطء . وكان البحر يتنفس بهدوء ، فينشأ عن ذلك ضوء زيتى على صفحة الماء ثم يعود فيختفى . وكان الليل أمامهما لا حدود له . وراح ريو يتحسس بأطراف أصابعه محيا الصخور المتآكلة ، ووجهه يطفح بالسعادة ،والتفت ناحية تارو ،فتبين فى وجه صديقه الهادىء الصارم نفس السعادة التى لا تنسى شيئا ، حتى ولا القتل . وخلعا ملابسهما، وكان ريو أول من ألقى بنفسه فى الماء الذى بدا باردا ولكنه كان يبدو لهما دافئا وهما يغادرانه ، وعرف ريو بعد بضع ضربات من ذراعيه أن البحر هذا المساء دافىء دفء بحار الخريف التى تمتص من الأرض الحرارة التى اختزنتها خلال شهور طويلة . كان يسبح سباحة منتظمة ، وكانت ضربات قدميه تترك خلفها زبداً يفور،وكأن الماء ينزلق على

امتداد ذراعيه لكى يلتصق بساقيه . ثم ما لبث أن وصل إلى سمعه صوت شىء ثقيل يسقط فى الماء عرف منه أن تارو قد ألقى بنفسه إلى البحر .
واستلقى ريو على ظهره، وظل ساكنا ووجهه نحو السماء المعكوسة أمام ناظريه، وقد غصت بالقمر والنجوم ثم أخذ نفساً عميقاً ،وبعد ذلك أخذ يسمع ضوضاء خبطات على الماء تزداد شيئاً فشيئاً، وتتميز بوضوح وسط سكون الليل ووحشته ، ذلك أن تارو كان يقترب منه ، وبعد قليل وصل إلى سمعه صوت أنفاسه ، والتفت ريو إليه فى غير وضعه حتى صار فى مستوى صديقه، وأخذ يسبح فى تناسق معه ، وكان تارو يتقدم بقوة تفوق قوته، فاضطر إلى أن يسرع الخطا ، وما هى إلا دقائق حتى كانا يسبحان — بنفس الوتيرة ونفس القوة — وحدهما بعيدين عن العالم، وقد تحررا أخيراً من المدينة ومن الطاعون ، وكان ريو أول من توقف ،وعادا أدراجهما ببطء لم يقطعاه إلا عندما دخلا منطقة تيار شديد البرودة . فحينئذ حثا سيرهما — هما الاثنان — دون أن ينبسا بكلمة ، وقد ألهبتهما سياط تلك المفاجأة البحرية .

وارتديا ملابسهما من جديد، وسارا دون أن يتفوها بكلمة ،ولكن كانا متحدى القلبين وكانت ذكرى هذه الليلة فى نفسيهما كلها حلاوة . ولما لاحت لها دورية الحراسة الخاصة بالوباء على بعد كان ريو يعرف أن تارو يقول فى نفسه نفس ما يقوله هو ، من أن المرض كان قد نسيهما هذه اللحظة ، وأن ذلك لم يكن إلا هين الخير ، وأن عليهما الآن أن يبدأ من جديد .

نعم ، ينبغي أن يبدأ من جديد ، فالطاعون لا ينسى أحداً لمدة طويلة ،وفي خلال شهر ديسمبر احتدمت نار الطاعون في صدور مواطنينا ، وأشعل أتونه ، وملأ المعسكرات بظلال خاوية الأيدى ، ولم يكف عن التقدم بمشيته الرتيبة وصبره الطويل ، وكانت السلطات تعتمد على الأيام الباردة لإيقاف هذا التقدم ، ومع ذلك فقد سار الطاعون خلال الأيام الأولى لموسم البرد القارس دون ملل أو كلال ، فكان علينا إذن أن نواصل الانتظار ، ولكن طول الانتظار يولد عدم الانتظار ، وهكذا كانت مدينتنا بأجمعها تعيش بلا مستقبل .

أما لحظة السلام والصداقة الخاطفة التي فاز بها الطبيب ، فقد كانت بلا غد. لقد افتتح مستشفى جديد، ولم يعد ريو يخلو إلا إلى المرضى ، ومع ذلك، فقد لاحظ في هذه المرحلة من مراحل الوباء ، حيث كان الطاعون يتحول إلى الشكل الرئوى يوماً بعد يوم بدا المرضى وقد أخذوا يعاونون الطبيب بصورة ما . فبدلا من أن يستسلموا إلى ضروب التخبط والحماقة التي عرفت عنهم في البداية ، ظهروا بمظهر من يفهمون مصلحتهم حق فهمها ، فقد راحوا هم أنفسهم يطلبون أن تطبق عليهم الإجراءات التي يمكن أن تعود عليهم بالفائدة. كانوا يطلبون شرب الماء دون انقطاع،

كما كانوا جميعاً يطلبون الدفء ، وبالرغم من أن الطبيب قد ظل مرهقا مكدودا فقد كان يشعر بأنه أصبح فى هذه الظروف أقل وحدة من ذى قبل .

ونحو نهاية شهر ديسمبر تسلم ريو من أوتون قاضى التحقيق الذى مابرح يعيش فى المعسكر خطابا يقول: إن مدته فى الحجر قد انقضت، ولكن إدارة المعسكر قد فقدت تاريخ دخوله ، ولذا فمن المؤكد أنهم لا يزالون يستبقونه خطأ فى معسكر الحجر . وقد قدمت زوجته التى خرجت منذ حين اعتراضا إلى المديرية ، ولكنها استقبلت استقبالا جافاً ، وقيل لها : إنه لا يمكن أن يقع خطأ ألبتة ، وطلب ريو من رامبير التدخل فى هذه المسألة. وما هى إلا بضعة أيام حتى رأى السيد أوتون قادماً نحوه ، فقد كان هناك فى الواقع خطأ ، وقد اغتاظ ريو لذلك بعض الشىء ، ولكن السيد أوتون الذى كان قد ازداد نحولا عن ذى قبل رفع إليه يدا رخوة وقال — وهو يلوك كلماته — : إن كل إنسان معرض للوقوع فى الخطأ ، ولاح للطبيب أن هناك شيئاً فيه كان قد تغير ، وقال :

— ماذا تنوى أن تفعل ياسيدى القاضى؟ إن ملفاتك فى انتظارك .

وأجاب القاضى :

— لا ، لا . إنى أريد أن أطلب أجازة .

— الواقع أنك فى حاجة إلى الراحة .

— ليس هذا هو السبب ، ولكنى أرغب فى العودة إلى المعسكر .

ودهش ريو لهذا الأمر وقال :

ــ ولكنك خارج منه الآن .

ــ لعلى لم أحسن التعبير عما أريد. لقد قيل لى : إن هناك متطوعين من الإدارة فى هذا المعسكر .

وأخذ القاضى يدير عينيه المستديرتين،وهو يحاول أن يسوى إحدى خصل شعره ، ثم واصل كلامه قائلا :

ــ على هذا النحو سأجد لى عملا يشغلنى كما ترى ، ثم بذلك ــ وقد يبدو لك هذا سخيفا ــ سوف أشعر أنى أقل بعداً عن ولدى الصغير .

وجعل ريو ينظر إليه . لم يكن من الممكن أن تحل الرقة فجأة فى هاتين العينين القاسيتين ، ولكنهما كانتا قد أظلمتا بعض الشيء،وفقدتا صفاءهما المعدنى .

وقال ريو :

ــ بكل تأكيد ، سوف أهتم بهذا الأمر ما دمت ترغب فيه .

ولقد اهتم الطبيب بذلك فعلا ، واستمرت الحياة فى مدينة الطاعون كما هى حتى عيد الميلاد ، وظل تارو يلف فى كل مكان يصحبه هدوءه الواقعى . وذات يوم أسر رامبير إلى الطبيب أنه استطاع أن يجد طريقة المراسلة مع زوجته عن طريق الحارسين الصغيرين.وأنه أصبح يتلقى منها الرسائل على فترات بعيده ، ثم عرض على ريو أن يستفيد هو الآخر من هذه الطريقة،وقبل ريو ذلك . وللمرة الأولى منذ أشهر طويلة كتب ريو ، ولكن بصعوبة لا حد لها ، فقد كانت لديه لغة ثم فقدها ، وسافر الخطاب،وتأخر وصول الرد . أما كوتار،فقد استمرت أحواله فى ازدهار

وصار غنياً بفضل مضارباته الصغيره ، وأما جران فإنه لم يكن سعيد الطالع خلال فترة الأعياد .

كان عيد الميلاد فى تلك السنة عيد الجحيم أكثر منه عيد الإنجيل ؛ فقد كانت الدكاكين خاوية ومحرومة من الأنوار ، و«الشوكولاته» إما زائفة وإما علبا فارغة من محتوياتها وضعت فى الواجهات الزجاجية . أما عربات الترام، فقد كانت تغص بالوجوه المظلمة، ولم يكن هناك شىء يذكرنا بأعياد الميلاد السابقة ؛ فى هذا العيد الذى كان يتقارب فيه الجميع — من غنى وفقير فيما سلف — لم يعد هناك مكان إلا لبعض المتع الفردية المشينة التى كان المحظوظون يحصلون عليها بسعر الذهب فى القسم الخلفى من دكان قذر . كانت الكنائس مليئة بالأنات لا بصلوات الشكر . أما شوارع المدينة القاتمة الباردة فكان يجرى فيها بعض الأطفال وهم فى جهل بما يهددهم، ولكن لم يكن أحد ليجرؤ على أن يعلن إليهم قدوم رب السنين السالفة المحمل بالهدايا، والذى هو قديم قدم الآلام البشرية، ولكنه جديد جدة الأمل الشاب . لم يعد هناك مكان فى قلوب الناس إلا لأمل شيخ متوغل فى الشيخوخة مفرط فى الوجوم ، وهو ذلك الأمل الذى كان يمنع الناس من أن يلقوا بأنفسهم إلى الموت، والذى لم يكن سوى مجرد تصميم على الحياة .

وفى ليلة العيد لم يحضر جران فى الموعد المحدد ، وقلق ريو من أجله فمر بمنزله فى الصباح المبكر ولم يجده ، وعم القلق الجميع ، وفى حوالى الساعة الحادية عشرة حضر رامبير إلى المستشفى ليخبر ريو بأنه شاهد جران من بعيد يطوف فى الشوارع، وقد تغيرت ملامح وجهه ، ثم ما لبث

أن حاد عن بصره ، واستقل الطبيب السيارة وبرفقته تارو ، وذهبا معاً للبحث عنه .

وفى ساعة الظهيرة القارسة البرد نزل ريو من سيارته ليرى جران من بعيد وهو يكاد يلتصق بإحدى الواجهات الزجاجية المليئة باللعب المحفورة فى الخشب حفرا رديئاً . كانت الدموع تسيل على وجه ذلك الموظف المجوز دون توقف . واضطرب ريو لرؤية هذه الدموع، لأنه كان يفهمها ويحسها فى تجويف حلقه ، وعاد بذاكرته هو الآخر إلى يوم خطبة هذا التعس ، عاد بذاكرته أمام أحد الحوانيت فى يوم من أيام عيد الميلاد ، وإلى چان وقد ارتمت عليه لتقول له : إنها سعيدة . فمن أغوار السنوات البعيدة حيث صميم تلك المغامرة كان صوت چان النضر قد عاد إلى جران، وهذا مما لاشك فيه . نعم لقد كان ريو يعرف مايجول بخاطر ذلك الرجل الهرم الباكى ، وكان مثله يفكر فى أن هذا العالم الخالى من الحب أشبه شىء بعالم ميت ، وأنه لابد من أن تمر بنا ساعة نمل فيها السجن والعمل والشجاعة ، ونسترجع فيهـــا وجهاً حبيباً إلينا . قلباً مبهوراً يفيض بالحنان .

ولكن جران لمحه فى المرآة ،فاستدار إليه دون أن يكف عن النشيج وأسند ظهره على الزجاج لينظر إليه وهو يتقدم نحوه ، وأخذ يردد :

— آه يا دكتور ! آه يا دكتور !

وراح ريو يهز رأسه موافقا ، لأنه عجز عن الكلام .

ذلك أن هذا الحزن كان حزنه هو أيضاً ، وذلك الذى كان يعصر قلبه فى تلك اللحظة لم يكن إلا الغضب الهائل الذى يجتاح الإنسان أيام الألم الذى يتقاسمه الناس جميعاً ، وأخيراً قال له :

ــ نعم يا جران . وواصل جران كلامه قائلا :

ــ أتمنى أن أجد الوقت الذى أستطيع فيه أن أكتب لها خطاباً لكى تعرف .. حتى تستطيع أن تكون سعيدة دون أن يعذبها تأنيب الضمير .

وبنوع من العنف أخذ ريو يدفع جران أمامه ، واستجاب جران لدفعه، وترك له تقريبا زمام أمره،وهو يتمتم بأطراف جمل،ويقول:

ــ منذ مدة طويلة جدا وأنا أعانى هذا الألم . بودى أن أستسلم ، لابد من ذلك . آه يا دكتور ! يبدو على الاطمئنان على النحو الذى تراه، ولكنى كنت أبذل أقصى مجهود لمجرد أن أبدو طبيعياً . أما الآن ، فلقد بلغ السيل الزبى .

ثم توقف، وقد ارتفعت جميع جوارحه ،وزاغت عيناه .

وأمسك ريو بيده . لقد كانت ملتهبة . ثم قال :

ــ ينبغى أن نعود إلى البيت .

ولكن جران أفلت منه وعدا بضع خطوات، ثم توقف وأخذ يترنح إلى الأمام وإلى الخلف، ويدور حول نفسه، ثم سقط على الإفريز، وقد صار جسمه فى برودة الثلج، واتسخ وجهه بتأثير الدموع التى استمر انهمارها . وكان المارة يراقبون المشهد من بعيد، وقد توقفوا فجأة دون أن يجرؤ

أحدهم على الاقتراب . واضطر ريو إلى أن يأخذ الرجل الهرم بين ذراعيه .

وأصبح جران هو الآخر طريح الفراش يكاد يختنق فيه : لقد التقطت رئتاه العدوى . واستغرق ريو فى التفكير، وراح يقول فى نفسه : إن هذا الموظف لا عائلة له ، فما فائدة نقله ؟ سوف أقوم بعلاجه هنا أنا وتارو .

وكان جران يرى غائصاً فى تجويف وسادته وقد اخضر لون بشرته ، وانطفأ بريق عينيه ، وأخذ يحدق النظر فى النار الصغيرة التى أشعلها تارو فى المدفأة ببقايا أحد الصناديق القديمة، وقال : إن الحالة سيئة .

وكان ينبعث من أعماق رئتيه الملتهبتين نوع غريب من الأزيز يرافق كل ما يقول ، ونصحه ريو بأن يلوذ بالصمت، ثم هم بالخروج قائلا : إنه سوف يعود . ولاحت ابتسامة غريبة على وجه المريض ممزوجة بنوع من الحنان،وافترت شفتاه بعد مجهود كبير، ثم غمز بعينه، وقال: « لو خرجت من ذلك سالما لكان علينا أن نرفع قبعاتنا احتراما يا دكتور » ولكنه لم يكد يقول ذلك حتى خارت قواه .

وبعد بضع ساعات أقبل ريو وتارو، فألفيا المريض جالساً نصف جلسة فى سريره . وارتاع ريو لما قرأ على وجهه من تقدم المرض الذى كان يحرقه حرقاً ، ومع ذلك فقد كان يبدو أكثر صفاء من ذى قبل ،ولم يكد يلمحهما حتى نطق بصوت فيه عمق غريب يرجوهما أن يحضرا له المخطوط الذى كان قد وضعه فى أحد الأدراج ، وناوله تارو الأوراق فضمها

إليه دون أن ينظر إليها، ثم أعادها إلى الطبيب وهو يدعوه بحركة منه إلى قراءتها . كان مخطوطاً صغيرا فى نحو خمسين صفحة ، وتصفح الطبيب هذه الأوراق ، فوجد أنها لا تنطوى إلا على جملة واحدة ، قد أعيدت كتابتها مرات لاحصر لها ، كانت تعدل، وتارة يزاد عليها، وتارة أخرى يحذف منها . وباستمرار كانت الفارسة وممرات الغابة تتلاقيان بأساليب مختلفة ، وكانت المخطوطة تحوى — فضلا عن ذلك — بعض الشروح التى كان بعضها يطول طولا غير مناسب، وكذلك بعض الفقرات المعادة كتابتها بصور مختلفة ، وقد كتب جران فى نهاية الصفحة الأخيرة بخط معتنى به وبحبر حديث هذه الجملة : « عزيزتى چان ، إن اليوم يوم عيد الميلاد » . وفوق ذلك سطر بخط جميل آخر نسخة من جملته .

وقال جران « إقرأ » وقرأ ريو :

« فى يوم جميل من أيام مايو كانت فارسة جميلة تمتطى صهوة جواد أشهب رائع، وتجوب ممرات الغابة وسط الزهور » . وقال العجوز بصوت تصارعه الحمى :

— هل هو هذا ؟

ولم يرفع ريو عينيه نحوه .

وقال جران وقد بلغ به الاضطراب كل مبلغ : « إنى أعرف جيدا أن « جميلة » ليست هى الكلمة المناسبة .

وأمسك ريو بيده من فوق الغطاء ، فقال :

— اتركنى يا دكتور ، لم يعد أمامى وقت كاف . .

وأخذ صدره يعلو بصعوبة وفجأة صرخ قائلا :

ـــ أحرقه .

وتردد الطبيب ، ولكن جران كرر أمره بلهجة صارمة وبصوت ينم عن ألم هائل . فاضطر ريو إلى أن يلقى بالأوراق فى النار التى كانت فى سبيل الخمود وبسرعة عاد الضوء إلى الغرفة، وانتشرت فيها حرارة عابرة . ولما عاد الطبيب إلى المريض كان هذا الأخير يدير له ظهره ووجهه يكاد يلامس الجدار . وأخذ تارو ينظر من النافذة ، كما لو كان المشهد لا يهمه . وبعد أن حقنه ريو بالمصل قال لصديقه : إن هذه الليلة لن تنقضى على جران وهو حى ، فعرض تارو أن يظل بجواره ، ووافق الطبيب على ذلك .

وظلت فكرة موت جران تلاحقه طوال الليل . ولكن لم يكد صباح اليوم التالى يبزغ حتى رأى ريو جران جالساً فى فراشه يتحدث إلى تارو ، لقد انقشعت الحمى، ولم يبق عليه من علائم المرض إلا الإجهاد العام .

فقال له الموظف الهرم :

ـــ آه يا دكتور ، لقد أخطأت ، ولكنى سأبدأ من جديد .

إنى ما زلت أذكر كل شىء ، وسوف ترى ذلك .

وقال ريو لتارو :

ـــ لننتظر .

ولكن الظهر أقبل ولم يتغير شىء . . وفى المساء كان من الممكن اعتبار جران قد جاوز نطاق الخطر، ولم يستطع ريو تعليل هذا البعث.

وفى هذه الفترة ذاتها — تقريباً — أحضرت إلى ريو مريضة رأى أن حالتها تدعو إلى اليأس، ولذا أمر بعزلها فور وصولها المستشفى. كانت الفتاة تهذى فى غيبوبتها، وقد ظهرت عليها كل أعراض الطاعون الرئوى. ولكن فى صباح اليوم التالى كانت الحمى قد انخفضت، وظن الدكتور أن هذه هى فترة الانتعاش الصباحى، كما حدث فى حالة جران، وكانت التجارب قد علمته أن هذا الانتعاش يعتبر نذيراً سيئاً، ومع ذلك ففى وقت الظهيرة لم تعد الحرارة إلى الارتفاع من جديد، وفى المساء لم تزد سوى بضعة خطوط قليلة فقط، وفى صباح اليوم التالى كانت قد اختفت. وراحت الفتاة، رغم الضعف البادى عليها تتنفس براحة فى سريرها. وقال ريو لتارو: إنها نجت خلافاً لكل القواعد، ومع ذلك ففى خلال هذا الأسبوع وردت أربع حالات مماثلة إلى المستشفى التى يعمل بها الدكتور ريو.

وفى نهاية الأسبوع نفسه استقبل الرجل الهرم المريض بالربو الطبيب وتارو بكل مظاهر الاضطراب الشديد، وهو يقول:

— لقد انتهى الأمر، إنها ما زالت تخرج.

— من؟

— ومن تكون غير الفئران!

ومنذ بدأ شهر أبريل لم يكتشف أحد وجود فأر نافق.

وقال تارو لريو:

— هل معنى هذا أننا سنبدأ من جديد؟

وأخذ الرجل الهرم يفرك يديه وهو يقول :

— ينبغى أن تراها تجرى ! إنه منظر سار .

لقد رأى فارين حيين يدخلان عنده من باب المنزل ، وأخبره بعض جيرانه أن هذه الحيوانات قد عادت للظهور فى منازلهم ، وفى بعض مخازن الأخشاب بدأ الناس يسمعون حركتها بعد أن كانوا قد نسوها منذ أشهر ، وانتظر ريو إعلان الإحصاء العام الذى يتم فى بداية كل أسبوع ، وقد كشف هذا الإحصاء عن تراجع المرض .

وبالرغم من أن مواطنينا لم يكونوا يأملون فى هذا التراجع المفاجىء المرض، فإنهم لم يندفعوا إلى الابتهاج ؛ ذلك أن الأشهر المنصرمة، وإن كانت قد قوت فيهم الرغبة فى التحرر، فإنها علمتهم الحذر، وعودتهم على مر الأيام ألا يعولوا كثيراً على نهاية قريبة للوباء، ومع ذلك فإن هذا الحدث الجديد كان حديث الناس جميعاً، وقد تولد فى أعماق القلوب أمل كبير راح ينبض فيها دون أن يعلن عنه أحد.

أما ماعدا ذلك من أمور، فقد تراجع إلى الدرجة الثانية من الأهمية. وأما ضحايا الوباء الجدد، فقد قلت قيمتهم أمام هذا الحدث البالغ ؛ لقد هبطت الإحصائيات. وكان من بين العلامات الدالة على توقع الناس عودة عهد الصحة — وإن لم يعلقوا على ذلك آمالا صريحة — أن مواطنينا كانوا قد أخذوا منذ تلك اللحظة يتحدثون بحرية، يشوبها مع ذلك شيء من عدم الاكتراث، عن الطريقة التى سوف يعاد بها تنظيم الحياة بعد الطاعون.

كان الجميع متفقون على أن متع الحياة القديمة لن تعود كلها طفرة واحدة؛ لأن الهدم أسهل من البناء. كانوا يرون أنه من الممكن أن يتحسن التموين ذاته، وكان من شأن هذا التحسن أن يخلصهم من أكثر مشاغلهم إلحاحاً، ولكن الواقع أنه كان وراء هذه الملاحظات المسكنة

أمل جامح انطلق من عقاله فجأة،حتى أن مواطنينا كانوا فى بعض الأحيان يتنبهون من ذات أنفسهم إلى هذا الغلو ، فيسارعون إلى التأكيد بأنه مهما كانت الحال ، فإن الخلاص لن يكون فى اليوم التالى .

وفى الواقع لم يتوقف الطاعون فى اليوم التالى،ولكن كان من الواضح أنه يضعف بأسرع مما كانوا يأملون . وقد طغى البرد فى الأيام الأولى من يناير بشكل ملح لم يتعوده الناس من قبل ، كما لو كان قد تبلور فى سماء المدينة ، ومع ذلك لم يحدث قط أن كانت السماء أكثر زرقة مما كانت فى هذه الأيام . كان جمالها الثلجى الجامد يغرق مدينتنا أياماً بطولها فى ضوء لا ينقطع ، وفى هذا الجو النقى المصفى ، استمر الطاعون ثلاثة أسابيع، يلاقى الكبوة بعد الكبوة،وكان كأنه ينزف قواه فى صفوف الجثث التى كان يرصها، والتى أخذ عددها فى التناقص شيئاً فشيئاً . وفى مدة وجيزة فقد الجانب الأكبر من قواه التى كان قد ظل يعبئها شهوراً طويلة وكان يرى الضحايا تتفلت من قبضته مثل جران ومريضة ريو ، أو وهو يستشرى لمدة يومين أو ثلاثة فى بعض الأحياء ، فى حين يختفى اختفاء تاما من أحياء أخرى ، أو وهو يضاعف عدد ضحاياه يوم الاثنين ثم يراها تفلت منه جميعاً تقريبا يوم الأربعاء . كان الناس يرونه على هذا النحو لاهثاً أو مندفعاً،فلا يسعهم الاقتناع بأن الوباء يتفكك لتوتر أعصابه، أو لإنهاك قواه ، وأنه إذا بدأ يفقد سيطرته على نفسه راح فى نفس الوقت يفقد نظامه الرياضى الناجح الذى كان السبب فى قوته .

ولاقى مصل كاستل — فجأة — سلسلة من النجاح كان الوباء قد ضن بها

عليه حتى الآن ، وبدا أن كل إجراء من تلك الإجراءات التى كانت من قبل لا تؤدى إلى نتيجة قد صار الآن يصيب هدفه بكل دقة . كان واضحا أن الطاعون قد أصبح بدوره مطارداً ، وأن ضعفه المفاجىء كان السبب فى قوة الأسلحة المفلولة التى كانت توجه إليه حتى الآن ، ولكنه كان من حين لآخر يستعيد شيئاً من أوته فيودى — فيما يشبه القفزات العشواء — بثلاثة أو بأربعة من المرضى الذين كان شفاؤهم مأمولا . كان هؤلاء هم التعساء الذين قتلهم الطاعون والأمل يحيط بهم ، وكان من هؤلاء القاضى أوتون الذى اضطر القوم إلى إخراجه من معسكر الحجر الصحى، وقد قال عنه تارو: إنه فى الواقع كان سىء الحظ، ولا ندرى ما إذا كان يعنى بذلك موت القاضى أم حياته .

ومهما يكن من شىء ، فقد أخذت العدوى تتراجع على طول الخط ، أما بلاغات الإدارة التى كانت تثير فى أول الأمر أملا خفياً يتعثر خجلا، فقد انتهت بأن أكدت فى ذهن الجماهير الاعتقاد بأن النصر قد أصبح مضمونا ، وأن المرض أخذ يخلى مراكزه، ولقد كان الأمر يتعلق بانتصار حقيق . وعلى أية حال كان الناس مضطرين إلى الاقتصار على القول بأن المرض يبدو كما لو كان قد رحل إلى حيث أتى ، ولم تكن خطة المقاومة التى رسمت له منذ البداية قد تغيرت ، ولكنها أصبحت الآن ناجحة بعد أن كانت بالأمس غير ذات جدوى ، كان يخيل إلى الناس أن المرض قد خارت قواه من تلقاء نفسه، أو أنه أخذ يتراجع بعد أن حقق كل أهدافه ، إن مهمته كانت قد انتهت بشكل ما .

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يظن بأنه لم يتغير شىء فى المدينة.

فقد ظلت ساكنة بالنهار ، أما فى المساء ، فكانت الشوارع تغص بالجموع ذاتها التى تسود فيها المعاطف والتلافيح ، وأما دور السينما والمقاهى، فقد ظلت على حالها . هكذا كنا كلما نظرنا إلى الأمور من قرب أمكننا أن نلاحظ أن الوجوه قد زال عنها الانقباض بعض الشىء وأنها تبتسم أحياناً ، وبهذه المناسبة كان الناس يلاحظون أنه لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يبتسم فى الطرقات ؛ فلقد حدث فى الواقع بعض التمزق فى الحجاب الكثيف الذى كان يحيط بالمدينة منذ أشهر ، وأصبح كل منا يستطيع فى أيام أن يلاحظ من أخبار الراديو أن التمزق يزداد اتساعاً ؛ وأن الناس سوف يتمكنون أخيراً من التنفس . نعم لقد كان كل ذلك فرحاً سلبياً لم يأخذ بعد شكله الصريح ، ولكن إذا كان الناس من قبل يسمعون بأن قطاراً قد غادر المدينة ، أو أن سفينة قد وصلت ، أو أن السيارات سوف يسمح لها من جديد بالمسير ، ارتابوا فى صدق الخبر ، فإن إعلان مثل هذه الأنباء حوالى منتصف شهر يناير لم يكن على النقيض من ذلك ليحدث أية دهشة . لا شك أن هذا التغير ليس بالكثير ، ولكنه مهما كان طفيفاً فى صورته العامة كان يدل دلالة واضحة على التقدم الضخم الذى أحرزه مواطنونا فى طريق الأمل ؛ ذلك أنه ابتداء من هذه اللحظة أصبح أضعف الآمال محتمل التحقق بالنسبة للسكان ، ومن ثم يمكننا القول بأن العهد الفعلى للطاعون كان قد انتهى .

ومع ذلك، فقد ظل رد فعل مواطنينا طيلة شهر يناير متناقضا ، فكانوا يتنقلون بين حالتى الانتقاض والانهيار . ولذلك كنا نرى حدوث محاولات جديدة للهرب فى الوقت الذى كانت فيه الإحصاءات قد وصلت إلى أحسن

سورها ، وكان هذا مما يدهش السلطات ومراكز الحراسة ذاتها ؛ إذ أن أغلب حالات الهرب كانت قد نجحت . ولكن الحقيقة أن أولئك الذين كانوا يهربون فى هذه الأوقات كانوا ينزلون على حكم إحساس طبيعى؛ فإن الطاعون قد زرع فى نفوس البعض شكا عميقا لم يستطيعوا منه خلاصاً، ولم يعد للأمل أى سلطان على نفوسهم . وفى الوقت الذى انصرم فيه زمن الطاعون ظل هؤلاء يعيشون نفس الحياة التى كان قد عودهم عليها الطاعون . لقد كانوا متأخرين فى متابعة مجرى الأحداث ، وعلى العكس من ذلك كانت الحال لدى البعض الآخر ، وجلهم كانوا من أولئك الذين عاشوا حتى الآن بعيدين عن الأشخاص الذين يحبونهم ، فإن ريح الأمل التى هبت عليهم بعد هذا الوقت الطويل من الحبس والانهيار قد أشعلت فيهم من الحمى وعدم الصبر ما انتزع منهم كل سيطرة على أنفسهم . فقد استولى على هؤلاء نوع من الذعر حين فكروا أنهم — وقد أصبحوا قاب قوسين من غايتهم — قد يموتون دون أن يروا أولئك الذين يحبونهم وبذلك تذهب كل الآلام الطويلة التى تحملوها هباء . فبينما هم قد ثابروا وصبروا شهوراً طويلة وقاوموا السجن والنفى بنوع من التصميم الغامض نرى أن أول أمل لاح كان كافيا لتحطيم ما لم يستطع الخوف واليأس تحطيمه ، وهكذا اندفعوا كالمجانين يريدون أن يسبقوا الطاعون بدلا من اتباع خطاه حتى اللحظة الأخيرة .

وأيا ما كان ، فقد ظهرت فى نفس الوقت بعض علامات التفاؤل المفاجئة . فقد سجل انخفاض محسوس فى الأسعار ، وكان هذا حدثا لا يمكن تفسيره من الناحية الاقتصادية الخالصة ، ذلك أن الصعوبات

كانت قد ظلت كما هى ، واستمرت إجراءات الحجر الصحى سارية عند الأبواب كما بقيت حالة التموين بعيدة عن التحسن . لقد كنا نمر إذن بظاهرة معنوية خالصة كما لو كان لتراجع الطاعون صدى يتردد فى كل مكان. وفى الوقت ذاته أدرك التفاؤل أولئك الذين كانوا يعيشون من قبل مجتمعين، ثم قضى عليهم الطاعون بالافتراق. وهكذا بدأ الديران المقامان فى المدينة فى إعادة تنظيمهما ، واستطاعت الحياة المشتركة أن تعود إلى مجاريها ، وهذا ما حدث أيضا بالنسبة للعسكريين بحيث تم تجميعهم من جديد فى الشكنات التى كانت قد ظلت حتى الآن خاوية ، وهناك استأنفوا من جديد حياة الشكنات العادية . ولقد كان لهذين الحدثين الصغيرين مغزى كبير .

عاش السكان فى هذا الاضطراب الخفى حتى الخامس والعشرين من يناير ، وفى ذلك الأسبوع انخفضت الإحصائيات انخفاضاً شديداً لدرجة أن الإدارة أعلنت بعد استشارة اللجنة الطبية ، أنه يمكن أن يعتبر الوباء شبه منته . نعم ، لقد أضاف البلاغ أنه من باب الحذر الذى لن يعدم السكان أن يوافقوا على مقتضياته ، تقرر البلدية أن أبواب المدينة ستظل مغلقة لمدة أسبوعين آخرين ، وأن الإجراءات الوقائية ستظل سارية المفعول لمدة شهر آخر . وخلال تلك الفترة — وإذا ظهرت فى هذه الأثناء أية إشارة تدل على عودة الوباء — فإن حالة الطوارىء ستظل باقية، وتمد الإجراءات إلى ما بعد المدة المقررة فى البلاغ » . ولكن الناس كانوا كلهم مجمعين على اعتبار هذه الإضافات ضربا من الروتين البحت . وفى مساء اليوم الخامس والعشرين من يناير كانت شوارع المدينة تمتلىء

بالمرج الذى مبعثه البهجة ، وأراد المدير أن يشارك الناس فى فرحهم ، فأصدر أمره بإعادة الإضاءة إلى ما كانت عليه أيام الصحة . وهكذا راح مواطنونا يتدفقون فى جماعات صاخبة ضاحكة فى الشوارع المتلألئة بالأنوار .

ومن المؤكد أنه كانت هناك بيوت كثيرة ظلت نوافذها الخشبية مغلقة ، كما لو كانت هناك أسر قضت فى صمت تلك السهرة التى ملأها آخرون بالضجيج . ومع ذلك فإن الكثيرين من هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى حداد كانوا فى حالة ارتياح عميق ، إما لأن خوفهم من فقد أقارب جدد قد هدأ ، وإما لأنهم هم أنفسهم لم يعودوا فى خطر، ولكن الأسر التى ظلت أكثر من غيرها بعداً عن البهجة العامة كانت دون شك تلك التى تضم فى هذه اللحظة مريضا ما زال يناضل الطاعون فى أحد المستشفيات ، أو تنتظر — إما فى بيوت الحجر الصحى، أو فى منازلها — أن يزول عنها الوباء كما زال عن غيرها . لاشك أن هذه الأسر كانت تشعر بشىء من الأمل، ولكنها كانت تجعل منه زاداً تحتفظ به لوقت الحاجة ، وتمتنع عن أن تنهل منه قبل أن يصير لها فعلا هذا الحق ، وكان هذا الانتظار ، هذه السهرة الصامتة فى منتصف المسافة بين الاحتضار والفرح تبدو لهم أشد قسوة وسط الابتهاج العام .

ولكن هذه الحالات الاستثنائية لم تكن لتذهب بشىء من رضا الآخرين ، وأغلب الظن أن الطاعون لم يكن قد انتهى بعد ، وقد قام هو نفسه بتقديم الدليل على ذلك .

ولكن جميع هذه الأذهان التى تعجلت الأمر بضعة أسابيع كانت

ترى القطارات تسافر مرسلة صفيرها فى طرق لانهاية لها ، والسفن ترسم خطوط سيرها على سطوح بحار مشرقة ، وفى اليوم التالى كان لابد لهذه الأذهان أن تزداد هدوءاً ، أو أن تقع فريسة للشك من جديد.

ولكن المدينة كانت فى الوقت الحاضر فى هرج ، فغادرت تلك الأماكن المغلقة المظلمة الجامدة التى أنشبت فيها جذورها الحجرية ، وأخذت تسير حاملة ما تبقى لها من أحياء . وفى هذا المساء أخذ تارو وريو ورامبير والآخرون يسيرون وسط الجماهير ، وكانوا يشعرون هم أيضاً بالأرض وكأنها تميد تحت أقدامهم ، وبعد أن غادر تارو وريو الشوارع الكبيرة بمسافة بعيدة ، كانا لا يزالان يسمعان هذه البهجة تلاحقهم فى نفس اللحظة التى كانا فيها يمران فى شوارع مقفرة تحت نوافذ خشبية مغلقة . ولم يكن فى وسعهما — وربما كان ذلك بسبب ما يشعران به من تعب — فصل هذه الآلام التى ما برحت قائمة خلف النوافذ الخشبية المغلقة عن تلك البهجة التى كانت تملأ الشوارع على بعد ليس بالكبير . إن الخلاص المقترب كان ذا وجه تختلط فيه الضحكات بالدموع .

وفى اللحظة التى بلغ فيها الضجيج أقصى مداه وأبهى درجاته توقف تارو ؛ فقد رأى هناك شبحا يجرى بخفة وسط الشارع المعتم ، وكان شبح قطة ، أول قطة ترى منذ الربيع ، وقد توقفت القطة لحظة وسط الشارع ، وبدا عليها التردد وراحت تلعق قدمها ولمست بها بخفة على أذنها اليمنى ، ثم عادت إلى سيرها الصامت ، واختفت فى ظلمة الليل ، وابتسم تارو ، ومن المحتمل أن يكون الهرم القصير قد سر هو الآخر لهذا المنظر .

ولكن فى اللحظة التى بدا فيها أن الطاعون يبتعد ليعود أدراجه إلى الجحر المجهول الذى خرج منه فى صمت، كان هناك شخص فى المدينة يشيع هذا الرحيل بالوجوم . ولم يكن هذا الشخص إلا كوتار كما تقول مفكرة تارو .

والحقيقة أن هذه المفكرة تتسم بالغرابة منذ اللحظة التى بدأت فيها الإحصائيات فى الهبوط . فهل يرجع السبب فى ذلك إلى التعب ؟ لقد صار خطها لا يقرأ إلا بصعوبة ، وكثيراً ما تقفز من موضوع إلى آخر . هذا إلى أن تلك المفكرة أضحت لأول مرة بعيدة عن الموضوعية التى استعاضت عنها بالملاحظات الشخصية . وهكذا ترانا إذ نقرأ فقرات طويلة عن حالة كوتار ، نعثر فى وسطها على تقرير صغير عن الرجل الهرم صديق القطط . ويعترف تارو نفسه بأن الطاعون لم يقلل من اعتباره لهذه الشخصية التى استمرت تهمه بعد الوباء كما كانت تهمه من قبل ، وإن لم يصبح من الممكن — لسوء الحظ — أن يتابع هذا الاهتمام رغم أن استعداده الطيب لمتابعته لم يكن له دخل فى ذلك . ذلك لأنه قد سعى فعلا لرؤيته ، فلم تمض بضعة أيام على سهرة الخامس والعشرين من يناير حتى كان قد وقف فى ركن الشارع الصغير ، وكانت القطط هنالك تصطلى فى تلك الرقع الصغيرة من الشمس التى حافظت على اتخاذها مكاناً لموعدها ، ولكن

حانت الساعة المعهودة وظلت النوافذ الخشبية مغلقة فى إصرار ، وبعد ذلك تعاقبت الأيام دون أن يراها تارو تفتح مطلقاً ،واستنتج من ذلك بصورة غريبة أنه لا بد أن يكون العجوز الضئيل الجسم معتل المزاج، أو أن يكون قد مات . وأنه إذا كان معتل المزاج فذلك لأنه كان يرى أنه على حق وأن الطاعون قد كذب رأيه . أما إذا كان قد مات ، فلابد من التساؤل فى هذه الحالة — كما فى حالة العجوز المريض بالربو — عما إذا لم يكن قديساً . ولم يكن تارو يظن أنه قديس ،ولكنه كان يرى فى حالة العجوز « دلالة ما » فتقول المفكرة:إنه « قد لا يكون هناك إلا صورة تقريبية من القداسة . وفى هذه الحالة ينبغى أن نكتفى بنوع متواضع خير من الشيطانية » .

ونجد كذلك فى المفكرة ملاحظات أخرى عديدة،مبعثرة فى غالب الأحيان — بعضها عن جران الذى يقضى الآن فترة النقاهة بعد أن عاد إلى عمله كما لو لم يكن قد حدث شىء ،وبعضها يدور حول أم الدكتور ريو ، ولكنها جميعاً مختلطة بملاحظاته عن كوتار . فلقد دون تارو فيها بعناية شديدة: بعض المحادثات التى سمح له الاشتراك فى المسكن تبادلها مع السيدة ريو ، كما تكلم عن حركات هذه السيدة العجوز وابتساماتها وملاحظاتها الخاصة بالطاعون ، ويهتم تارو اهتماما خاصاً بتلاشى شخصية السيدة ريو، وبطريقتها فى التعبير عن كل شىء بجمل بسيطة ،وبالميل الخاص الذى كانت تظهره نحو نافذة معينة تطل على الشارع الهادىء حيث كانت تجلس خلفها فى المساء مستقيمة القامة بعض الشىء،ساكنة اليدين متيقظة النظرات ، وتظل كذلك حتى يسود الغروب الغرفة ، ويحيلها إلى

ظل أسود وسط الضوء القاتم الذي تزداد حلكته شيئاً فشيئاً حتى يذوب فيها ذلك الظل الجامد . كما تهتم المفكرة أيضاً بخفة حركتها في التنقل من حجرة لأخرى ، وبطيبة قلبها التي لم تقدم عنها أي دليل واضح أمام تارو ، ولكنه كان يلمح وميضها في كل ما تقوم به من عمل وكل ما تفوه به من قول ، وتقول المفكرة إنها — في رأيه — كانت تعرف كل شيء دون تفكير وأنها — رغم كل ما كان يحيطها من صمت وظل — كانت تستطيع الصمود في مستوى أي ضوء حتى ولو كان ضوء الطاعون ، وهنا يأخذ خط تارو يبين عن اختلال غريب . هذا إلى أن السطور التي تتلو ذلك قد أصبحت صعبة القراءة . وكأن تارو يريد أن يقدم لنا دليلا جديداً على هذا الاختلال ، فجعل الكلمات الأخيرة من هذه السطور أولى الكلمات التي يتحدث فيها عن شخصه ، إذ يقول :

« هكذا كانت أمي ، كنت أحب فيها هذا التلاشي نفسه ، وهي التي كنت أحب دائما أن ألحق بها . ولا يمكنني — منذ ثماني سنوات — أن أقول : إنها قد ماتت ، ولكنها قد تلاشت أكثر من المعتاد ، وعندما عدت لم تكن هناك » .

ولكن ينبغي أن نعود إلى كونار ؛ فمنذ أن هبطت الإحصائيات ازدادت زياراته لريو ، وكان يبدي لذلك مختلف الحجج ، ولكن الحقيقة أنه كان كلما زاره طلب منه بعض التكهنات عن سير الوباء ، فيقول مثلا : « أتظن أنه من الممكن أن يتوقف هكذا دفعة واحدة دون إرهاص ؟ لقد كان في شك من هذه النقطة ، أو على الأقل هذا ما كان يصرح به ولكن الأسئلة المتجددة التي كان يوجهها كانت تدل — على ما يبدو —

على قلة الاقتناع . وفى منتصف شهر يناير كان ريو متفائلا بعض الشيء في إجاباته . وكان رد فعل هذه الإجابات على كوتار يختلف فى كل مرة باختلاف الأحوال ولكنه كان يتأرجح بين الشعور بالضيق والانهيار، وإزاء ذلك اضطر الدكتور إلى أن يقول له: إنه على الرغم من أن الدلائل، التى تقدمها لنا الإحصائيات تؤيد فكرة انتهاء الوباء ، إلا أنه يجدر بنا — حتى الآن — ألا نسارع بإعلان النصر ، فأضاف كوتار قوله :

— أو بمعنى آخر أننا لا نعرف شيئاً ، فقد يعود الوباء من جديد بين يوم وآخر ؟ ورد ريو قائلا :

— نعم ، كما أنه من المحتمل أيضاً أن يسير الشفاء بأسرع مما يفعل الآن .

ويبدو أن هذا الريب الذى كان من شأنه أن يقلق الناس جميعاً كان ينزل برداً وسلاما على كوتار . ولقد حدث ذات مرة — على مشهد من تارو — أن كان كوتار يتكلم مع بعض تجار حيه، وانتهز الفرصة ليذيع رأى ريو . نعم لم يكن من الصعب أن ينجح فى ذلك ، إذ أنه لم تكد تمضى حمى الانتصار الأولى حتى عاد إلى كثير من الأذهان شك كان قد بقى مستقراً فيها رغم موجة المرح التى سببها بلاغ المديرية ، والحقيقة أن كوتار كان يشعر بمزيد من الاطمئنان إزاء مشهد هذا القلق ، ولكنه كان فى أحوال أخرى يفقد شجاعته ، ومن ذلك أن كان يقول لتارو فى بعض الأحيان :

« نعم ، سوف يأتى — فى نهاية الأمر — ذلك اليوم الذى تفتح فيه الأبواب ، وحينئذ سوف ترى أن الجميع سيتخلون عنى » .

وكان الجميع يلاحظون عليه عدم استقرار الطباع حتى اليوم الخامس والعشرين من يناير ، فكان يعمل على التقرب من أهل حيه ومعارفه ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يعتزلهم فجأة، ويظل على هذه الحال أياما طويلة، كان فى هذه الحال يعتزل الناس — فى الظاهر على الأقل — ما بين عشية وضحاها ويحيا فى وحشة تامة ، ولا يعود أحد يراه فى المطعم أو فى المسرح أو فى المقاهى التى يفضلها . ومع ذلك لم يكن يبدو عليه أنه قد عاد إلى الحياة الرتيبة الكئيبة التى كان يحياها قبل الوباء . كان يعيش فى عزلة تامة فى مسكنه ، ويبعث فى استحضار وجبات طعامه من مطعم مجاور . وفى المساء فقط كان يخرج خفية ليبتاع حاجياته ، حتى إذا ما خرج من الحوانيت اندفع إلى شوارع مقفرة ، وكان تارو إذا صادفه فى هذه الأثناء لم يحصل منه إلا على مقاطع كلمات ، وبعد ذلك ، ودون أية مرحلة انتقالية ، يرى وقد عاد اجتماعياً يتحدث مليا عن الطاعون، ويطلب بإلحاح رأى كل فرد فيه ، ويعود إلى الانغماس فى غمار الناس كل ليلة . وفى اليوم الذى أصدرت فيه المديرية بلاغها اختفى كوتار عن الأنظار اختفاء تاماً ، وبعد يومين قابله تارو وهو يهيم فى الشوارع . فطلب كوتار منه أن يصحبه إلى الحى الخارجى ، وتردد تارو ، لأنه كان يشعر بتعب شديد إثر يوم مرهق ، ولكنه اضطر إلى القبول تحت إلحاح صاحبه ، كان الاضطراب بادياً على كوتار ، وكان يأتى بحركات غير منتظمة ، ويتكلم بسرعة وبصوت مرتفع ، ثم ما لبث أن سأل رفيقه عما إذا كان تصريح المديرية يضع حقيقة نهاية للوباء ، وبطبيعة الحال كان من رأى تارو أن أى تصريح أو رأى لا يكفى فى حد ذاته

لإيقاف وباء ما ، وأنه بالرغم من ذلك لم يكن من الإسراف فى القول التصريح بأنه سوف يتوقف ، ما لم يحدث ما ليس فى الحسبان .
وقال كوتار :

— نعم ، إذا لم يحدث ما ليس فى الحسبان . والواقع أنه يحدث دائماً شىء لم يكن فى الحسبان .

فلفت تارو نظره إلى أن المديرية لم تلغ من اعتبارها ما ليس فى الحسبان حين قررت عدم فتح الأبواب قبل مضى أسبوعين ، فقال كوتار وهو ما يزال مكفهر الوجه مضطربا :

— وحسنا فعلت ، لأن جميع الدلائل تشير إلى أنها ربما كانت قد تكلمت عبثاً .

وكان من رأى تارو أن هذا ممكن الحدوث ، ولكنه كان يرى من الأوفق احتمال فتح الأبواب عما قريب ، وعودة الحياة الطبيعية إلى مجاريها .

وقال له كوتار :

— لنسلم بذلك جدلا ، ولكن ما الذى تعنيه بعودة الحياة الطبيعية ؟

فقال تارو وهو يبتسم :

— أفلام جديدة فى دور السينما .

ولكن كوتار لم يبتسم . كان يريد أن يعرف ما إذا كان يحق لنا أن نظن أن الطاعون لم يغير فى المدينة شيئا ، وأن كل شىء سوف يبدأ من جديد كما كان من قبل ، أى كما لو لم يكن قد حدث شىء ، وكان من رأى تارو أن الطاعون سوف يغير المدينة ولن يغيرها . ذلك أن أحر رغبات المواطنين كانت تنحصر — وستظل منحصرة — فى أن يعودوا إلى

تصرفاتهم العادية كما لو لم يكن قد حدث شيء ، وعلى ذلك فلن يتغير شيء من هذه الناحية ، ولكن من ناحية أخرى لن يمكن نسيان كل شيء ، حتى ولو أردنا ذلك بكل جوارحنا ، ولذلك فلابد أن يترك الطاعون آثاره على الأقل فى القلوب .

وحينئذ صرح الرجل المتوسط الحال فى وضوح تام بأنه لا يهتم بالقلب ، بل وبأن القلب آخر ما يشغله ، وإنما يهمه أن يعرف ما إذا كان النظام نفسه لن يتغير ، وما إذا كانت الخدمات العامة والإدارات ستستمر فى عمل ما كانت تعمل فى الماضى . واضطر تارو إلى أن يقرر أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ، وكان من رأيه أنه لابد من افتراض أن هذه المكاتب التى سادها الاضطراب طوال مدة الوباء لابد أن تعانى بعض التعب لكى تنهض من جديد ، كما أنه يمكن الاعتقاد بأنه ستجد مجموعة من المشاكل الجديدة التى من شأنها أن تتطلب — على الأقل — إجراء تنظيم شامل لمكاتب الخدمات العامة القديمة .

وقال كوتار .

— آه ، هذا محتمل فى الواقع ؛ إذ أنه يجب أن يبدأ كل فرد من جديد .

وهنا كان الرجلان قد وصلا فى سيرهما قرب منزل كوتار الذى كان قد اشتمل حماسا ، وانحاز نحو التفاؤل ، وأخذ يتخيل المدينة وهى تحاول أن تحيا من جديد ، فتشطب كل ماضيها ، وبدأت من الصفر .

وقال تارو :

— حسن ، أياً ما كان ، فقد تتحسن الأحوال بالنسبة لك أيضاً .

فإنها حياة جديدة — على نحو ما — تلك التى ستبدأ .

وهنا كانا قد وصلا أمام الباب ، فشد كل منهما على يد الآخر ، وقال كوتار فى اضطراب متزايد :

— إنك على حق ، فإن من الخير أن نبدأ من الصفر .

وفى هذه اللحظة برز من وسط ظلام الدهليز شبحا رجلين ، ولم يكد تارو يسمع رفيقه وهو يتساءل ماذا كان يبغى هذان العصفوران اللذان كانا يبدوان كموظفين فى ملابس يوم الأحد ، حتى أخذا يسألان كوتار عما إذا كان هو من يدعى كوتار ، فصدرت من هذا الأخير صيحة تعجب مكتومة ، ودار حول نفسه ، ثم غاص فى ظلام الليل دون أن يجد هذان الرجلان أو تارو من الوقت ما يسمح لهم بالقيام بأية حركة ، ولما ثابوا إلى أنفسهم سأل تارو الرجلين عما يريدان ، فقالا بلهجة متحفظة مهذبة : إن الأمر يتعلق ببعض الاستفسارات ، ثم انطلقا بوقار فى الاتجاه الذى سار فيه كوتار .

ولما عاد تارو إلى بيته سجل هذا المشهد ، ثم عقب على ذلك بقوله : إنه كان متعبا — وكان خطه خير دليل على صدقه — وأضاف أنه كان لا زال أمامه من العمل الشىء الكثير ، وأن ذلك لم يكن ليمنعه من أن يكون على أهبة الاستعداد ، ثم تساءل عما إذا كان حقا على أهبة الاستعداد ؟ وفى ختام كلامه أجاب على تساؤله بقوله : إن هناك دائماً ساعة من النهار والليل يصير فيها المرء جبانا ، وأنه لم يكن يخشى إلا هذه الساعة ، (وهنا تنتهى مفكرة تارو) .

وبعد ذلك بيومين، وقبل فتح الأبواب ببضعة أيام، كان الدكتور ريو يعود إلى منزله ظهراً، وهو يتساءل عما إذا كان سيجد البرقية التي كان ينتظرها ؟ وبالرغم من أن مهامه في هذه الأيام لم تكن تقل إنها كا عما كانت عليه في أقسى مراحل الوباء ، فإن توقعه للخلاص النهائي كان يبدد كل متاعبه ، ذلك أن الأمل كان يحدوه ،وقد كان سعيداً بذلك . والحقيقة أنه ليس في مقدور المرء أن يشد إرادته ويقبض أساريره دائماً، وإنه لمن السعادة أن يحل المرء — وسط مظاهر الابتهاج — رباط تلك الباقة من الجهد التي كان قد أعدها للكفاح ، فإذا قدر لريو أن يجد البرقية التي كان ينتظرها في صالحه هي الأخرى ، كان في وسعه أن يبدأ من جديد، لقد كان هو الآخر يرى أن كل الناس يبدءون من جديد .

ومر ريو أمام حجرة البواب ، وكان البواب الجديد قد التصق بزجاج النافذة وراح يبتسم له ، وأخذ يصعد السلم وهو يعيد النظر إلى وجهه الذي أشحبه الإجهاد وضروب الحرمان .

نعم كان سيبدأ من جديد عندما ينتهي الغموض ، وكان سيجد أمامه الفرصة موانية أكثر من ذي قبل ، ولكن في نفس اللحظة التي كان فيها يهم بفتح الباب أقبلت عليه أمه لتخبره أن السيد تارو لم يكن

على ما يرام ، فقد نهض فى الصباح،ولكنه لم يستطع الخروج ، فعاد إلى فراشه ، وكانت السيدة قلقة ، فقال لها ابنها :

ــ قد لا يكون الأمر خطيراً .

كان تارو ممدداً فى فراشه ، وقد غاص رأسه الثقيل فى تجويف الوسادة ، وكانت خطوط صدره القوى تبدو واضحة من تحت الغطاء الكثيف . كان يشكو من ارتفاع فى الحرارة وألم فى الرأس ، وقال لريو: إن الأعراض التى يشعر بهــــا غامضة ، ومن المحتمل أن تكون أعراض الطاعون .

وأجاب ريو بعد أن فحصه :

ــ كلا ، ليس هناك شىء محدد حتى الآن .

ولكن تارو كان نهبا للعطش ، وفى الدهليز قال الدكتور لأمه : إن هذه الحالة قد تكون بداية الطاعون .

وقالت هذه :

ــ يا إلهى ! هذا غير ممكن ، ليس فى هذا الوقت !

ثم أضافت على الفور :

ــ انبقه معنا ، يا برنار .

وأخذ ريو يفكر ، ثم قال :

ــ إننى لا أملك هذا الحق ، ولكن الأبواب على وشك الفتح ، وأعتقد أن هذا أول حق كنت أمنحه لنفسى لو لم تكونى معى .

فردت عليه بقولها :

ــ لنبقه معنا يا برنار ، فأنت تعرف جيداً أنه قد أعيد تطعيمى

وأجاب الدكتور : إن تارو قد طعم ، ولكن من المحتمل ألا يكون قد أخذ الحقنة الأخيرة تحت تأثير التعب ، أو أن يكون قد نسى اتخاذ بعض الاحتياطات .

وذهب ريو إلى مكتبه ، ولما عاد إلى الغرفة لاحظ تارو أنه يحمل أنابيب المصل الضخمة ، فقال له :

ــ أهو ذلك ؟

ــ كلا ، ولكنه إجراء وقائى ..

وكان كل رد تارو على ذلك أن مد ذراعه ، وصمد للحقنة الكبيرة التى تستغرق وقتاً لا يكاد ينتهى ، والتى كان هو نفسه يعطيها للآخرين .

وحدق ريو فى وجه تارو ، وقال :

ــ سوف نرى هذا المساء ، وأجابه تارو :

ــ والعزل يا ريو ؟ فقال :

ــ ليس هناك ما يؤكد أنك مصاب بالطاعون .

وابتسم تارو بجهد ، وقال :

ــ هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها حقنا بالمصل لا يصحبه أمر بالعزل .

وأدار ريو ظهره ، وقال :

ــ سوف أتولى علاجك أنا وأمى ، سوف تكون هنا أكثر راحة .

وصمت تارو ، وراح الطبيب يعمل فى ترتيب الأنابيب ، وهو ينتظر

أن يسمع تارو يعاود الكلام لكى يستدير ناحيته ثانية ،وفى النهاية اتجه هو إلى السرير ، فرأى المريض ينظر إليه ووجهه بادى التعب ، ولكن عينيه كانتا هادئتين . وابتسم له ريو ، وقال :

ـــ حاول أن تنام إن استطعت ، وسوف أعود بعد قليل .

وما أن وصل إلى الباب حتى سمع صوت تارو يدعوه ، فعاد إليه .

ولكن تارو كان كمن يقاوم الكلمة التى يريد قولها ، وأخيراً نطق قائلا :

ـــ ينبغى أن تقول لى كل شىء يا ريو ، إنى فى حاجة إلى ذلك ، فأجابه :

ـــ أعدك بذلك .

وتقلص كل وجهه بعض الشىء فى شبه ابتسامة، وواصل كلامه قائلا:

ـــ شكراً . ليست بى رغبة إلى الموت، وسوف أقاوم، ولكن إذا لم يكن بد من فقدان الجولة ، فإنى أرغب أن أنتهى نهاية طيبة .

ومال ريو عليه، وضغط على كتفه ، ثم قال :

ـــ كلا . فلكى تصبح قديساً يجب أن تعيش ، ينبغى أن تقاوم .

وفى أثناء النهار أخذ البرد الذى كان قارساً يخفف من حدته بعض الشىء ، ثم تبعه فى فترة ما بعد الظهر وابل عنيف من المطر والبرد ، وعند الغروب انقشعت السحب قليلا ، واشتدت حدة البرد من جديد .

وفى المساء عاد ريو إلى بيته ،وقبل أن يخلع معطفه دخل غرفة صديقه، وهناك كانت أمه تشتغل بالإبرة ، وبدا تارو وكأنه لم يتحرك من

المكان الذى كان يضطجع فيه ، ولكن شفتيه اللتين كانتا قد ابيضتا من الحمى كانتا تعبران عن الكفاح الذى كان يبذله .

وقال له الطبيب :

ـــ وبعد ؟

وهز تارو قليلا كتفيه المتلشتين خارج السرير ، وقال :

ـــ وبعد ؟! إنى فى سبيل فقدان الجولة .

وانحنى الطبيب عليه . وهناك رأى بعض العقد التى تكونت تحت الجلد المحموم ، وبدا صدره كما لو كان يردد كل أنواع الضوضاء التى تصدر من مصنع حدادة يقع تحت الأرض ، ومن الغريب أنه كانت تبـــدو عليه سلستا الأعراض كلاهما ، وقال ريو وهو ينهض : إن المصل لم يتوفر له الوقت الكافى بعد لكى يثبت مفعوله ، ولكن نوبة من نوبات الحمى كانت قد أخذت تحشرج فى حلقه ، فغطت على الكلمات التى كان تارو يحاول النطق بها .

وبعد العشاء أتى ريو وأمه ، وجلسا بجانب المريض . وقد بدأ ليله خلال مقاومته . وكان ريو يعرف أن هذه المعركة القاسية مع ملك الطاعون لابد أن تستمر حتى الفجر ، ولم تكن كتفاه القويتان وصدره العريض أمضى أسلحته ، ولكن كان أقواها ذلك الدم الذى جعل ريو منذ لحظة يفجره من تحت إبرته ، وفى مجرى الدم ذلك الشىء الذى يعد أعمق من الروح ، والذى لا يستطيع أى علم أن يوضحه . أما هو ، فما كان فى مقدوره إلا أن يشاهد نضال صديقه . أما ما كان سيفعله هذا الأخير ، أما الخراريج التى يجب أن يعالجها ، والمقويات التى يجب أن يحقنه بها ،

فإن أشهراً طويلة من الفشل المتواصل قد علمته كيف يقدر مفعولها حق قدره . الواقع أن مهمته الوحيدة كانت تنحصر فى منح الطريق لهذه الصدفة التى كثيراً ما ترفض العمل إلا إذا دعيت له ، وكان ينبغى لهذه الصدفة أن تعمل ، ذلك لأن ريو كان قد وجد نفسه أمام صورة محيرة للطاعون ، فلقد تعمد مرة أخرى أن يضلل خطط المقاومة التى اتخذت ضده ، فظهر فى الأماكن التى لم يكن أحد ينتظره فيها ليختفى من أماكن أخرى ، كان يبدو للجميع أنه قد استقر فيها ، مرة أخرى تعمد الطاعون أن يثير دهشة الناس .

كان تارو يقاوم دون أن يتحرك ، لم يحدث مرة واحدة خلال الليل أن قاوم ضربات الداء بالاضطراب ، كان يقاومها فقط بكل جسمه العريض، وكل سكونه ، وكذلك ما من مرة واحدة حاول فيها أن يتكلم ، وكان هذا اعترافاً منه — على طريقته — بأن التسلية لم تعد ممكنة بالنسبة له .

وأخذ ريو يتتبع مراحل المعركة فى عينى صديقه اللتين كانتا تنفرجان تارة، وتغمضان أخرى ، وفى جفنيه اللذين كان يقبضهما بشدة على حدقتى عينيه حيناً ويتركهما على السجية حيناً آخر، فيحدق فى أحد الأشياء، أو فى الطبيب وأمه ، وكان كلما التقت نظرته بنظرة الطبيب ابتسم ، ولكن بكل مشقة .

وأتت لحظة أخذا فيها يسمعان وقع أقدام تسارع الخطى فى الشارع . كانت خطى من يولى الأدبار أمام صوت يتهدده من بعيد ، وأخذ ذلك الصوت يقترب شيئاً فشيئاً حتى انساب فملأ الطريق ، لقد عاد المطر إلى الهطول ، ثم ما لبث أن امتزج بالبرد الذى كانت دقاته تسمع على الأفاريز

بوضوح ، وراحت الستائر الكبيرة تتموج أمام النوافذ .

وكان ريو الذى قبع فى ظل الغرفة — وجذبه المطر إلى الشرود بعض الشيء — قد أخذ من جديد ينظر إلى تارو الذى كان ينعكس عليه ضوء مصباح الفراش ، وظلت أمه تشتغل بالإبرة ، ثم ترفع من حين لآخر رأسها ، وتنظر بانتباه إلى المريض . لقد فعل الطبيب الآن كل ما كان فى مقدوره أن يفعله ، وبعد أن توقف سقوط المطر انتاب الغرفة نوع من السكون الكثيف ، ولم يعد يغمرها سوى همهمة خرساء لحرب خفية . وخيل إلى الطبيب — الذى كان قد أضناه الأرق — أنه يسمع من أطراف السكون ذلك الصفير الهادئ المنتظم الذى لازمه طيلة فترة الوباء ، وأشار إلى أمه أن تذهب للنوم ، ولكنها رفضت بإشارة من رأسها ، ثم لمعت عيناها ، وأخذت تفحص على طرف إبرها غرزة لم تكن متأكدة منها ، ونهض ريو ليسقى المريض ، ثم عاد فجلس مكانه .

وانتهز بعض المارة فرصة الهدنة التى منحهم إياها المطر والرياح ، فراحوا يسارعون الخطى على الإفريز ، ثم أخذت خطواتهم تتضاءل وتبتعد ، ولأول مرة لاحظ الطبيب أن تلك الليلة التى غصت بالمارة المتأخرين ، وخلت من رنين عربات الإسعاف كانت شبيهة بغيرها من الليالى الخالية ، كانت ليلة خالية من الطاعون ، وكان يبدو أن المرض الذى طرده البرد والأضواء والجماهير قد هرب من الأعماق المظلمة للمدينة ، ولجأ إلى تلك الغرفة الدافئة ، ليسدد هجومه النهائى إلى بدن تارو المسجى بلا حراك .

لم يعد الوباء يجثم على سماء المدينة ، ولكنه كان يرسل صفيره فى

هواء هذه الغرفة الثقيل . إنه هو نفسه الذى كان ريو يسمعه منذ ساعات . كان من الضرورى أن نتوقع له التوقف هنا أيضاً ، وأن يعترف هنا أيضاً بهزيمته .

وقبيل الفجر انحنى ريو على أمه ، وقال :

— ينبغى لك أن تنامى حتى تستطيعى أن تحلى محلى فى الساعة الثامنة ، ولا تنسى قبل أن تنامى اتخاذ بعض الإجراءات المطهرة .

ونهضت مدام ريو ، ورتبت شغل الإبرة الذى كان فى يدها ، ثم تقدمت نحو السرير . كان تارو قد أغمض عينيه منذ وقت قليل ، وكان العرق قد جعد شعره المنسدل على جبينه الصارم ، وتنهدت مدام ريو ، ففتح المريض عينيه ، ورأى ذلك الوجه الحنون الذى مال عليه ، ومن تحت موجات الحمى الدائبة الحركة عادت الابتسامة العنيدة مرة أخرى ، ولكن سرعان ما أطبق المريض عينيه من جديد ، ولما صار ريو بمفرده ذهب إلى المقعد ذى الذراعين الذى غادرته أمه ، وجلس عليه .

كان الشارع صامتا والسكون الآن مطبقاً ، وبدأ برد الصباح يعلن عن وجوده فى الغرفة .

ونام الطبيب، ولكنه صحا من غفوته على ضوضاء أول عربة مرت فى الشارع ساعة الفجر ، وصحا وهو يرتعد ، ولما نظر إلى تارو أدرك أن المرض كان يمر بفترة من فترات سكونه ، وأن المريض هو الآخر كان قد نام ، وكانت العربة ذات الحصان ما زالت تسمع من بعيد بعجلاتها المصنوعة من الخشب والحديد . وكان الضوء الآتى من النافذة ما زال خافتاً ، ولما تقدم الطبيب ناحية السرير ، كان تارو ينظر إليه بعينين لا تعبير فيهما ، كما لو كان النوم ما زال يطغى عليهما ، وسأله ريو :

— لقد نمت ، أليس كذلك ؟ وأجاب :

— نعم .

فقال :

— هل تتنفس بأسهل من ذى قبل ؟ وأجاب :

— نوعاً ما ، هل هذا يعنى شيئا ؟

وصمت ريو، ثم قال :

كلا ياتارو ، هذا لايعنى أى شىء ، فأنت تعرف — كما أعرف — أنا ، هدنة الصباح .

وأقر تارو ذلك ، وقال :

شكراً ، أجبنى دائماً بهذه الدقة .

وجلس ريو عند قدمى المريض . كان يشعر بساقى المريض إلى جواره طويلتين متصلبتين كما لو كانتا ساقى جثة .

وكان تارو يتنفس الآن بقوة أكبر ، وقال بصوت لاهث :

— إن الحرارة ستعود ، أليس كذلك يا ريو ؟

— نعم ، ولكن فى ساعة الظهر سيتضح كل شىء .

وأغمض تارو عينيه ، وكأنه كان يجمع قواه ، وكان وجهه يعبر عن التعب والخور ، لقد كان ينتظر ارتفاع الحرارة التى كانت بدأت فى تلك اللحظة تتحرك فى جهة ما فى أعماقه ، ولما فتح عينيه كانت نظرته ذابلة ، ولم يعد إليها بريقها إلا عندما لمح ريو منحنياً بالقرب منه . وقال له هذا الأخير :

— اشرب .

وشرب تارو ، ثم ترك رأسه يهوى ، وقال :

— إنه أمر يطول مداه .

وأمسك ريو بذراعه ، ولكن تارو كان قد أشاح عنه بنظرته ، ولم يبد أى رد فعل ، وفجأة اندفعت موجات الحمى حتى وصلت إلى جبينه وكأنها قد خرقت سداً داخليا ، ولما ارتد بصر تارو نحو الطبيب أخذ هذا يشجعه بوجه سمح ، ولم تستطع الابتسامة التى حاول تارو رسمها

على محياه أن تتعدى جيوبه الأنفية المنقبضة ، وشفتيه اللتين غطتهما طبقة من الزبد الأبيض تشبه طبقة الأسمنت ، ولكن ظلت عيناه تومضان وسط وجهه المنقبض بكل ما ينبعث عن الشجاعة من بريق .

وفى الساعة السابعة دخلت مدام ريو الغرفة، وذهب الطبيب إلى مكتبه ليكلم المستشفى بالتليفون طالباً البحث عن بديل له ، كما قرر فى نفس الوقت أن يرجىء استشاراته ، ثم تمدد لحظة على أريكة مكتبه ، ولكنه عاد ونهض من فوره ، ورجع إلى الغرفة . كان رأس تارو متجها ناحية مدام ريو . كان ينظر إلى ذلك الظل الصغير الذى تكور بجواره على أحد المقاعد واضعاً يديه على فخذيه ، كان يتأملها بنوع من التركيز حملها على أن تضع أصبعها على شفتيها ، ثم تنهض لتطفىء مصباح الفراش، ولكن كان ضوء النهار يتسرب بسرعة من خلف الستائر ، وبعد ذلك بقليل بدأت ملامح المريض تبرز من الظلام ،واستطاعت مدام ريو أن تلاحظ أنه ما فتىء ينظر إليها ، فمالت عليه ،وعدلت من وضع وسادته ،وفى أثناء نهوضها وضعت يدها لحظة على شعره المبلل الملوى ، وحينئذ سمعت صوتاً مكتوماً آتيا من بعيد يشكرها ،ويقول لها : إن كل شىء الآن على ما يرام ، وحين عادت إلى جلستها من جديد كان تارو قد أغمض عينيه ، وارتسم على وجهه المنهك مرة أخرى مايشبه الابتسامة رغم فمه المغلق .

وعند الظهيرة بلغت الحمى أقصى ارتفاعها ، وأخذ نوع من السعال الجوفى يهز بدن المريض الذى بدأ يبصق دماً . نعم ، لقد توقفت العقد عن التورم ، ولكنها ما زالت هناك صلبة كالمسامير المحواة الغائرة فى تجويف المفاصل ، وقد رأى ريو أنه من المستحيل فتحها ، وكان تارو

فى فترات توقف الحى والسعال لا يكف عن النظر من بعد متزايد إلى أصدقائه ، ولكن سرعان ما أخذ يغمض عينيه شيئاً فشيئاً ، وبدا الضوء الذى كان يضىء وجهه فى الانطفاء . لقد أخذت العاصفة التى كانت تهز هذا البدن فى نفضات تشنجية تضيئه بومضات من البرق تندر بالتدريج ، وكان تارو يهيم ببطء وسط هذه العاصفة كالريشة فى مهب الرياح ، ولم يعد ريو يرى أمامه سوى قناعاً عديم الحركة اختفت منه الابتسامة . إن هذا الهيكل البشرى الذى كان جد قريب منه بدا وكأنه قد انهالت عليه ضرباً عصا حديدية ، واحترق بنار شر فوق طاقة البشر وتلوت أعضاؤه تحت تأثير رياح السماء الحاقدة جميعها ، فراح يغرق ناظريه فى مياه الطاعون دون أن يكون فى مقدوره فعل شىء لإنقاذه من الغرق . بل كان عليه أن يقف مرة أخرى على ضفة النهر خاوى اليدين معصور القلب بلا سلاح وبلا معين أمام تلك الكارثة . وأخيراً تفجرت من عينيه دموع العجز لتمنعه من رؤية تارو وهو يلتفت فجأة ناحية الحائط ويلفظ أنفاسه فى أنة جوفاء ، وكأن وتراً رئيسياً قد انقطع فى مكان ما بداخل جسمه .

أما الليلة التالية فلم تكن ليلة كفاح ، بل ليلة صمت . ففى هذه الغرفة المنعزلة عن العالم ، وأمام تلك الجثة التى لازالت مسربلة فى ملابسها ، كان ريو يشعر بذلك الهدوء الغريب الذى كان منذ ليال طويلة خلت قد تبع الهجوم على أبواب المدينة من فوق الأسطح المشرفة على الطاعون . وكان فى هذه الآونة قد فكر فى هذا السكون الذى ينبعث من الأسرة التى كان الناس يموتون فوقها أمام سمعه وبصره ، كان ذلك نفس الصمت

مهما كان مكانه ، نفس التوقف الخاشع ، نفس الاسترخاء الذى يتلو المعارك ، كان سكون الهزيمة . غـــير أن السكون الذى كان يلتف الآن بصديقه كان سكوناً متمشيا مع الشوارع ، سكون المدينة التى تحررت من الطاعون ، حتى أن ريو أخذ يشعر بأن الأمر يتعلق هذه المرة بالهزيمة النهائية ، الهزيمة التى تضع خاتمة للحروب ، والتى تجعل من السلام نفسه مصدر ألم لا علاج له ، ولم يكن الطبيب على بينة مما إذا كان تارو قد وصل إلى السلام فى نهاية الأمر ، ولكنه كان ، فى هذه اللحظة على الأقل ، يعتقد أنه ــ هو نفسه ــ لن يعرف طريق السلام بعد اليوم ، كما أن الأم التى يستقطع منها ابنها ، والرجل الذى يدفن صديقه لا يمكن لهما أن يعرفا الهدنة .

أما فى الخارج، فقد كان نفس الليل البارد ، والنجوم المتجمدة فى سماء صافية قارسة البرد . وفى تلك الغرفة نصف المعتمة كانت تحس البرودة وكأنها ترزح على زجاج النوافذ ، كانت الليلة القطبية بأنفاسها الشاحبة. كانت مدام ريو تجلس بهيئتها المعتادة قرب الفراش، وقد أضاء المصباح جانبها الأيمن . وفى وسط الغرفة كان ريو ينظر فى مقعده الكبير بعيداً عن الضوء ، وكانت ذكرى زوجته تراوده ، ولكنه كان لا يلبث أن يطردها من خاطره .

وفى بداية الليل كانت أقدام المارة تدق بوضوح وسط الليل البارد، وقالت مدام ريو :

ــ هل رتبت كل شيء ؟ وأجاب الابن :

— نعم ، لقد تحدثت بالتليفون .

وعادا من جديد إلى سهادهما الصامت ، وكانت مدام ريو تنظر إلى ابنها من حين لآخر . فكان إذا فاجأ إحدى نظراتها ابتسم لها. وأخذت ضوضاء الليل المعتادة تتوالى فى الشارع ، ورغم أنه لم يكن قد صدر بعد تصريح بسير العربات فقد عاد الكثير منها إلى المرور من جديد ،فكانت تمر وهى تنهب الأرض نهباً ، ثم تختفى لتظهر من جديد . كنت تسمع أصواتاً ونداء يتلوه سكون ،ثم تتعالى ضوضاء حوافر حصان، أو عربتى ترام تئنان لدى أحد المنحيات ، أو بعض الصخب غير الواضح إلى أن تعود من جديد فتسمع أنفاس الليل .

وفجأة سألت مدام ريو :

— برنار ؟

— نعم .

— ألست متعباً ؟

— كلا .

لقد كان ريو يعرف فيم تفكر أمه فى تلك اللحظة ،ويعرف كذلك أنها تحبه ، ولكنه كان يعرف أيضا أنه ليس بالشىء الكبير أن يحب المرء شخصاً ما ،أو على الأقل أن أى حب لا يتمتع مطلقا بالقوة الكافية التى تجعله قادراً على التعبير عن نفسه . وهكذا كان هو وأمه يحب كل منهما الآخر فى صمت دائما . وقد تموت بدورها، أو قد يموت هو دون أن يكونا قد تمكنا طيلة حياتهما من أن يذهبا إلى مدى أبعد من ذلك المدى فى الاعتراف بحنانهما . وعلى هذا النحو أيضا عاش إلى جانب

تارو ، ولقد مات تارو هذا المساء دون أن يجد صداقتهما من الوقت ما يمكنهما من أن يعيشاها حقيقة . لقد خسر تارو الجولة كما كان يقول. أما ريو، فماذا ربح ؟ لقد ربح أنه عرف الطاعون وأنه بقيت له ذكراه ، وأنه عرف الصداقة، وأنه قد بقيت له ذكراها ، وأنه عرف الحنان ، وأنه لا بد أن يأتى يوم لا يبقى له منه إلا ذكراه . إن كل ما يمكن المرء أن يربحه فى لعبة الطاعون والحياة هو المعرفة والذكرى ، وقد يكون هذا هو ما عناه تارو بقوله « ربح الجولة » .

ومرت سيارة من جديد ، وتململت مدام ريو قليلا على مقعدها . وابتسم لها ريو ، فقالت له: إنها ليست متعبة ، ثم أردفت قائلة :

— ينبغى أن تذهب للاستجمام هناك فى المنطقة الجبلية . وأجابها :

— بكل تأكيد يا أماه .

نعم ، سوف يستجم هناك . لم لا ؟ قد يكون ذلك باعثاً لربح ذكرى، ولكن إذا كان هذا هو ربح الجولة ، فما أقسى الحياة التى ليس لنا فيها سوى ما نعرفه وما نتذكره دون ما نؤمله. إن تارو — ولا ريب — قد عاش هكذا ، وكان على بينة من عقم حياة تخلو من الأوهام . لا شك أنه لا سلام بلا أمل ، وأن تارو الذى كان يأبى على الناس أن يحكموا بإعدام أحد ، والذى كان يعرف مع ذلك أنه لا يوجد أحد يستطيع منع نفسه من إصدار مثل هذا الحكم، وأن الضحايا أنفسهم قد يكونون جلادين أحياناً ، تارو هذا قد عاش فى اللوعة والتناقض ، ولم يعرف الأمل قط. أتراه لهذا السبب أراد القداسة، وبحث عن السلام من خلال خدمة الناس ؟ لم يكن ريو يعرف فى حقيقة الأمر شيئاً ، ولم يكن يأبه

لهذا كثيراً . إن كل ما سيبقى فى ذاكرته لتارو هو صورة رجل يمسك بعجلة القيادة بكلتا يديه ليقود سيارته ، أو صورة هذا الجسد المتين البنية الذى يرقد الآن مسجى بلا حراك . تلك هى المعرفة : دفء الحياة وصورة الموت .

لهذا السبب — بلا شك — تلقى الدكتور ريو فى الصباح نبأ موت زوجته فى هدوء . كان فى مكتبه ، وأتت أمه شبه مهرولة تناوله البرقية ، ثم خرجت لتعطى من أحضرها نفحة من المال ، ولما عادت كان ابنها يمسك بالبرقية مفتوحة فى يده . ونظرت إليه ، ولكنه كان يرسل نظره خلال النافذة فى إصرار ليتأمل ذلك الصباح الرائع الذى أخذ يغمر الميناء . وقالت مدام ريو :

— برنار .

وتفحصها الطبيب بعين شاردة . فسألته :

— ماذا عن البرقية ؟

ورد الطبيب قائلا :

— إنه كذلك منذ ثمانية أيام .

وأشاحت مدام ريو برأسها ناحية النافذة ، ولاذ الطبيب بالصمت ، ثم طلب إلى أمه ألا تبكى ، وقال : إنه كان يتوقع ذلك ولكنه مع هذا أمر شاق عسير ، وكان يعلم وهو يقول هذا أن ألمه لم يكن بالمفاجأة ، إذ أنه كان نفس الألم الذى عاش فيه فيه منذ شهور ، ومنذ يومين .

في فجر صباح جميل من فبراير فتحت أخيراً أبواب المدينة ، وقد قامت الجماهير والصحف والراديو وبلاغات المديرية بتحيتها ، ولم يبق الآن للراوى إلا أن يقوم بتأريخ ساعات البهجة التى تلت فتح تلك الأبواب رغم أنه هو نفسه كان ضمن أولئك الذين لم تكن لهم حرية المشاركة فيها مشاركة كلية .

لقد نظمت احتفالات كبيرة طوال الليل وطوال النهار ، وفى نفس الوقت بدأت القطارات ترسل دخانها داخل المحطة ، فى الوقت الذى بدأت فيه السفن القادمة من البحار النائية ترسو فى ميناءنا ، وكأنها بذلك تبرهن — بطريقتها الخاصة — على أن هذا اليوم هو يوم اللقاء الكبير بالنسبة لكل من كانوا يئنون من ألم الفراق .

ومن السهل أن نتخيل هنا ماذا كان من شأن الشعور بالفراق الذى كان قد حل فى نفوس أغلبية مواطنينا . إن القطارات التى كانت تدخل مدينتنا نهاراً لم تكن أقل ازدحاماً من تلك التى كانت تخروج منها . إن الجميع كانو قد أقبلوا على حجز أماكنهم لهذا اليوم خلال أسبوعى الانتقال ، وهم يرتجفون خشية أن تلغى البلدية قرارها ، بل إن بعض المسافرين الذين اقتربوا من المدينة لم يكونوا قد تخلصوا نهائياً من مخاوفهم ، وذلك لأنهم — وإن كانوا يعرفون بصفة عامة مصير أولئك الذين يهمهم أمرهم من قرب — كانوا يجهلون كل شىء عن الآخرين ، وعن المدينة نفسها ، تلك المدينة التى كانوا يظنون أنها قد شوهت تشويها ، ولكن

ذلك لم يكن حقيقياً إلا بالنسبة لغير المتحمسين ذوى العواطف الملتهبة . أما المتحمسون، فقد وقفوا عند الفكرة التى كونوها لأنفسهم عن هذا الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن قد تغير إلا شيء واحد بالنسبة لهم : وهو الوقت الذى كانوا — طيلة مدة نفيهم — يريدون دفعه إلى الأمام حتى يحث الخطى، وكانوا حتى الآن يصرون على دفعه . ولكنهم فى هذه اللحظة التى لاحت لهم فيها مدينتنا أصبحوا على العكس من ذلك يتمنون أن يبطىء الوقت، وأن يتوقف لدى الآونة التى يبدأ فيها القطار يهدىء من سيره قبل أن يستقر به المقام . إن شعورهم — الذى كان يتسم فى آن واحد بالغموض والحدة خلال تلك الشهور الضائعة بالنسبة لحبهم — قد جعلهم يلحون فى الحصول على نوع من التعويض يضمن لهم أن يسير زمن الفرح بمعدل أبطأ ضعفين من زمن الانتظار . وأما هؤلاء الذين كانوا ينتظرون فى غرفة ما ، أو على الرصيف — ومنهم رامبير الذى كان قد أخبر زوجته منذ أسابيع، فعملت كل ما فى جهدها لكى تصل إليه — فقد كانوا جميعاً نافدى الصبر مضطربى النفوس ؛ ذلك أن هذا الحب ، أو هذا الحنان الذى اضطرته أشهر الطاعون إلى أن يعيش فى عالم المجردات كان رامبير وهو يرتجف أن يقابله بذلك الشخص الملموس المكون من لحم ودم، والذى كان موضعاً لذلك الحب .

كان بوده أن يعود — من جديد — ذلك الشخص الذى كان يتمنى فى بدء الوباء أن يندفع خارج المدينة فى قفزة واحدة لكى يحظى بلقاء من يحب . ولكنه كان يعرف أن هذا أمر أصبح فى حيز المستحيل . ذلك أنه كان قد تغير ، لقد خلق الطاعون فيه نوعاً من الشرود راح

يحاول — بكل جهده — أن ينكره ، ولكنه مع ذلك ، كان يلازمه كقلق مكتوم . كان يشعر — على نحو ما — بأن الطاعون قد انتهى فجأة ، وأنه لم يعد حاضر الذهن كما كان من قبل . فها هي ذي السعادة تتقدم بخطى المارد ، وها هو الحادث المأمول يجرى بأسرع مما كان يفعل الانتظار . وكان رامبير يفهم أن كل شيء يسير إليه دفعة واحدة ، وأن الفرح ليس إلا حرقاً لا يستساغ .

كان الجميع — على وجه العموم — في مثل حاله . وكانوا كلهم على بينة من ذلك إن قليلا وإن كثيراً . نعم ، كانوا جميعا مثله ، ولذا ينبغى لنا أن نتكلم ، عن الجميع ، لقد وقفوا على رصيف المحطة حيث كانوا يستأنفون حياتهم الخاصة . ولكنهم كانوا على بينة مما لا يزال بينهم من إحساس مشترك كلما تبادلوا النظرات والابتسامات ، ولكن ما أن رأوا دخان القطار حتى اختفى فجأة شعورهم بالنفى تحت وابل من الفرح الغامض المذهل ، ولما توقف القطار توقف معه عهد الفراق الذى لم تكن له نهاية ، والذى كان يبدأ في غالب الأحيان عند هذا الرصيف . توقف عهد الفراق فجأة ، في لحظة واحدة ، في اللحظة التى أطبقت فيها الأذرع — في شح وحرص — على أجسام كانت قد نسيت شكلها الحى . ولم يجد رامبير من الوقت ما يمكنه من رؤية الهيكل الذى كان يعدو نحوه ؛ لأنه سارع بالارتماء على صدره . لقد أمسك بهاملء ذراعيه ، وأخذ يضم إليه رأساً لا يرى منه سوى شعر أليف إليه ، وترك لدموعه العنان ، وهو لا يدرى أهى دموع السعادة الحاضرة أم الألم الذى طال كبته ، ولكنه كان — على الأقل — واثقا من أن تلك الدموع تعوقه عن التحقق

عما إذا كان هذا الوجه الذى اختفى فى تجويف كتفه هو نفسه الوجه الذى طالما حلم به، أم أنه — على العكس من ذلك — وجه امرأة غريبه. إنه سيعرف فيما بعد ما إذا كانت شكوكه فى موضعها أولا، أما الآن فقد كان يريد أن يفعل ما يفعله الناس من حوله، أولئك الذين كانوا فيما يبدو يعتقدون أنه من الممكن أن يحل الطاعون ويرحل دون أن يغير من قلوب البشر.

عاد الجميع إلى بيوتهم وقد ضم كل منهم حبيبه إليه، ولم يعودوا يرون شيئا مما حولهم، وبدت على وجوههم علامات الانتصار الظاهرى على الطاعون، وقد نسوا البؤس كما نسوا الذين عادوا معهم بنفس القطار، ولم يجدو أحداً فى انتظارهم، فانقلبوا إلى بيوتهم استعداداً لتلقى مصداق المخاوف التى كان السكون الطويل قد ولدها فى قلوبهم. وأما بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعد لهم من إلف سوى الألم الحديث العهد، ولأولئك الذين كانوا يستسلمون الآن لذكرى شخص اختفى من بينهم، فإن الأمر كان يختلف، فقد وصل الشعور بالفراق عندهم إلى الذروة. نعم، بالنسبة لجميع هؤلاء الذين فقدوا كل مباهج الدنيا عندما فقدوا شخصاً عزيزاً لعله كان الآن ملقى فى إحدى الحفر المشتركة، أو ذاب فى كومة من الرماد، وسواء أكان ذلك الشخص أما أم زوجاً أم حبيبا، فإن الطاعون كان لا يزال محيطا بهم.

ولكن من ذا الذى كان فى وسعه أن يفكر الآن فى هذا النوع من الوحدة؟ ففى ساعة الظهيرة كانت الشمس المنتصرة على هبات الريح الباردة التى كانت تناضل فى الجو منذ الصباح تفرغ على المدينة طوفانا

لا يتوقف من الضوء الساكن. وكان النهار فى حالة توقف، وراحت مدافع القلاع ترسل من فوق التلال دويها المستمر فى أرجاء السماء الساكنة . وخرج سكان المدينة من بيوتهم عن بكرة أبيهم للاحتفال بتلك اللحظة الحافلة التى انتهى فيها زمن الآلام دون أن يكون زمن النسيان قد بدأ بعد.

وأخذ الناس يرقصون فى جميع الميادين ، وازدادت حركة المرور بين عشية وضحاها زيادة ملحوظة ، حتى كان طوفان السيارات المتزايد يمر بصعوبة فى الشوارع الغاصة بالناس ، وتجاوبت أجراس المدينة طيلة فترة الأصيل حتى ملأت برنينها السماء الزرقاء المذهبة ، ذلك أنه إذا كانت قد أقيمت صلوات الشكر فى الكنائس ، فقد كانت أماكن اللهو تغص فى الوقت نفسه ، وكانت الملاهى — التى لم تكن قد حسبت لهذا اليوم حسابه — توزع على روادها آخر ما عندها من مشروبات روحية . وأمام مناضد الشراب كانت تتزاحم جموع تتكون من أناس متساوين فى درجة الانفعال ، وكان من بينهم أزواج عديدون من الذكور والإناث وقد تحاضنوا دون أن يخشوا نظرات الفضوليين . كانوا جميعاً يصيحون أو يضحكون ؛ ذلك أن الحياة التى كانوا قد اختزنوها — فى صميمهم — طيلة تلك الأشهر كانت قد استيقظت من رقادها ، وراحوا ينفقونها فى ذلك اليوم الذى كان كأنه يوم الخلاص من موت محقق . نعم ، لقد كانت هذه الحياة نفسها ستستأنف سيرتها فى اليوم التالى بما فيها من حذر وحيطة ، أما الآن ، فقد أخذ الناس — مهما اختلف أصلهم — يسيرون جنباً إلى جنب، ويتآخون . إن المساواة التى لم يستطع الموت أن يحققها يوم كان ماثلا قد حققتها بهجة الخلاص ، على الأقل لبضع ساعات .

ولكن هذا التهريج المبتذل لم يكن كل شيء ، فقد كان الذين يمشون الشوارع فى ساعة الأصيل — من حول رامبير — غالباً ما يخفون وراء مظهرهم الهادىء أنواعاً من السعادة أكثر رقة ، والواقع أن الكثير من الأزواج والأسر لم يكن يبدو عليهم إلا أنهم يسيرون فى سلام. وحقيقة الأمر أن أغلبهم كانوا يطوفون كالحجيج بالأماكن التى ذاقوا فيها العذاب . لقد كانوا يرمون بذلك إلى أن يطلعوا القادمين الجدد على العلامات الظاهرة أو الخفية للطاعون ، وعلى الآثار التى تدل على تاريخه . وفى بعض الحالات كانوا يقومون بدور المرشد ، دور من رأى الكثير ومن عاصر الطاعون . وكانوا يتكلمون عن الخطر دون أن يثيروا ذكرى الخوف . وكانت هذه من المتع التى لا ضرر منها ، ولكن فى بعض الحالات كانت الرحلة أشد من ذلك تأثيراً ، حيث كان العاشق يقول لمعشوقته — وقد استسلم لقلق الذكرى الهادىء — : « فى ذلك المكان وفى ذلك الزمن كنت قد اشتهيتك ولكنك لم تكونى هنا » . وقد كان من السهل على سائحى العاطفة هؤلاء أن يتعرف بعضهم على البعض الآخر ، فقد كانوا يكونون جماعات منعزلة غارقة فى الهمس والنجوى وسط الضجيج الذى كانوا يسيرون فيه . لقد كانوا هم الذين يعلنون عن الخلاص الحقيق أكثر مما كانت تفعل فرق الموسيقى فى الميادين. ذلك أن هؤلاء الأزواج المتجاوبين المتوافقين غير الثرثارين كانوا وسط هذه الضوضاء كالدليل الساطع الذى يؤكد — بجانب انتصار السعادة الظالم — أن الطاعون قد ولى ، وأن الإرهاب قد انتهى عهده . لقد كانوا ينكرون فى هدوء — ورغم ما لا يستطاع نكرانه — أنه قد مر بنا وقت عرفنا فيه ذلك العالم

المجنون الذى كان مقتل الرجل فيه من الأمور التى تحدث كل يوم كمقتل الذباب ، وأننا قد عرفنا تلك الوحشية المحددة المعالم ، ذلك الهذيان المدبر ، ذلك السجن الذى يجلب معه نوعا من الحرية البشعة بالنسبة لكل ما لم يكن حاضراً ، رائحة الموت التى كانت تذهل جميع من لم تكن تقتلهم. وأخيراً كانوا ينكرون أننا كنا ذلك الشعب الذى ضرب عليه بالحذر، والذى كان يذهب منه كل يوم جزء ـــ فى شكل كومة ـــ إلى الأتون ، فما يلبث أن يتحول إلى دخان دسم بينما ينتظر جزء آخر دوره مكبلا بأصفاد العجز والخوف .

هذا على كل حال ما كان يبدو جليا أمام عينى الدكتور ريو ، وهو يحاول أن يصل إلى الأحياء الخارجية، ويسير وحده ساعة الأصيل وسط رنين الأجراس، وطلقات المدافع ، وأنغام الموسيقى ، والصيحات المدوية . لقد كان مستمراً فى أداء مهنته ، فليس هناك عطلة بالنسبة للمرضى . وعندئذ كانت روائح الشواء السابقة، والكحول الممزوج باليانسون تفوح من كل مكان خلال الضوء الدقيق الجميل الذى كان يكسو المدينة ، ومن حوله كانت هناك وجوه ضاحكة تنكفىء تجاه السماء . كان هناك رجال ونساء يحتضن بعضهم بعضا ، وقد احتقنت وجوههم بكل ما فى الرغبة من عصبية وصياح . نعم لقد ولى الطاعون، وولى معه الإرهاب ، والواقع أن تلك الأذرع المتشابكة كانت تقول: إنه كان منفى ، وكان فراقا بكل ما فى هذه الكلمات من معنى عميق .

ولأول مرة استطاع ريو أن يعثر على اسم لذلك التشابه الخلق الذى كان يلاحظه خلال شهور مضت على وجوه المارة جميعاً . كان حسبه الآن أن ينظر حوله ، فإنه لم يكد هؤلاء الناس يصلون إلى نهاية البؤس والحرمان

بانتهاء الطاعون حتى أخذوا يرتدون رداء الدور الذى كانوا يؤدونه منذ زمن بعيد ، دور المهاجرين الذين كانت وجوههم من قبل — ثم أصبحت ملابسهم الآن — تعبر عما كان ينطوى عليه من الغياب وبعد الموطن . فمنذ اللحظة التى أغلق الطاعون فيها أبواب المدينة لم يكونوا يعيشون إلا فى ألم الفراق، كما لو كانوا قد انتزعوا من حرارتهم البشرية التى تنسى الناس كل شىء . ففى أركان المدينة كلها ، كان هؤلاء الرجال والنساء يهفون — بدرجات متفاوتة — إلى لقاء لم يكن بالنسبة لهم جميعاً ذا طبيعة واحدة، ولكنه كان بالنسبة لهم جميعاً فى درجة متساوية من الاستحالة . إن أغلبهم كانوا يصيحون بكل ما فيهم من قوة منادين الغائب طلباً لدفء الجسد، أو الحنان، أو إعادة وجوده معهم . كان بعضهم يرى نفسه — على غير شعور منه فى غالب الأحيان — يتألم ، لأنه فى معزل عن صداقة الناس ، ولأنه لم يعد قادراً على أن يلحق بهم بالوسائل العادية للصداقة أى بالخطابات أو القطارات أو السفن . وهناك آخرون — أقل من هؤلاء عدداً . وربما كانوا مثل تارو — كانوا يتمنون الالتقاء بشىء ما لا يستطيعون تعريفه ، ولكنه كان كل ما يرغبون فيه . ولما لم يكونوا يعرفون له اسما ، فقد قنعوا بتسميته السلام .

واستمر ريو يسير . وكان كلما تقدم فى سيره رأى الجموع تتكاثر من حوله ، والضجيج يشتد، حتى بدا له أن الأحياء الخارجية التى يريد الوصول إليها قد جعلت تتراجع ، ثم أخذ يذوب شيئاً فشيئاً فى ذلك الجسم الكبير الذى يصيح . لقد أخذ يتبين بوضوح يزداد شيئا فشيئا أن ذلك الصياح هو صياحه هو ، جزئيا على الأقل . نعم ، إن الجميع كانوا قد ذاقوا العذاب معاً ، لقد قاسوا من عذاب الجسم مثلما قاسوا من عذاب النفس ، قاسوا الفراغ العسير ، والمنفى الذى لم يكن له علاج،

والظمأ الذى لم يكن ليطفأ أبداً . فى وسط هذه الأكوام المكدسة من الموتى ورنين عربات الإسعاف، وإنذارات ما اصطلح على تسميته بالقدر ووطأ أقدام الخوف الملحة ، وثورة القلوب ،كانت هناك شائعة لا تكف عن السريان بين هؤلاء المفزوعين لتنذر تلك النفوس الملعة بضرورة العودة إلى وطنها الحقيقى ، وكان الوطن الحقيقى بالنسبة لهم جميعاً يقع فيما وراء جدران تلك المدينة المختنقة . كان يقع فوق الحشائش الشذية العرف ، وفوق التلال وفى البحر وفى البلاد الحرة وفى كل ما للحب من وزن . وكانوا يريدون العودة إلى هذا الوطن ، إلى السعادة ، أما ما عدا ذلك فكانوا يشيحون عنه بامتعاض .

أما عما يمكن أن يكون هناك من معنى لذلك المنفى ، وهذه الرغبة فى اللقيا فلم يكن ريو يعرف عنه شيئا . كان يواصل سيره والجوع تتدافع حوله من جميع الجهات والأسئلة توجه إليه حتى ابتعد شيئا فشيئا ، ووصل إلى شوارع أقل ازدحاما . لقد كان يفكر أنه لم يكن من المهم أن يكون لتلك الأشياء معنى أو لا يكون ، ولكن كل ما ينبغى الاتجاه إليه هو النظر فيما يتجاوب مع آمال الناس .

لقد كان يعرف منذ الآن ما يتجاوب مع آمال الناس ، وكان يتبينـــه بوضوح أجلى فى الشوارع الأولى من الأحياء المتطرفة ، الشوارع المقفرة تقريبا ؛ فهؤلاء الذين لم يكونوا يتمنون سوى العودة إلى مقر حبهم . لقد نالوا — فى بعض الأحيان — ما تمنوا رغم قلة عددهم ، ولكن من المؤكد أن بعضهم قد استمر يتجول فى المدينة بمفرده بعد أن حرم من الشخص الذى كان ينتظره . وكذلك كان من السعداء أولئك الذين لم يقاسوا ألم الفراق مرتين كبعض الناس الذين لم يستطيعوا قبل

الطاعون أن يوطدوا أركان حبهم منذ الوهلة الأولى ، والذين كانوا قد قضوا السنين الطويلة فى حياتهم المشتركة الصعبة وهم مغمضو العينين ، تلك الحياة التى تنتهى بربط أواصر الألفة بين الأعداء المتحابين .

لقد كان هؤلاء — ومن بينهم ريو نفسه — من سطحية التفكير بحيث اعتمدوا على الزمن ، فظلوا مفترقين إلى الأبد، ولكن كان هناك آخرون قد عادوا دون تردد إلى الغائب الذى ظنوا أنهم فقدوه ، ومنهم رامبير الذى كان الطبيب قد غادره فى الصباح وهو يقول له : « تشجع ، إن ذلك هو الوقت الذى ينبغى أن يشعر المرء فيه بالانتصار». وهؤلاء سيكونون سعداء ، لفترة ما على الأقل . إنهم يعرفون الآن أنه إذا كان ثمة شىء يتمناه الناس دائما ، ويحصلون عليه أحيانا فهو الحنان .

أما هؤلاء الذين كانوا قد أرسلوا دعاءهم فيما وراء النطاق البشرى إلى شىء لا يستطيعون حتى مجرد تخيله فإنهم — على العكس من ذلك — لم يتلقوا أى جواب . ويبدو أن تارو كان قد لحق بذلك السلام العسير الذى كان يتحدث عنه ، ولكنه لم يجده إلا فى الموت، وفى الوقت الذى لم يعد فيه السلام يجديه شيئا . وأما أولئك الذين كان يراهم ريو أمام بيوتهم فى ضوء الغروب الخافت وقد تعانقوا بكل قواهم ، وأخذوا يتبادلون النظرات فى حبور وانفعال ، فإنهم إذا كانوا قد نالوا ما تمنوا فلم يكن ذلك إلا لأنهم لم يطلبوا أكثر مما يتوقف عليهم .

وفى اللحظة التى أدار فيها ريو سيارته فى الشارع الذى يسكن فيه جران وكوتار أخذت تدور فى رأسه هذه الفكرة ، وهى أنه من الحق أن يغمر الفرح — من وقت لآخر على الأقل — أولئك الذين يقنعون بمقدور الكائن البشرى ونصيبه من الحب، ذلك النصيب البائس الرهيب .

إن هذه المذكرات تقترب من نهايتها، وقد آن الأوان لكي يعترف الدكتور «برنارريو» بأنه صاحبها ولكنه يود — قبل أن يخط آخر أحداثها — أن يبرر تدخله، وأن يبين للقارىء أنه قد استمسك بلهجة الشاهد المحايد. فقد مكنته مهنته — طيلة مدة الطاعون — من الاتصال بأغلبية مواطنيه ومن التعرف على مشاعرهم. لقد كان إذن في خير موقف يمكنه من رواية ما رآه وما سمعه، ولكنه حرص على أن يقوم بذلك بما ينبغي له من تحفظ. وقد حرص على وجه العموم ألا يروي شيئاً أكثر مما استطاع أن يرى، وألا ينسب إلى رفاقه في الطاعون أفكاراً لم تكن لهم، وألا يستعمل سوى النصوص التي وضعتها الصدفة أو الكارثة بين يديه.

ولما كان قد دعي للشهادة بمناسبة إحدى الجرائم، فقد التزم بعض التحفظ الذي يليق بشاهد خالص النية. ولكن في نفس الوقت حمله قلبه النبيل على الانضمام — بعد تفكير — إلى صف الضحية، وأراد أن يجمع الناس، أن يجمع مواطنيه على الحقائق الوحيدة التي يشتركون فيها جميعاً، ألا وهي الحب والألم والمنفى وهكذا لم يكن هناك أمر من الأمور التي أقلقت مواطنيه إلا شاركهم فيه، ولا موقف من مواقفهم إلا كان موقفه هو أيضاً.

وقد آلى على نفسه — لكى يكون شاهداً أميناً — ألا يستشهد بغير الأفعال والوثائق والشائعات . أما ما كان فى وسعه هو شخصياً أن يقوله ، أما انتظاره وتجاربه الشخصية ، فقد رأى لزاما عليه أن يكتمها . وإذا كان قد استعان بها فلم يكن ذلك إلا لكى يفهم مواطنيه ، ويساعد الآخرين على فهمهم ، ولكى يحدد بقدر الامكان ما كانوا يحسونه ، فى فى أغلب الأحيان ، بصورة غامضة . والحقيقة أن هذا المجهود العقلى لم يكلفه شيئاً . ذلك أنه كان كلما شعر بالميل إلى مزج أحاسيسه الشخصية بآلاف المؤلفة من أصوات مرضى الطاعون كانت تعترضه تلك الفكرة وهى أنه لم يكن هناك من ألم إلا تقاسمه الناس جميعاً ، وأن هذه ميزة هامة بالنسبة لذلك العالم الذى غالباً ما يعيش فيه الألم وحيداً . لقد كان عليه بطبيعة الحال أن يتكلم باسم الجميع .

ولكن كان هناك — على الأقل — شخص واحد من مواطنينا لم يكن فى مقدور الدكتور ريو أن يتكلم عنه . وذلك هو الشخص الذى قال عنه تارو يوما ما لريو : « إن جريمته الحقيقية الوحيدة هى أنه أقر بقلبه ذلك الشىء الذى يتسبب فى موت الأطفال والكبار . أما ما عدا ذلك فإنى أفهمه ، وهذا أيضاً أرانى مضطرا لأن أغفره له » . وإنه لمن العدل أن تختتم هـــذه المذكرات به ، فقد كان له قلب جاهل ، أى قلب غارق فى الوحدة .

ولم يكد ريو يغادر الشوارع الكبيرة التى تتردد فى جنباتها ضوضاء العيد ، ويدلف فيها إلى شارع جران وكوتار ، حتى أوقفه حاجز من رجال الشرطة ، ولم يكن يتوقع ذلك لأن صخب العيد الذى يصل إليه

من بعيد كان يجعل الحى يبدو أمامه ساكنا ، وكان يتصوره مقفراً بقدر ما هو صامت . وأخرج ريو بطاقته ، فأجابه الشرطى .

— مستحيل يا دكتور ، فإن هناك مجنونا يطلق النار على الناس ، ولكن ابق قريباً منا فقد نحتاج إليك .

وفى هذه اللحظة نظر ريو فرأى جران قادماً نحوه،ولم يكن هو الآخر يعرف شيئا ، ومنع هو أيضا من المرور ، ثم علم أن تلك الطلقات تصدر من منزل . والواقع أنه كانت ترى من بعيد واجهة المنزل وقد طرزتها الشمس الخابية بخيوط ذهبيه من أشعتها الغاربة . ومن حول المنزل كان هناك قطاع كبير خال يمتد حتى الإفريز المقابل ،وفى وسط الشارع كانت ترى بوضوح قبعة وقطعة من قماش قذر ملقاتان على الأرض ، وكان فى مقدور ريو وجران أن يريا على بعد كبير فى الناحية المقابلة من الشارع حاجزاً آخر من رجال الشرطة موازياً لذلك الذى منعهما من التقدم،ومن خلفه بعض سكان الحى يروحون ويغدون بسرعة ، ولما دققا النظر رأيا كذلك بعض رجال الشرطة وقد أمسكوا بمسدساتهم ، وانبطحوا أرضا أمام أبواب العمارات المواجهة للمنزل ، وكانت نوافذ المنزل الخشبية كلها مغلقة ، ومع ذلك فقد كانت هناك نافذة فى الدور الثانى تبدو مواربة وكان السكون مخيما فى الشارع ،ولم يكونوا يسمعون سوى نبرات موسيقية آتية من قلب المدينة .

وفى لحظة ما صدرت من أحد المنازل المقابلة لمنزل جران طلقتان من مسدس تبعتهما انفجارات راجعة من النافذة المواربة، ثم عاد السكون

من جديد . وكان كل ذلك يبدو من بعيد كالوهم في نظر ريو بعد ضوضاء اليوم الذى مر به ، وقال جران لجأة باضطراب :

ـــ إنها نافذة كوتار ، ولكن كوتار مع ذلك قد اختفى .

وسأل ريو الشرطى :

ـــ لماذا يطلقون النار ؟ وأجاب الشرطى :

ـــ إنهم يلهونه ، وهم فى انتظار سيارة تحمل المعدات اللازمة ، لأنه يطلق النار على من يحاولون الدخول من باب العمارة ، وقد أصيب أحد رجال الشرطة :

ـــ ولماذا يطلق هو النار ؟

ـــ لا يدرى أحد سبباً لذلك . كان الناس يلهون فى الشارع ، ولما سمعوا أول طلقة لم يفهموا شيئاً ، ولما سمعوا الطلقة الثانية صدرت منهم بعض صرخات ، وسقط أحدهم جريحاً ، ثم ولوا الأدبار جميعاً . إنه مجنون بلا شك .

ولما عاد السكون بدت الدقائق وكأنها تتلكأ فى مرورها ، وفجأة ، رأوا من الناحية الأخرى من الشارع كلبا يبرز ، أول كلب يراه ريو منذ وقت طويل . لقد كان كلبا ضئيل الجسم بادى القذارة ، لابد وأن يكون أصحابه قد أخفوه حتى الآن . وأخذ يجرى جرياً بطيئاً محاذيا للجدران . ولما وصل قرب الباب تردد وأقعى على مؤخرته ، ثم انقلب ليلتهم براغيثه ، وانطلقت صفارات رجال الشرطة العديدة تدعوه ، فرفع رأسه ، ثم حزم أمره على أن يجتاز الشارع ببطء ليذهب إلى القبعة يتشممها ، وفى نفس اللحظة صدرت طلقة من الدور الثانى ، فانقلب الكلب

رأساً على عقب ، وأخذ يحرك أرجله بعنف، ثم انقلب أخيراً على جانبه وهو ينتفض انتفاضات الموت ، وأجاب على هذه الطلقة خمس طلقات أخرى أو ست انبعثت من الأبواب المقابلة، فزادت الشباك الخشبي تفتتاً . وعاد السكون ، وكانت الشمس قد استدارت قليلا، وبدأ الظلام يقترب من نافذة كوتار ، وسمعت فى الشارع من خلف ريو ضوضاء ألجمة خيل تئن أنيناً خافتاً . وقال الشرطى :

ــ ها هم قد حضروا .

وبرز من وراء ظهورهم جمع من رجال الشرطة يحملون حبالا وسلماً ولفافتين سميكتين لفتا فى قماش مشمع ، ودلفوا إلى أحد الشوارع المحيطة بمجموعة المنازل المقابلة لعمارة جران ، وبعد لحظة شعر الناس باضطراب أمام أبواب هذه المنازل ، ولكن دون أن يروا شيئاً ، فوقفوا ينتظرون. ولم يعد الكلب يتحرك ، ولكنه كان غارقاً فى بركة قاتمة .

وعلى حين غرة سمعت طلقات مدفع رشاش تنبعث من نوافذ المنازل التى احتلها رجال الشرطة ، وأخذت النافذة الخشبية التى كانت تصوب إليها الطلقات تتساقط كاشفة عن بقعة سوداء لم يستطع ريو وجران ــ وهما فى فى مكانهما ــ أن يميزا فيها شيئاً ، ولما توقف إطلاق النار بدأ مدفع آخر يطلق رصاصه من زاوية أخرى من منزل أبعد مدى ، وأغلب الظن أن الرصاص كان يدخل من إطار النافذة ، بدليل أن إحدى هذه الرصاصات قد نسفت بعض الطوب . وفى الثانية ذاتها عبر الشارع ثلاثة من رجال الشرطة ، واندفعوا إلى مدخل البيت ، وفى التو تبعهم ثلاثة آخرون ، وتوقفت ضربات المدفع الرشاش ، وقد ظل الناس ينتظرون ، وسمعت

ضربتان بعيدتان تدويان فى المنزل ، وترددت بعض الأصداء التى راحت تتزايد ، ثم رأى الناس رجلا قصير القامة يخرج محمولا أكثر منه مقوداً، وهو يصرخ دون توقف ، وفتحت جميع النوافذ المغلقة ، كما لو كان ذلك بفعل قوة خفية، وامتلأت بالمستطلعين ، بينما أخذت جموع الناس تخرج من المنازل وتتسابق خلف حواجز الشرطة ، وبعد لحظة شاهد الناس الرجل القصير وسط الشارع وقد لمست قدماه الأرض فى نهاية الأمر ، وكبل رجال الشرطة ذراعيه من خلف ظهره ، ولما لم يكن قد كف عن الصياح اقترب منه أحد رجال الشرطة وضربه مرتين بقبضتى يديه بكل ما فيهما من قوة ، وكان يبدو أنه يفعل ذلك بإتقان مرموق .

وتمتم جران قائلا :

ـــ إنه كوتار ، لقد جن .

وسقط كوتار على الأرض ، وهنا رأى الناس الشرطى مرة أخرى يوجه قدمه بكل قوتها إلى الكومة الراقدة أمامه على الأرض ، ثم ساد الاضطراب جمع من الناس ، وتوجهوا نحو الطبيب وصديقه العجوز ، وهنا قال الشرطى :

ـــ هيا ، انصرفوا .

وأدار ريو عينيه عندما مر الجمع أمامه .

وسار جران والطبيب فى ظل الغروب الموشك على نهايته ، وكان الحى قد نشط كما لو كان هذا الحادث قد نفض عنه الخمول الذى كان يغط فيه .

وأخذت هذه الشوارع النائية تمتلئ من جديد بطنين جمهور تغمره الفرحة ، وعند باب المنزل قال جران للطبيب : إلى اللقاء . لقد كان فى طريقه إلى العمل ، ولكن فى اللحظة التى هم فيها بالصعود ، قال له : إنه كتب إلى چان ، وأنه الآن يشعر بالرضا ، وأنه قد بدأ جملته من جديد . ثم أضاف قائلا :

« لقد حذفت منها جميع الصفات » .

وفى ابتسامة ماكرة رفع قبعته فى صورة تحية مسرحية ، ولكن ريو كان يفكر فى كوتار ، وفى اللكمات المكتومة التى اخترقت وجهه ، وفى صوتها الذى كان يلاحقه طول مدة اتجاهه إلى منزل العجوز المريض بالربو ، ولعل التفكير فى رجل مذنب كان أشق عليه من التفكير فى رجل ميت .

ولما وصل ريو عند مريضه العجوز كان الليل قد التهم السماء بأجمعها ، وكان فى وسع من فى الغرفة أن يسمع من نافذتها همهمة الحرية الآتية من بعيد ، وكان الرجل الهرم مستمرا فى نقل حبات البازلاء من وعاء إلى آخر فى حركة رتيبة تنم عن نوع من الجمود ، وقال له :

— إنهم على حق فى لهوهم ، فإنه لابد من وجود شىء لتكوين عالم من العوالم ، وزميلك يا دكتور ، ما هى أخباره ؟

وحينئذ قرعت أسماعهما بعض الطلقات ، ولكنها كانت طلقات سلمية ، فقال :

— إنهم أطفال يطلقون لعبهم النارية ، ورد الدكتور — وهو يفحص صدر مريضه الذى يضطرب بالشخير — :

ـــ لقد مات .

فتوقف العجوز بعض الوقت مبهوتاً ، ثم قال : آه !

وأضاف ريو :

ـــ بالطاعون .

وقال العجوز بعد لحظة :

ـــ نعم ، إن خير الناس هم الذين يذهبون . هذه سنة الحياة ، ولكنه كان رجلا يعرف ما يريد .

وقال الطبيب وهو يعدل وضع سماعته :

ـــ لماذا تقول ذلك ؟

ـــ للاشيء . إنه لم يكن يتكلم دون جدوى ، وأياً ما كان ، فقد كان يعجبنى أنا شخصيا، ولكن هذه حال الدنيا .إن الناس يقولون: « إنه الطاعون ، لقد حل بنا الطاعون » . ومن أجل ذلك يكادون يطالبون بالنياشين . ولكن ما معنى هذا ؟ ما معنى الطاعون ؟ إنها الحياة، هذا كل ما فى الأمر .

وقال الطبيب :

ـــ ضع كمادا تك بانتظام .

فرد عليه العجوز بقوله :

ـــ لا تخش شيئاً، فإن الوقت مازال أمامى طويلا ، وسأرى جميع من حولى يموتون قبلى ، أما أنا فأعرف كيف أعيش .

وغشيت الغرفة صيحات فرحة تجيب عليه من بعيد ، وتوقف الطبيب وسط الغرفة ، وقال :

ـــ هل يضايقك أن أذهب إلى السطح ؟ فرد بقوله :
ـــ كلا ، كلا . أتريد أن تراهم من فوق ؟ أليس كذلك ؟
إفعل ما يحلو لك ، ولكنهم ـــ هم أنفسهم ـــ لم يتغيروا .
وتوجه ريو إلى السلم ، ولكن صوت العجوز لاحقه متسائلا :
ـــ قل لى يا دكتور : هل صحيح أنهم سوف ينشئون نصبا تذكاريا لموتى الطاعون ؟
وأجاب الطبيب :
ـــ هذا ما تقوله الصحف ، إنهم سوف يقيمون إما نصباً أو لوحة تذكارية .
فقال :
ـــ لقد كنت واثقا من ذلك ، وسوف تلقى الخطب .
ثم أخذ العجوز يضحك ضحكات مختنقة ، ويقول :
ـــ إنى أسمعهم من هنا وهم يصيحون « إن موتانا . . . » ، ثم بعد ذلك يذهبون لالتهام طعامهم .

وكان ريو قد صعد السلم ، وكانت السماء العريضة الباردة تتألق فوق المنازل ، وبالقرب من التلال كانت النجوم تبدو صلبة كأنها قطع من السليكا ، ولم تكن تلك الليلة تختلف عن تلك التى صعد فيها مع تارو فوق هذا السطح لكى ينسيا الطاعون ، غير أن البحر فى هذا اليوم كان أكثر صخباً عند أقدام الشواطىء ، وكان الهواء خفيفاً ساكنا ، قد تخفف من الأنفاس المالحة التى تجلبها معها رياح الخريف الدافئة ، وفى هذه الأثناء كانت ضوضاء المدينة تتلاطم أسفل الشرفات ، كما لو كانت

هدير الموج . ولكن تلك الليلة كانت ليلة الخلاص لا ليلة الثورة. ومن بعيد كانت الحلكة الضاربة إلى الحمرة تحدد أماكن الشوارع الكبيرة، والميادين المتألقة بالأنوار . أما الرغبة، فكانت قد تخلصت مما كان أمامها من عوائق فى ذلك الليل الذى عادت إليه الآن حريته ، ولم تكن الزمجرة التى تقرع آذان ريو فى هذه اللحظة إلا زمجرتها .

ومن الميناء المظلم انطلقت أول الصواريخ النارية إعلانا عن البهجة الرسمية ، وحيتها المدينة بصيحة طويلة مكتومة . إن كوتار وتارو وكل من أحبهم ريو من الرجال والنساء ثم فقدهم قد ذهبوا جميعاً فى طى النسيان سواء من مات منهم أو من كان مذنباً . إن العجوز كان مصيبا ، فإن الناس دائما هم الناس ، ولكن هذا هو مصدر قوتهم وبراءتهم ، وكان ريو يشعر رغم آلامه أنه يشترك معهم فى ذلك ، وفى وسط الصيحات التى كانت تتضاعف قوة واتساعا ، والتى كان يتردد صداها حتى يرتطم بأسفل الشرفة كلما ارتفعت فى سماء المدينة باقات الألعاب النارية المتعددة الألوان ، قرر الدكتور ريو أن يكتب تلك القصة التى تصل الآن إلى نهايتها ، وذلك حتى لا يكون من أولئك الذين يلزمون الصمت ، وحتى يقدم شهادة فى صالح مرضى الطاعون ، ولكى يترك من ورائه على الأقل شهادة تذكر بالظلم والعنف اللذين حاقا بهم . وأخيرا لكى يذكر ببساطة أننا نتعلم من النكبات أن الإنسان فيه مما هو جدير بالإعجاب أكثر مما يستحق الازدراء .

ولكنه كان يعرف مع ذلك أن تلك القصة لا يمكن أن تكون قصة النصر النهائى . إنها ليست إلا شهادة على ما لا بد لهؤلاء الناس من تحقيقه

وما ينبغى لهم أن يحققوه — فى أغلب الظن — رغم الإرهاب وسلاحه الذى لا يكل ، ورغم همومهم الشخصية . ذلك أنهم إذا كانوا لا يستطيعون أن يكونوا قديسين ، ويرفضون الاستسلام للأوبئة ، فإنهم مضطرون أن يكونوا أطباء .

والواقع أن ريو كان ينصت إلى صيحات الفرح تتصاعد من المدينة ، فيذكر أن ذلك الفرح ما زال مهدداً ؛ لأنه كان يعرف ما تجهله تلك الجموع المبتهجة ، وما يمكن قراءته فى الكتب من أن جرثومة الطاعون لا تموت ولا تختفى أبداً ، وأنها قد تظل عشرات السنين نائمة فى الأثاث والفرش ، وأن تنتظر — فى صبر وأناة — فى الغرف والأقبية والحقائب والمناديل والأوراق القديمة ، وأنه ربما يأتى يوم يوقظ فيه الطاعون فئرانه ، ويبعث بها إلى الناس من أجل شقائهم وتعليمهم ، لكى يختطفهم الموت من بين أحضان مدينة سعيدة .

ملتزم الطبع والنشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - ت : ٥١٤٠١

القاهرة

دار الثقافة العربية للطباعة

شارع تولة - الدبابة عابدين

